المختار من

طبقات الشافعية الكبرى

لتاج الدين عبدالوهاب بن علي بن عبدالكافي السبكي

المتوفى عام ٧٧١هـ

وقد حذفت الأخبار المكررة الواردة في سير أعلام النبلاء للذهبي

والوافي بالوفيات للصفدي

اختيار

د. محمد بن موسى الشريف



الطَّبْعَةُ الأُولَى
١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م

دار الأندلس الخضراء

المملكة العربية السعودية – جدة

الإدارة: ص.ب : ٤٢٣٤٠ جدة ٢١٥٤١ هاتف : ٦٨١٠٥٧٧ – فاكس : ٦٨١٠٥٧٨

المكتبات : ◆ حي السلامة – خلف مسجد الشعيبي هاتف – فاكس : ٦٨٢٥٢٠٩

◆ حي الثغر – شارع باخشب – هاتف: ٦٨١٥٠٢٧ – فاكس: ٦٨١٠٥٧٨

◆ مكتب الرياض : هاتف / فاكس : ٢٤٣٤٩٣٠

الموقع: www.alandalos.com - البريد الإلكتروني: info@alandalos.com

الحمد لله الذي رفع قدر هذه الأمة بالإسلام، وأعزها بنبي هو أعظم الأنام، وشرفها بأن وصل تاريخها بتاريخ الأنبياء العظام والرسل الكرام، فصار تاريخ هذه الأمة مرفوعاً إلى آدم عليه السلام، خصيصة لها من بين الأمم والأقوام.

وأشهد أن لا إله إلا الله العظيم، الواحد الأحد الفرد الصمد العزيز الحليم، وأشهد أن نبينا محمداً عبده ورسوله الأمين، صل اللهم عليه وعلى آله الطاهرين وأصحابه الغر الميامين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

فإن من خير ما يصرف فيه المرء أيامه، ويقضي فيه أوقاته، وينفق فيه ساعاته ودقائقه لهو تصفح كتب التاريخ؛ إذ هو كنز العبر، وديوان العظات، ومرجع المتأملين، وفيه سير الصالحين، وجهاد الأبطال والشجعان، وزهد الزهاد، وتعبد العباد، وتضحيات المضحين، وفيه أخبار القرون، وأعمال السنين، وذكر الخلفاء والملوك والأمراء والسلاطين، وفيه أخبار المعارك ما نُصرنا فيها وما هُزمنا، وفيه سرد لجملة من المفاخر والمآثر، والأخلاق الكريمة التي تزين بها الدفاتر، وعلى الضد من ذلك فيه سرد لصفات وأخلاق سيئة؛ فلا غرو إذن أن يكون كنزاً ثميناً، ونبعاً ثراً معيناً، على العقلاء ألا يضيعوه، وأن يغترفوا منه ولا يهملوه؛ لماله من أثر كبير في غرس السلوك السوي، ونزع الغَوِيّ.

وكنت – قديماً – قد اختصرت كتاب "سير أعلام النبلاء" للحافظ الذهبي (ت ٧٤٨) رحمه الله تعالى، وهو يتحدث فيه عن أخبار أشخاص

عاشوا في مدة زمنية هي القرون السبعة الهجرية الأُوَل، لكني وجدت أن الحافظ الذهبي رحمه الله تعالى قد غفل عن ذكر جملة من التراجم ذكرها غيره واقتصر في بعضها على نبذٍ توسع فيها غيره، فعمدت إلى الموسوعة الكبيرة: «الوافي بالوفيات» للصفدي (ت ٧٦٤هـ) - رحمه الله تعالى - فاختصرتها، وهي تتعلق بالمدة نفسها واستثنيت من الاختصار والاختيار ما أورده الحافظ الذهبي في سيره حتى أتجنب التكرار، ثم وجدت أن «طبقات الشافعية الكبرى» للحافظ عبدالوهاب السبكي (ت ٧٧١هـ) - وهي تتعلق بالمدة نفسها تقريباً قَد أورد فيها كنوزاً لم يوردها غيره - فيما قرأت واطلعت - فهذبته للقارئ، وأخرجت كنوزه ودرره، فيما أظن وأحسب، مستثنياً من الاختيار ما جاء في الكتابين السابقين المذكورين آنفاً حتى أتجنب التكرار وأظن أني بإتياني على هذه الكتب الثلاثة قد استوعبت ترجمة أكثر المشارقة من أهل القرون السبعة الأوَل ممن في تراجمهم فائدة لعموم القراء، وقد بقي عليّ جملة من المغاربة أسأل الله تعالى أن يعينني على إخراج كنوز حياتهم ودررها.

منهجي في تهذيب الكتاب:

١ - اصطفيت من الكتاب كل ما فيه فائدة لعموم القراء بشرط ألا تكون تلك الفوائد مذكورة في تهذيب كتابي الحافظ الذهبي والصفدي حتى أوجز وأجتنب التكرار، لكني قد أورد الخبر مكرراً إذا كان الحافظ السكبي توسع في ايراده وزاد في بيان فائدته على مافي كتابي السير والوافي؛ لذلك جاء حجم الكتاب صغيراً؛ إذ هو مكمل لكتابيهما، متمم لفوائدهما، ولذلك أيضاً جاءت أكثر التراجم مقتصرة على ذكر

الفوائد تقريباً ولم أتوسع فيها لورود أكثرها مفصلة في الكتابين السابقي الذكر.

٢- أعرضت عما كان في كلام الحافظ السبكي من شطط في التصور أو الحكم؛ خاصة كلامه في الحافظ الذهبي - وهو شيخه - فقد توغل في الإساءة إليه والحط من قدره على وجه ظاهر - وهو الأكثر - أو على طريقة الذم بما يشبه المدح.

٣- وأعرضت عما أتى به الحافظ السبكي - رحمه الله تعالى - من ذكر الخلاف العقدي والتوسع فيه، وأكثر ما جاء به كان فيه تشفٍ ظاهر من الحنابلة، فلم أرد الدخول في صداع طويل وقال وقيل، فحذفته كله أو أكثره، ومثال على ذلك ما جاء في ترجمة الإمام عز الدين بن عبدالسلام رحمه الله تعالى.

٤- وصرفت النظر كذلك عن جملة من الأحاديث لم تصح، وعن بعض القصص والأخبار والأحوال التي ليس في ذكرها فائدة للعموم، بل قد تثير فتناً وإشكالات.

٥- هناك جملة من الفوائد أوردها المصنف في مقدمته، وفي ثنايا الكتاب لا يربطها بالتراجم رابط محدد، فرأيت أن أجمعها للقارئ في آخر الكتاب حتى لا تفوته.

٦- حذفت الأسانيد المطولة التي أوردها المصنف في كتابه واكتفيت بذكر قائل الخبر أو الحكاية، ولا بأس بهذا فالأصل موجود لمن أراد الرجوع ليتحقق من صحة الخبر؛ هذا أولاً، وثانياً: لا بأس بإيراد الأخبار عن الأئمة والزهاد والفضلاء وإن لم تثبت بالموازين الحديثية القوية

الصارمة، وإن شابها ضعف أوانقطاع أو جهالة حال أو عين في سندها بشروط، أرى أن منها:

أ- ألا تكون متعلقة بالعقائد.

ب- ولا تكون مخبرة عن الفتن التي جرت في الصدر الأول.

ج- ولا تكون متعلقة بأحكام الشرع.

د- وألا تكون خارجة عن الأصول العامة للشريعة.

فهذه الشروط إن تحققت في الخبر فلا بأس بإيراده، ولا حرج إن شاء الله، هذا عدا عن الأحاديث عن النبي ﷺ فلها شروط وضوابط حال ضعف إسنادها فصلها العلماء فلتطلب في مظانها.

٧- وقد أتيت في نهاية الكتاب بفهرست مفصل للفوائد يقع فيه الناظر على مبتغاه من الكتاب، على غرار فهارس الكتب التالية:

أ- نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء.

ب- المختار المصون من أعلام القرون.

ج- الرحلات الحجازية إلى مكة المكرمة والمدينة النبوية.

هذه هي الكتب الطوال.

د- ومختصر كتاب الروضتين في أخبار الدولتين.

هـ- ومظهر التقديس في زوال دولة الفرنسيس.

وأقول:

قد وضعتُ لتلك الكتب فهارس مطولة مفصلة؛ فلا أذكر أني تعبت في شيء من التصنيف تعبي في وضع هذه الفهارس، ولا تعنيت في شيء كما

تعنيت في تلك الفهرسة ؛ وقد صنعت فهارس مفصلة لفوائد هذا الكتاب أيضاً راجياً الأجر من الله تعالى والثواب على الجهد الذي بذلته فيها ، ومنهجي في إعداد فهرست الفوائد قد وضحته بإيجاز في مقدمة الفهرست.

وصنيعي هذا - أي صنع فهرست مفصل للفوائد - أرى أنه لابد منه لتكمل الاستفاده من كتب التاريخ المهذبة.

أهمية الكتاب :

١ - «طبقات الشافعية الكبرى» كتاب تاريخي مهم ، وقد وثق فيه المصنف حوادث انفرد ببعضها وشارك الآخرين في أكثرها ، ولكن أتى بها على وجه مميز بما سأذكره بعد هذه الفقرة إن شاء الله تعالى.

٢ - الكتاب مكتوبة بلغة عربية سليمة ، وأسلوب أدبي جيد مما يساعد من يريد للغته رصانة ولأسلوبه جزالة.

٣ - المؤلف يعقب على كثير من الأخبار بالنقد المناسب ، حاشا ما يتعلق بالأمور العقدية - كالخلاف بين الأشعرية والحنابلة - فإنه كثيراً ما يخالف أدب الخلاف في هذه القضايا ، وتعامله مع شيخه الحافظ الذهبي أوضح دليل على هذا ، وهو مما طويته فلم أورده لشناعته وقلة فائدته.

٤ - يتوسع المصنف - رحمه الله تعالى - في الحديث عن الرقائق والزهد والتعبد ، مما يجعل كتابه ذا قيمة أخلاقية تهذيبية جليلة.

٥ - في الكتاب فوائد فريدة لم أرها في غيره من الكتب ، قد انفرد الحافظ بإيرادها ، وهي من جملة استنباطاته أو استنباطات أبيه الإمام أو أصحابه الشافعية رحمهم الله جميعاً.

٦- الكتاب محقق على أحسن مايكون التحقيق، ولا جرم فالمحققان علمان ضخمان في التحقيق والضبط وهما الدكتوران محمود الطناحي وعبدالفتاح الحلو رحمهما الله تعالى، وقد استفدت من تحقيقهما وعملهما الجليل، وأبقيت بعض الهوامش التي لهما مما رأيته مناسباً.

وهناك غير ذلك من الجوانب التي تجعل كتابه جديراً بالتهذيب، حقيقاً بالاصطفاء منه والاختصار، وتقديم ذلك كله إلى القراء، ولولا أني سبق لي أن اختصرت كتاب الحافظ الذهبي واكتفيت بما جاء فيه عن كثير مما جاء في كتاب الحافظ السبكي، وكذلك كتاب الصفدي: «الوافي بالوفيات»، لولا ذلك لأتى حجم الكتاب أكبر بكثير مما هو بين يدي القارئ الآن، كما سبق ذكر ذلك آنفاً.

ترجمة الحافظ السبكي

هو الحافظ الإمام عبدالوهاب بن علي بن عبدالكافي، تاج الدين السبكي. ولد سنة ٧٢٧هـ، وأجاز له جماعة. قدم دمشق سنة ٧٣٩هـ فسمع بها الحديث، ولازم الاشتغال بالفقه والأصول والعربية، وصنف تصانيف مفيدة رُزق فيها السعادة. كان ذا بلاغة وطلاقة، جيد البديهة، طلق اللسان، حسن النظم والنثر، ودرّس في أغلب مدارس دمشق. ناب عن أبيه، وانتهت إليه رئاسة القضاء بالشام، وجرى عليه من المحن والشدائد مالم يجر على قاض قبله، وحصل له من المناصب والرئاسة مالم يحصل لأحد من قبله،

وأبان في أيام محنته عن شجاعة وقوة مناظرة حتى أفحم خصومه وعاد إلى وظائفه، وكان كريماً مهاباً. توفي سنة ٧٧١ رحمه الله تعالى[١]

هذا وأسأل الله تعالى أن ينفع بهذا المختار كما نفع بأصله وأكثر، وأن يوفقني ويأخذ بيدي لإتمام ما أريد إتمامه من التصنيف والتهذيب والاختصار، وأن يمن علي بالإخلاص، وأن يهبني اليقين، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

والله أعلم وأحكم، وصل اللهم وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

وكتبه

محمد بن موسى الشريف

mmalshareef@hotmail.com

WWW.ALTREEKH.COM

---

(١) "البدر لطالع بمحاسن من بعد القرن السابع" للشوكاني: ١/٤١٠- ٤١١.

الجنيد

هو الجنيد بن محمد بن الجنيد أبو القاسم، النهاوندي الأصل، البغدادي، القواريري[1]، الخزَّاز[2].

[١] تفقه على أبي ثور، وكان يفتي بحلقته وله من العمر عشرون سنة.

وسمع الحديث من الحسن بن عرفة، وغيره.

واختص بصحبة السري السَقَطِيّ، والحارث بن أسد المُحاسبي، وأبي حمزة البغدادي.

قال جعفر الخُلْدِي:

[٢] لم نرَ في شيوخنا من اجتمع له علم وحال غير الجنيد، إذا رأيت علمه رجحته على حاله، وإذا رأيت حاله رجَّحْتَه على علمه.

[٣] وقال أبو القاسم الكعبي المتكلم، المعتزلي:

ما رأت عيناي مثله، كان الكتبة يحضرونه لألفاظه، والفلاسفة لدِقَّة معانيه، والمتكلمون لعلمه.

[٤] قال الخلدي: قال الجنيد ذات يوم:

---

(١) القواريري: نسبة إلى عمل القوارير وبيعها.

(٢) الخزاز: نسبة إلى بيع الخز، وهي الثياب الفاخرة.

ما أخرج الله إلى الأرض علماً، وجعل للخلق إليه سبيلاً إلا وقد جعل لي فيه حظاً ونصيباً.

قال الخلدي:

[٥] وبلغني أن الجنيد كان في سوقه، وكان ورده في كل يوم ثلاثمائة ركعة، وثلاثين ألف تسبيحة.

قال وسمعته يقول:

[٦] ما نزعتُ ثوبي للفراش منذ أربعين سنة.

[٧] قال علي بن محمد الحلواني: حدثني خير، قال:

كنت جالساً يوماً في بيتي، فخطر لي خاطر أن أبا القاسم الجنيد بالباب، اخرج إليه. فنفيت ذلك عن قلبي، وقلت: وسوسة. فوقع لي خاطر ثان، فنفيته، فوقع خاطر ثالث، فعلمت أنه حق، وليس بوسوسة، ففتحت الباب، فإذا أنا بالجنيد قائم، فسلم عليّ، وقال: يا خير: ألا خرجت مع الخاطر الأول.

[٨] قال أبو عمرو بن عُلوان:

خرجت يوماً إلى سوق الرحبة في حاجة، فوقعت عيني على امرأة مُسْفِرة، من غير تعمد، فألححت بالنظر، فاسترجعتُ، واستغفرت الله، وعدت إلى منزلي، فقالت لي عجوز: يا سيدي، مالي أرى وجهك أسود. فأخذت المرآة، فنظرت فإذا وجهي أسود، فرجعت إلى سري أنظر من أين دُهيت فذكرت النظرة، فانفردت في موضع أستغفر الله، وأساله الإقالة أربعين يوماً، فخطر في قلبي: أن زر شيخك الجنيد، فانحدرت إلي بغداد، فلما جئت

الحجرة التي هو فيها طرقت الباب، فقال لي: ادخل يا أبا عمرو، تذنب في الرحبة، ونستغفر لك ببغداد.

قال أبو بكر العطار:

[٩] حضرت الجنيد عند الموت، في جماعة من أصحابنا، فكان قاعداً يصلي، ويثني رجله كلما أراد أن يسجد، فلم يزل كذلك حتى خرجت الروح من رجله، فثقلت عليه حركتها، فمد رجليه وقد تورمتا، فرآه بعض أصدقائه، فقال: ما هذا يا أبا القاسم؟ قال: هذه نِعَم، الله أكبر. فلما فرغ من صلاته، قال له أبو محمد الجريري: لو اضطجعت، قال: يا أبا محمد، هذا وقت يُؤخذ منه، الله أكبر. فلم يزل كذلك حتى مات.

[١٠] وعن الجنيد:

أرقت ليلة، فقمت إلي وردي، فلم أدر ما كنت أجد من الحلاوة، فأردت النوم، فلم أقدر، فأردت القعود، فلم أطق، ففتحت الباب، وخرجت، فإذا رجل ملتف في عباءة، مطروح على الطريق، فلما أحس بي رفع رأسه، وقال: يا أبا القاسم إليَّ الساعة.

فقلت: يا سيدي، من غير موعد!

فقال: بلى، سألت محرِّك القلوب أن يحرك لي قلبك.

فقلت: ما حاجتك؟

فقال: متى يصير داء النفس دواها؟

فقلت: إذا خالفت هواها، صار داؤها دواها.

فأقبل على نفسه، فقال: اسمعي، قد أجبتك بهذا الجواب سبع مرات، فأبيت إلا أن تسمعيه من الجنيد، فقد سمعتِ. وانصرف عني، ولم أعرفه، ولا وقفت عليه.

[١١] وقال:

كنت جالساً في مسجد الشونيزية⁽¹⁾ أنتظر جنازة أصلي عليها، وأهل بغداد على طبقاتهم جلوس، ينتظرون الجنازة، فرأيت فقيراً عليه أثر النسك، يسأل الناس. فقلت في نفسي: لو عمل هذا عملاً يصون به نفسه كان أجمل به. فلما انصرفت إلى منزلي، وكان لي شيء من الورد بالليل: من الصلاة، والقراءة، والبكاء، فثقلت عليّ جميع أورادي، فسهرت وأنا قاعد، فغلبتني عيناي، فرأيت ذلك الفقير، وقد جاءوا به ممدوداً على خِوان، وقالوا لي: كل لحمه، فقد اغتبته.

فكشف لي عن الحال، وقلت: ما اغتبته، إنما قلت شيئاً في نفسي.

فقيل لي: ما أنت ممن يُرضَىَ منك بمثل هذا، اذهب إليه، واستحله.

فأصبحت ولم أزل أتردد، حتى رأيته في موضع يلتقط من أوراق البقل، فسلمت عليه، فقال: تعود يا أبا القاسم؟

فقلت: لا.

فقال: غفر الله لنا ولك.

(ومن كلام الجنيد رحمه الله)

---

(١) الشونيزية: مقبرة ببغداد، بالجانب الغربي، فيها مسجد الجنيد.

[١٢] الطريق إلى الله عز وجل مسدود على خلقه إلى على المقتفين آثار رسول الله ﷺ كما قال الله عز وجل: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾(١)

[١٣] وقال: أضر ما على أهل الديانات الدعاوى.

[١٤] وقال: المروءة احتمال زلل الإخوان.

[١٥] وقيل له: كيف الطريق إلى الله؟

فقال: توبة تحل الإصرار، وخوف يزيل الغرة، ورجاء مزعج إلى طريق الخيرات، ومراقبة الله في خواطر القلوب.

[١٦] وقال:

ليس بشنيع ما يرد عليّ من العالم؛ لأني قد أصلت أصلاً، وهو أن الدار دار غم، وهم، وبلاء، وفتنة، وأن العالم كله شر، ومن حُكْمِه أن يتلقاني بكل ما أكره، وإن تلقاني بما أحب فهو فضل، وإلا فالأصل الأول.

[١٧] وقال:

الزهد خلو القلب عما خلت منه اليد، واستصغار الدنيا، ومحو آثارها من القلب.

[١٨] وقال: الخوف توقع العقوبة مع مجاري الأنفاس.

[١٩] وقال: الخشوع تذلل القلوب لعلام الغيوب.

[٢٠] وقال: التواضع خفض الجناح، ولين الجانب.

---

(١) سورة الأحزاب: آية ٢١.

[٢١] وقال:

اليقين استقرار العلم الذي لا يتقلب، ولا يحول، ولا يتغير في القلب.

[٢٢] وقال أيضاً:

اليقين ارتفاع الريب في مشهد الغيب، فعرّف اليقين بتعريفين، والكل حق صحيح.

[٢٣] وقال:

المسير من الدنيا إلى الآخرة سهل هين على المؤمن، وهجران الخلق في جنب الحق شديد، والمسير من النفس إلى الله صعب شديد، والصبر مع الله تعالى أشد.

[٢٤] وقال: الصبر تجرع المرارة من غير تعبيس.

[٢٥] وقال: من تحقق في المراقبة خاف على فوت حظه من الله تعالى.

[٢٦] وقيل له: ما للمريد في مجاراة الحكايات؟

فقال: الحكايات جند من جنود الله، يقوى بها قلوب المريدين. فسُئِل على ذلك شاهداً؟ فقال: قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾(١).

[٢٧] وقيل له: ما الفرق بين المريد والمراد؟

فقال: المريد تتولاه سياسة العلم، والمراد تتولاه رعاية الحق، لأن المريد يسير، والمراد يطير، وأين السائر من الطائر؟

(١) سورة هود: آية ٢٠.

[٢٨] وقال:

الإخلاص سر بين الله وعبده، لا يعلمه ملك فيكتبه، ولا شيطان فيفسده، ولا هوى فيميله.

[٢٩] وقال:

الصادق يتقلب في اليوم أربعين مرة، والمرائي يثبت على حالة واحدة أربعين سنة.

وسئل عن الحياء، فقال:

[٣٠] رؤية الآلاء، ورؤية التقصير، يتولد منهما حالة تسمى الحياء.

[٣١] وقال: الفتوة كف الأذى، وبذل الندى.

[٣٢] وقال:

لو أقبل صادق على الله ألف ألف سنة، ثم أعرض عنه لحظة كان ما فاته أكثر مما ناله.

[٣٣] قال أبو عبدالرحمن السلمي: سمعت جدى إسماعيل بن نجيد يقول: دخل أبو العباس بن عطاء على الجنيد وهو في النزع، فسلم فلم يرد عليه، ثم رد عليه بعد ساعة، وقال: اعذرني، فإني كنت في وردي. ثم حوَّل وجهه إلى القبلة وكبَّر ومات.

وقال أبو محمد الجريري:

[٣٤] كنت واقفاً على رأس الجنيد في وقت وفاته، وكان يوم جمعة، وهو يقرأ القرآن، فقلت: يا أبا القاسم، ارفق بنفسك. فقال: يا أبا محمد، ما رأيت أحد أحوج إليه مني في هذا الوقت، وهو ذا تطوى صحيفتي.

[٣٥] ويقال: كان نقش خاتم الجنيد «إذا كانت تأملهُ فلا تأمنه».

[٣٦] وكان يقول:

ما أخذنا التصوف من القال والقيل، ولكن عن الجوع، وترك الدنيا، وقطع المألوفات.

[٣٧] قال أبو سهل الصعلوكي: سمعت أبا محمد المرتعش، يقول: قال الجنيد:

كنت بين يدي السري السقطي ألعب، وأنا ابن سبع سنين، وبين يديه جماعة يتكلمون في الشكر، فقال: يا غلام، ما الشكر؟

فقلت: أن لا تعصي الله بنعمه.

فقال: أخشى أن يكون حظك من الله لسانك.

قال الجنيد: فلا أزال أبكي على هذه الكلمة التي قالها لي.

[٣٨] وعن الجنيد: الشكر أن لا ترى نفسك أهلاً للنعمة.

[٣٩] وعن الجنيد:

أعلى درجة الكبر أن ترى نفسك، وأدناها أن تخطر ببالك، يعني نفسك.

[٤٠] وقال:

إن الله يخلص إلى القلوب من برِّه حسب ما خلصت القلوب به إليه من ذكره، فانظر ماذا خالط قلبك.

[٤١] وقال أبو عمر عمر الزَّجَّاجي: سألت الجنيد عن المحبة. فقال:

تريد الإشارة؟ فقلت: لا. قال: تريد الدَّعوى؟ قلت: لا. قال: فإيش تريد؟ قلت: عين المحبة. فقال: أن تحب ما يحب الله في عباده، وتكره ما يكره في عباده.

[٤٢] وسُئل عن قرب الله تعالى، فقال: قريب لا بالتلاق، بعيد لا بافتراق.

[٤٣] وقال: مكابدة العزلة أيسر من مداراة الخلطة.

توفى الجنيد يوم السبت، في شوال سنة ثمان وتسعين ومائتين، وقيل سنة سبع وتسعين.

[٤٤] قال الخلدي:

رأيته في النوم، فقلت: ما فعل الله بك؟ فقال: طاحت تلك الإشارات، وغابت تلك العبارات، وفنيت تلك العلوم، ونفدت تلك الرسوم، وما نفعتنا إلا ركيعات كنا نركعها في السحر.

[٤٥] قال يوسف بن يحيى: سمعت الجنيد يدعو إذا سأله إنسان أن يدعو له: جمعَ الله همَّك، ولا شتت سرك، وقطعك عن كل قاطع يقطعك عنه، ووصلك إلى كل واصل يوصلك إليه، وجعل غناه في قلبك، وشغلك به عمّن سواه، ورزقك أدباً يصلح لمجالسته، وأخرج من قلبك مالا يرضى، وأسكن في قلبك رضاه، ودلّك عليه من أقرب الطرق.

[٤٦] قال محمد بن أحمد بن محمد: سمعت الجنيد يقول:

لا تكون من الصادقين أو تصدقَ مكاناً لا ينجيك إلا الكذبُ فيه.

[٤٧] قال محمد بن القاسم الفارسي: كان الجنيد قد بات ليلة العيد في موضع غير الموضع الذي كان يعتاده في البرية، فلما أن صار وقت السحر إذا بشاب ملتف في عباءة، وهو يبكي ويقول:

بِحُرمةِ غُرْبتي كم ذا الصُّدودُ ... ألا تعطفْ عليّ ألا تجودُ
سرورُ العيد قد عمّ النَّواحِي ... وضُرِّي في ازديادٍ لا يبيدُ
فإن كنتُ اقترفتُ خِلالَ سوءٍ ... فعُذري في الهوى أن لا أعودُ

[٤٨] قال الجنيد بن محمد غير مَرّة: طريقنا مضبوط بالكتاب والسنة، من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث ولم يتفقه لا يُقتدى به.

[٤٩] وقال أبو الحسن علي بن هارون بن محمد وأبوبكر محمد بن أحمد المُفيد: سمعنا أبا القاسم الجنيد بن محمد رحمه الله يقول:

تفقهتُ على مذهب أصحاب الحديث، كأبي عُبيد، وأبي ثور، وصحبتُ الحارث المُحاسبي، وسَرِيّ بن المُغَلِّس رحمةُ الله عليهم، وذلك كان سبب فلاحى، إذ عِلْمنا هذا مضبوط بالكتاب والسنة، ومن لم يحفظ القرآن ويكتب الحديث ويتفقه قبل سلوكه فإنه لا يجوز الاقتداء به.

[٥٠] قال الجنيد: بُنِي أمرنا هذا على أربع:

لا نتكلم إلا عن وجود(١)، ولا نأكل إلا عن فاقة، ولا ننام إلا عن غَلَبَة، ولا نسكت إلا عن خشية(٢).

---

(١) قلت: أي وجود حاجة للكلام.

(٢) "من طبقات الشافعية الكبرى": ٢/٢٦٠- ٢٧٥.

المحاسبي

الحارث بن أسد، عَلَم العارفين في زمانه، وأستاذ السائرين، شيخ الجنيد.

[٥١] قال الجنيد: كان الحارث كثير الضُّرّ، فاجتاز بي يوماً وأنا جالس على بابنا، فرأيت على وجهه زيادة الضُّرّ من الجوع، فقلت له: يا عم، لو دخلتَ إلينا نلتَ من شيء من عندنا! وعَمَدت إلى بيت عمي - وكان أوسع من بيتنا، لا يخلو من أطعمة فاخرة لا يكون مثلها في بيتنا - سريعاً، فجئت بأنواع كثيرة من الطعام، فوضعته بين يديه، فمدّ يده فأخذ لقمة فرفعها إلى فيه، فرأيته يَعلِكُها ولا يَزدَرِدها، ثم وثب وخرج وما كلّمني، فلما كان الغد لقيته فقلت له: يا عمّ سررتني ثم نَغَّصت عليَّ! قال: يا بُني، أما الفاقة فكانت شديدة، وقد اجتهدت في أن أنال من الطعام الذي قدمتَه إليّ، ولكنّ بيني وبين الله علامةً، إذا لم يكن الطعام مَرضِيّاً ارتفع إلى أنفي منه زفرة فلم تقبله نفسي، فقد رميت بتلك اللُّقمة في دهليزكم.

[٥٢] وفي رواية أخرى:

كان إذا مدّ يده إلى طعام فيه شبهة تحرّك له عِرق في أصبعه فيمتنع منه.

وقال الجُنَيد:

[٥٣] مات أبو الحارث يوم مات وإن الحارث لمحتاج إلى دانِق فضة، وخلّف أبوه مالاً كثيراً، وما أخذ منه حبّة واحدة، وقال: أهل مِلّتين لا يتوارثان، وكان أبوه رافضياً.

[٥٤] وقال أبو علي بن خَيران الفقيه: رأيت الحارث بباب الطاق في وسط الطريق، متعلّقاً بأبيه، والناس قد اجتمعوا عليه يقول: أي طلقها؛ فإنك على دين وهي على دين غيره.

[٥٥] سمعت جعفر ابن أخي أبي ثور يقول: حضرت وفاة الحارث فقال: إن رأيتُ ما أحب تبسمت إليكم، وإن رأيت غير ذلك تنسَّمتم في وجهي. قال: فتبسّم ثم مات.

ذكر البحث عما كان بينه وبين الإمام أحمد:

[٥٦] أول ما نقدمه، أنه ينبغي لك أيها المسترشد أن تسلك سبيل الأدب مع الأئمة الماضين، وأن لا تنظر إلى كلام بعضهم في بعض إلا إذا أتى ببرهان واضح، ثم إن قَدَرت على التأويل وتحسين الظن فدونك، وإلا فاضرب صَفْحاً عمّا جرى بينهم؛ فإنك لم تُخلق لهذا، فاشتغل بما يعنيك ودع مالا يَعنيك. ولا يزال طالب العلم عندي نبيلاً حتى يخوض فيما جرى بين السلف الماضين، ويقضي لبعضهم على بعض. فإيّاك ثم إيّاك أن تُصغيَ إلى ما اتفق بين أبي حنيفة وسُفيان الثَّوْرِيّ، أو بين مالك وابن أبي ذئب، أو بين أحمد بن صالح والنَّسائيّ، أو بين أحمد بن حنبل والحارث المحاسبي، وهلم جرّا، إلى زمان الشيخ عز الدين بن عبدالسلام، والشيخ تقي الدين بن الصلاح، فإنك إن اشتغلت بذلك خشيتُ عليك الهلاك. فالقوم أئمة أعلام، ولأقوالهم محامل، وربما لم يفهم بعضها، فليس لنا إلا الترضي عنهم والسكوت عما جرى بينهم، كما يُفعل فيما جرى بين الصحابة رضي الله عنهم.

[٥٧] إذا عرفت ذلك فاعلم أن الإمام أحمد - رضي الله عنه - كان شديد النكير على من يتكلم في علم الكلام، خوفاً أن يجرّ ذلك إلى ما لا ينبغي، ولا شك أن السكوت عنه مالم تدعُ إليه الحاجة أولى، والكلام فيه عند فقد الحاجة بدعة، وكان الحارث قد تكلّم في شيء من مسائل الكلام.

قال أبو القاسم النصر اباذي: بلغني أن أحمد بن حنبل هجره بهذا السبب.

قلت: والظن بالحارث أنه إنما تكلم حين دعت الحاجة، ولكلٍ مقصد، والله يرحمهما.

[٥٨] وذكر الحاكم أبو عبدالله أن أبا بكر أحمد بن إسحاق الصبغي أخبره، قال: سمعت إسماعيل بن إسحاق السراج يقول: قال لي أحمد بن حنبل، بلغني أن الحارث هذا يكثر الكون عندك، فلو أحضرته منزلك وأجلستني من حيث لا يراني، فأسمع كلامه. فقصدت الحارث وسألته أن يحضرنا تلك الليلة، وأن يحضر أصحابه، فقال: فيهم كثرة، فلا تزدهم على الكُسْب[١] والتمر. فأتيت أبا عبدالله فأعلمته، فحضر إلى غرفة، واجتهد في ورده، وحضر الحارث وأصحابه فأكلوا ثم صلوا العَتَمة[٢]، ولم يصلوا بعدها، وقعدوا بين يدي الحارث لا ينطقون إلى قريب نصف الليل، ثم ابتدأ رجل منهم فسأل عن مسألة، فأخذ الحارث في الكلام، وأصحابه يستمعون كأن على رؤوسهم الطير، فمنهم من يبكي ومنهم من يَحِنّ، ومنهم من يزعق، ووفيّ

(١) الكُسْب: عصارة الدهن.

(٢) أي العشاء.

كلامه، فصعدت الغرفة لأتعرف حال أبي عبدالله، فوجدته قد بكى حتى غَشِيَ عليه، فانصرفت إليهم، ولم تزل تلك حالهم حتى أصبحوا وذهبوا. فصعدت إلى أبي عبدالله، فقال: ما أعلم أني رأيت مثل هؤلاء القوم، ولا سمعت في علم الحقائق مثل كلام هذا الرجل! ومع هذا فلا أرى لك صحبتهم. ثم قام وخرج. وفي رواية أخرى أن أحمد قال: لا أنكر من هذا شيئاً.

قلت:

تأمّل هذه الحكاية بعين البصيرة، واعلم أن أحمد بن حنبل إنما لم ير لهذا الرجل صحبتهم؛ لقُصوره عن مَقامهم، فإنهم في مَقامٍ ضيّق لا يسلكه كل أحد، فيُخاف على سالكه، وإلا فأحمد قد بكى وشكر الحارث هذا الشكر، ولكلٍّ رأيٌ واجتهاد. حشرنا الله معهم أجمعين في زمرة سيد المرسلين صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلّم.

[٥٩] قال أبو العباس أحمد بن محمد بن مَسروق: سمعت حارثاً المحاسبي يقول:

ثلاثة أشياء عزيزة أو معدومة: حسن الوجه مع الصيانة، وحسن الخلق مع الديانة، وحسن الإخاء مع الأمانة.

[٦٠] قال أحمد بن الحسن الأنصاري:

سألت الحارث المحاسبي عن العقل فقال:

هو نور الغريزة مع التجارب، يزيد ويَقوى بالعلم والحِلْم.

قلت: هذا الذي قال الحارث في العقل قريب مما نُقل عنه، أنه غريزة يتأتّى بها دَرْك العلوم.

ومن كلمات الحارث والفوائد عنه:

[٦١] أصل الطاعة الورع، وأصل الورع التقوى، وأصل التقوى محاسبة النفس، وأصل محاسبة النفس الخوف والرجاء، وأصل الخوف والرجاء معرفة الوعد والوعيد، وأصل معرفة الوعد والوعيد داء عظيم الجزاء[1]، وأصل ذلك الفكرةُ والعبرةُ.

[٦٢] أصدق بيت قالته العرب قول حسان بن ثابت الأنصاريّ رضي الله عنه:

وما حَملتْ من ناقةٍ فوق كُورِها أعزَّ وأوفى ذمَّةً من محمدِ

قلت: وهذا حق. ونظير هذا البيت في الصدق قول حسان أيضاً:

وما فقد الماضون مثلَ محمدٍ ولا مثلهُ حتى القيامةِ يفقد

وقوله ﷺ: «أَصْدَقُ كَلِمَةٍ قالها لبيدُ:

«ألا كلُّ شيءٍ ما خلا الله باطِل».

ذاك أصدق كلمات لبيد نفسه، فلا ينافي هذا.

[٦٣] وقال الحارث:

العلم يورث المخافة.

[٦٤] والزهد يورث الراحة.

[٦٥] والمعرفة تورث الإنابة.

---

(١) قلت: كذا وردت في الأصل، ولعلها أصابها تحريف، وإن كان المعنى يدور على أن أصل معرفة الوعد والوعيد تيقن عظم الجزاء، وفي حلية الأولياء ١٠/٦٧، «ومعرفة أصل الوعد والوعيد عظيم الجزاء». والله أعلم.

[٦٦] وخيار هذه الأمة الذين لا تشغلهم آخرتُهم عن دنياهم، ولا دنياهم عن آخرتهم.

[٦٧] ومن حسُنت معاملته في ظاهره مع جُهد باطنه ورَّثه الله الهداية إليه؛ لقوله عز وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾(١).

وقال:

[٦٨] حسْن الخلُق احتمالُ الأذى، وقلّة الغضب، وبسط الرحمة، وطِيب الكلام.

[٦٩] ولكلّ شيء جوهر، وجوهر الإنسان العقل، وجوهر العقل الصبر.

[٧٠] العمل بحركات القلوب في مطالعات الغيوب أشرف من العمل بحركات الجوارح.

وقال: إذا أنت لم تسمع نداء الله فكيف تجيب دعاه.

[٧١] ومن استغنى بشيء دون الله جَهِل قَدْرَ الله.

[٧٢] الظالم نادم وإن مدحه الناس، والمظلوم سالم وإن ذمَّه الناس.

[٧٣] القانع غني وإن جاع، والحريص فقير وإن ملَك.

[٧٤] ومن لم يشكرِ الله تعالى على النِّعمة فقد استدعى زوالها.

[٧٥]قال إمام الحرمين في «البرهان» عند الكلام في تعريف العقل:

وما حوّم عليه أحدٌ من علمائنا غير الحارث المُحاسبي؛ فإنه قال: العقل

(١) سورة العنكبوت: ٦٩.

غريزة يتأتى بها دَرْك العلوم، وليست منها[١].

الشيخ أبو تراب النخشبيّ

عسكر بن الحسين، نسبة إلى نخشب: بلدة من بلاد ما وراء النهر، عُرّبت فقيل لها: نَسَف.

كان شيخ عصره، جمع بين العلم والدين، زاهداً ورعاً، متقشفاً متقللاً.

نظر في كتب الشافعي وتفقه على مذهبه.

[٧٦] روى الخطيب بسنده إلى أبي تُراب قال:

وقفت خمساً وخمسين وقفة، فلما كان من قابل رأيت الناس بعرفات، ما رأيت قطُّ أكثر منهم، ولا أكثر خشوعاً وتضرُّعاً، فأعجبني ذلك فقلت: اللهم مَن لم تتقبَّل حَجَّته مِن هذا الخلق فاجعل ثواب حجَّتي له. وأفَضْنا من عرفات، وبتنا بجَمْع[٢]، فرأيت في المنام هاتفاً يهتف بي: تتسخى علينا وأنا أسخى الأسخياء! وعزتي وجلالي ما وقف هذا الموقف أحدٌ قطُّ إلا غفرتُ له. فانتبهت فرحاً بهذه الرؤيا، فرأيت يحيى بن مُعاذ الرازي وقصصت عليه الرؤيا، فقال: إن صدقت رؤياك فإنك تعيش أربعين يوماً.

قال الراوي: فلما كان يوم أحد وأربعين، جاءوا إلى يحيى بن معاذ

---

(١) «طبقات الشافعية الكبرى»: ٢/٢٧٥-٢٨٤.

(٢) أي مزدلفة.

الرازي فقالوا: إن أبا تراب مات، فغسَّله وكفَّنه.

وعن يوسف بن الحسين قال:

[٧٧] صحبت أبا تُراب النخشبي خمس سنين، وحججت معه على غير طريق الجادة، ورأيت منه في السفر عجائب يقصر لساني عن شرح جميعها، غير أنا كنا مارين، فنظر إلي يوماً وأنا جائع وقد تورمت رجلاي، وأنا أمشي بجهد، فقال لي: مالك، لعلك جعت! قلت: نعم، قال: ولعلك أسأت الظن بربك! قلت: نعم، قال: ارجع إلى ربك، قلت: وأين هو؟ قال: حيث خلَّفته، فقلت: هو معي، فقال: إن كنت صادقاً فما هذا الهمُّ الذي أرى عليك؟ قال: فرأيت الورم قد سكن، والجوع قد ذهب، ونشطت حتى كدت أسبقه. قال أبو تراب: اللهم إن عبدك قد أقر لك بالآفة فأطعمه، ونحن بين جبال ليس فيها مخلوق، فانتهينا إلى رابية، فإذا كوزُ ماء ورغيفٌ موضوع، فقال لي أبو تراب: دونك دونك. فجلست وأكلت وقلت له: ليش ما تأكل أنت؟ قال: يأكل من اشتهاه.

[٧٨] قال الحسين بن خيران الفقيه:

مرّ أبو تراب النخشبي بمُزَيِّن فقال له: تحلق رأسي لله عز وجل؟ فقال له: اجلس. فجلس، فبينما هو يحلق رأسه مر به أمير من أهل بلده، فسأل حاشيته، فقال لهم: أليس هذا أبا تراب؟ فقالوا: نعم. فقال: إيش معكم من الدنانير؟ فقال له رجل من خاصته: معي خريطة فيها ألف دينار. فقال: إذا قام فأعطه إياه واعتذر إليه، وقل له: لم يكن معنا غير هذه. فجاء الغلام إليه وقال له: إن الأمير يقرأ عليك السلام؛ وقال لك: ما حضر معنا غيرُ هذه،

فقال له: ادفعها إلى المُزَيِّن، فقال المُزَيِّن: إيش أعمل بها؟ فقال: خذها، فقال: والله، ولو أنها ألفا دينار ما أخذتها. فقال له أبو تراب: مُرّ إليه فقل له: إن المُزَيِّن ما أخذها، فخذها أنت فاصرفها في مهماتك.

قلت: سُقنا هذه الحكاية لما فيها من جليل الفوائد، فمنها حال هذا المُزَيِّن وعدم أخذه العوض على عمل عمله لله تعالى، فأرى الله أبا تراب خَلْقا من خلقه، مُزَيِّنا بهذه الصفة.

وكانت وفاة أبي تراب سنة خمس وأربعين ومائتين في البادية.

[٧٩] حكاية يبحث فيها عن الكرامات:

قال أبو علي الروذباري: سمعت أبا العباس الرَّقِّيّ يقول:

كنا مع أبي تُراب النَخْشَبيّ في طريق مكة المكرمة، فعدل عن الطريق إلى ناحية، فقال له بعض أصحابه: أنا عطشان. فضرب برجله فإذا عينٌ من ماء زُلال، فقال الفتى: أحب أن أشربه في قدح. فضرب بيده الأرض فناوله قدحاً من زجاج أبيض كأحسن ما رأيت، فشرب وسقاني، وما زال القدح معنا إلى مكة المكرمة. فقال لي أبو تراب يوماً: ما يقول أصحابك في هذه الأمور التي يكرم الله بها عباده؟ فقلت: ما رأيت أحداً إلا وهو مؤمن بها. فقال: من لا يؤمن بها فقد كفر، إنما سألتك من طريق الأحوال! فقلت: ما أعرف لهم قولاً فيه. فقال: بلى! قد زعم أصحابك أنها خدع من الحق، وليس الأمر كذلك، إنما الخدع في حال السكون إليها، فأما من يقترح ذلك فتلك مرتبة الرَّبَّانيِّين.

[٨٠] قلت: قد اشتمل كلام أبي تراب هذا على فصلين مهمين.

أحدهما: أن الكرامات والمكاشفات ليست خدعاً إلا لمن يقف عندها ويجعلها شوقه ومقصوده، ولا شك في هذا؛ وقد بالغ قوم في تعظيمها بحيث سلبوا بها المواهب، وبالغ آخرون في امتهانها، بحيث لم يُعدُّوها شيئاً؛ والحق ما ذكره أبو تُراب من أن السكون إليها نقص. فمن الواضح الجليّ الذي لا ينكره عارف أن العارف لا يقف عندها، وإنما مطلوبه وراءها، وهي تقع في طريقه، وليس للواقع في الطريق من الطريق صفة، ومن وقف عندها سقط في مهاوي الهلكات، ومن كانت هي مطلوبه فهو مغرور، ويبعد وصوله إليها، وإنما يصل إليها من لا يراها. فافهم ما يلقى إليك.

فإن قلتَ:

فلأيّ معنى يُظهرها مظهروها، وهي على ما تزعم أشياء لا يُلقون إليها بالاً؟

قلتُ:

ظهورها يقع على أنحاء ربما لم يكن باختيار صاحبها، وهو كثير، بل صار بعض الأئمة كما نقل إمام الحرمين في «الشامل» إلى أن الكرامات لا تكون أبداً إلا على هذا الوجه. فعلى هذا الوجه لا سؤال؛ ولكن هذا مذهب ضعيف غير مَرْضي عند المحصلين، ولا سؤال عليه، وربما كان هو المظهر بها؛ وإنما يكون ذلك لفائدة دينية، من تربية أو بشارة، أو نذارة، أو غير ذلك حيث يؤذن فيه، ولا يجوز إظهارها حيث لا فائدة، فذلك عند القوم غير جائز له.

والفصل الثاني: أن الكرامات حق، وقول أبي تراب «من لا يؤمن بها فقد كفر» بالغ في الحط من منكريها، وقد تُؤوِّل لفظة الكفر في كلامه، وتحمل

على أنه لم يعن الكفر المخرج من الملّة، ولكنه كُفر دون كفر.

وإني لأعجب أشدَّ العجب من منكرها، وأخشى عليه مقت الله، ويزداد تعجبي عند نسبة إنكارها إلى الأستاذ أبي إسحاق الإسفراييني، وهو من أساطين أهل السنة والجماعة! على أن نسبة إنكارها إليه على الإطلاق كذِبٌ عليه؛ والذي ذكره الرجل في مصنفاته أن الكرامات لا تبلغ مبلغ خَرْق العادة.

قال: وكلّ ما جاز تقديره معجزةً لنبيٍّ لا يجوز ظهور مثله كرامةً لوليّ.

قال: وإنما بالغ الكرامات إجابة دعوة، أو موافاة ماء في بادية في غير موقع المياه، أو مضاهي ذلك، مما ينحط عن خرق العادة، ثم مع هذا قال إمام الحرمين وغيره من أئمتنا: هذا المذهب متروك.

قلت: وليس بالغاً في البشاعة مبلغ مذهب المنكرين للكرامات مطلقاً، بل هو مذهب مفصِّل بين كرامة وكرامة، رأى أن ذلك التفصيل هو المميِّز لها من المعجزات[1].

ابن سريج

أحمد بن عمر بن سُرَيْج القاضي، أبو العباس، شيخ المذهب وحامل لوائه.

قال أبو إسحاق: وكان يُفضل على جميع أصحاب الشافعي رحمة الله تعالى عليهم حتى على المُزَنِيّ.

---

(١) «طبقات الشافعية الكبرى»: ٢/٣٠٦-٣٤٤.

ومن كلام الشيخ أبي حامد الإسفراييني:

نحن نجري مع أبي العباس في ظواهر الفقه دون دقائقه.

وقال أبو عاصم العبادي:

ابن سُريج شيخ الأصحاب، ومالك المعاني، وصاحب الأصول والفروع والحساب.

وقال أبو حفص المطوعي:

ابن سريج سيد طبقته بإطباق الفقهاء، وأجمعهم للمحاسن باجتماع العلماء، ثم هو الصدر الكبير، والشافعي الصغير، والإمام المطلق، والسبّاق الذي لا يلحق، وأول من فتح باب النظر، وعلم الناس طريق الجدل.

وقال الإمام الضياء الخطيب، والد الإمام فخر الدين في كتابه «غاية المرام»:

إن أبا العباس كان أبرع أصحاب الشافعي في علم الكلام، كما هو أبرعهم في الفقه.

[٨١] وقال أبو علي بن خيران: سمعت ابن سريج، يقول:

رأيت كأنما مطرنا كبريتاً أحمر، فملأت أكمامي وحجري، فعُبِّر لي أن أرزق علماً عزيزاً كعزة الكبريت الأحمر.

[٨٢] وروى الخطيب: أن أبا العباس قال في علته التي مات فيها:

أريت البارحة في المنام، كأن قائلاً يقول لي: هذا ربك تعالى يخاطبك. قال: فسمعت الخطاب: بـ﴿مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾﴾[1] فقلت: بالإيمان

---

(١) سورة القصص: آية ٦٥

والتصديق. قال: فقيل: بـ ﴿مَاذَآ أَجَبۡتُمُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٦٥﴾ قال: فوقع في قلبي أن يُراد مني زيادة الجواب، فقلت: بالإيمان والتصديق، غير أنا أصبنا من هذه الذنوب. فقال: أما إني سأغفر لك.

[٨٣] وفي رواية رواها التنوخي، عن بعض أصحاب ابن سريج، قال لنا ابن سريج يوماً:

أحسب أن المنية قد قربت. فقلنا، وكيف؟ قال: رأيت البارحة كأن القيامة قامت، والناس قد حشروا، وكأن منادياً ينادي: بم أجبتم المرسلين؟ فقلت: بالإيمان والتصديق، فقال: ما سُئلتم عن الأقوال، بل سئلتم عن الأعمال! فقلت: أما الكبائر فقد اجتنبناها، وأما الصغائر فعولنا فيها على عفو الله ورحمته. فقلنا له: ما في هذا ما يقتضي سرعة الموت. فقال: أما سمعتم قوله: ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ ۝١﴾[١]. قال: فمات بعد ثمانية عشر يوماً.

وفاة ابن سريج سنة ٣٠٦هـ رحمه الله تعالى[٢].

أبو علي الرُوذْباري

أحمد بن محمد بن القاسم، أحد أئمة الصوفية.

بغدادي الأصل، يتصل نسبه بكسرى أنو شروان.

(١) سورة الأنبياء: آية ١.

(٢) «طبقات الشافعية الكبرى»: ٣/٢١-٣٩.

أقام بمصر وصار شيخها.

توفي سنة ٣٢٢هـ.

[٨٤] قال أبو علي:

التفكر على أربعة أوجه: فكرة في آيات الله، وعلامتها تولد المحبة، وفكرة في وعد الله بثوابه، وعلامتها تولد الرغبة، وفكرة في وعيده تعالى بالعذاب، وعلامتها تولد الرهبة، وفكرة في جفاء النفس مع إحسان الله، وعلامتها تولد الحياء من الله.

[٨٥] وقال:

ما ادعى أحد قط إلا لخلوه عن الحقائق، ولو تحقق في شيء لنطقت عنه الحقيقة، وأغنته عن الدعوى.

[ومن كلامه وفوائده]

[٨٦] قال: أنفع اليقين ما عظم الحق في عينك، وصغّر ما دونه عندك، وأثبت الرجاء والخوف في قلبك.

[٨٧] وسئل عمن يسمع الملاهي وزعمها حلالاً له، وقال: لأني وصلت إلى درجة لا يؤثر في اختلاف الأحوال. فقال: نعم قد وصل لَعَمْري ولكن إلى سقر.

[٨٨] وعن فاطمة أخت أبي علي الروذباري قالت: لما قرب أجل أخي أبي علي وكان رأسه في حجري – فتح عينيه وقال: هذه أبواب السماء فُتْحت، وهذه الجنان قد زُينت، وهذا قائل يقول لي: يا أبا علي: قد بلّغناك

الرتبة القصوى وإن لم تردها.

[٨٩] وقال: التوبة: الاعتراف والندم والإقلاع.

[٩٠] وقال: كان عندنا ببغداد عشرة فتيان، معهم عشرة أحداث، مع كل واحد واحد، وكانوا مجتمعين في موضع، فوجهوا واحداً من الأحداث؛ ليأخذ لهم حاجة، فأبطأ عليهم، وغضبوا من تأخيره، ثم أقبل وهو يضحك، وبيده بطيخة يقلبها ويشمها، فقالوا له: احتبست عنا، ثم جئتنا تضحك!

فقال: جئتكم بفائدة، رأيت بشر بن الحارث وضع يده على هذه البطيخة، فلم أزل واقفاً حتى اشتريتها بعشرين درهماً، أتبرك بموضع يده عليها.

فأخذ كل واحد منهم البطيخة، وجعل يقبلها ويضعها على عينيه، فقال واحد منهم: بشر كان معنا صاحب عصبية، إيش بلغ به هذا كله حتى تفعلون به هذا؟

قالوا: تقوى الله، والعمل الصالح.

فقال: أنا أشهد الله وأشهدكم أني تائب إلى الله من كل شيء لا يرضاه مني، وأنا على حالة بشر وطريقته.

فقالوا كلهم مثل ذلك، فتابوا بأجمعهم، وخرجوا إلى طرسوس، وغزوا، واستشهدوا كلهم في موضع واحد(١).

---

(١) «طبقات الشافعية الكبرى»: ٣/٤٨-٥٤.

ابن مجاهد

أبو بكر ،أحمد بن موسى بن العباس المقرئ، شيخ القراء في وقته.

ولد سنة ٢٤٥هـ.

روى عنه الحديث أبو حفص بن شاهين، وأبو بكر بن شاذان، والدارقطني، وخلق.

وكان ثقة، مأموناً، قرأ عليه القرآن خلائق.

[٩١] قال عبدالواحد بن أبي هاشم:
سأل رجلٌ ابن مجاهد: لم لا تختار لنفسك حرفاً يحمل عنك؟ قال: نحن إلى أن نُعمل أنفسنا في حفظ ما مضى عليه أئمتنا أحوج منا إلى اختيار حرف يقرأ به من بعدنا.

[٩٢] وقال ثعلب: ما بقى في عصرنا أعلم بكتاب الله من ابن مجاهد.

وعن عبيد الله الزهري، قال:
[٩٣] انتبه أبي، فقال: رأيت يا بني، كأن من يقول: مات مقومٌ وحي الله. فلما أصبحنا إذا بابن مجاهد قد مات.

[٩٤] وقال أبو عمرو الداني:
فاق ابن مجاهد في عصره سائر نُظّاره من أهل صناعته، مع اتساع علمه، وبراعة فهمه، وصدق لهجته، وظهور نسكه.

توفى سنة أربع وعشرين وثلاثمائة.

[ومن كلامه وفوائده]

[٩٥] قال:

من قرأ لأبي عمرو، وتمذهب للشافعي، واتجر في البز[١]، وروى شعر ابن المعتز، فقد كمل ظرفه.

[٩٦] قيل:

إن ابن مجاهد قال للشيخ أبي بكر الشبلي رضي الله عنه: أين في العلم إفساد ما يُنتفع به؟

قال له: فأين قوله: ﴿فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾[٢] ولكن أين معك يا مقري في القرآن: المحب لا يعذب حبيبه؟

فسكت، قال الشبلي: قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾[٣][٤].

أبو زيد المروزي

محمد بن أحمد بن عبدالله الفاشاني، من قرية فاشان، إحدى قرى مرو.

ولد سنة ٣٠١هـ.

---

(١) الثياب الفاخرة.

(٢) سورة ص: ٣٣.

(٣) سورة المائدة ١٨، وتكملتها بيان لموضع الشاهد: ((قل فلم يعذبكم بذنوبكم)).

(٤) «طبقات الشافعية الكبرى»: ٣/٥٧-٥٨.

كان ممن أجمع الناس على زهده، وورعه، وكثرة علمه، وجلالته في العلم والدين.

[٩٧] قال الحاكم:

كان أحد أئمة المسلمين، ومن أحفظ الناس لمذهب الشافعي، وأحسنهم نظراً، وأزهدهم في الدنيا، سمعت أبا بكر البزّار، يقول: عادلتُ[1] الفقيه أبا زيد من نيسابور إلى مكة المكرمة فما أعلم أن الملائكة كتبت عليه خطيئة.

وقال الخطيب:

كان أحد أئمة المسلمين، حافظاً لمذهب الشافعي، حسن النظر، مشهوراً بالزهد والورع.

وقال الشيخ أبو إسحاق:

كان حافظاً للمذهب، حسن النظر، مشهوراً بالزهد، وحدث «بالجامع الصحيح» للبخاري.

قال الحاكم: وهي من أجل الروايات؛ لجلالة أبي زيد.

وقال الخطيب: أبو زيد أجل من روى ذلك الكتاب.

[٩٨] وقد جاور أبو زيد بمكة المكرمة على علو السن مدة، حتى كاد يعرفه ركن الحطيم، ويألفه مقام إبراهيم، ويشكر سعيه الصفا، ويذكر محامده إخوان الصفا، ينشر العلم ويشيعه، ويطوي الليل ولا يضيعه، حتى تضوَّعَ منه مسكاً بطن نعمان، وترفع بحلوله قدراً ما هنالك من الأركان.

---

(١) عادله في المحمل: ركب معه.

[٩٩] قال الحاكم: سمعت أبا الحسن محمد بن أحمد الفقيه، يقول: سمعت أبا زيد المروزي، يقول:

لما عزمت على الرجوع إلى خراسان من مكة المكرمة، تقسم قلبي بذلك، وكنت أقول: متى يمكنني هذا، والمسافة بعيدة، والمشقة لا أحتملها، وقد طعنت في السن! فرأيت في المنام كأن رسول الله ﷺ قاعدٌ في صحن المسجد الحرام، وعن يمينه شاب، فقلت: يا رسول الله: قد عزمت على الرجوع إلى خراسان، والمسافة بعيدة، فالتفت رسول الله ﷺ إلى الشاب، وقال: «يا روح الله اصحبه إلى وطنه».

قال أبو زيد: فأريت أنه جبريل عليه السلام، فانصرفت إلى مرو، ولم أحس بشيء من مشقة السفر. هذا أو نحوه؛ فإني لم أراجع المكتوب عندي من لفظ أبي الحسن. انتهى كلام الحاكم[١].

ابن خفيف

أبو عبدالله محمد بن خفيف الشيرازي، شيخ المشايخ، وذو القدم الراسخ في العلم والدين، يستمطر الغيث بدعائه، ويؤوب المصرّ بكلامه، من أعلم المشايخ بعلوم الظاهر، وممن اتفقوا على عظيم تمسكه بالكتاب والسنة.

[١٠٠] وكان له أسفار وبدايات، وأحوال عاليات ورياضات، لقي من النساك شيوخاً، ومن السُلاّك طوائف رسخ قدمهم في الطريق رسوخاً، وصحب من أرباب الأحوال أحباراً وأخياراً، وشرب من منهل الطريق

(١) «طبقات الشافعية الكبرى»: ٣/٧١-٧٧.

كاساتٍ كباراً، وسافر مشرقاً ومغرباً، وصابر النفس حتى انقادت له، فأصبح مبنيَّ الثناء عليها مُعرَباً، صبرٌ على الطاعة لا يعصيه فيه قلبه، واستمرار على المراقبة شهيده عليه ربه، وجنبٌ لا يدري القرار، ونفس لا تعرف المأوى إلا البيداء، ولا المسكن إلا القفار.

[١٠١] كان ابن خفيف من أولاد الأمراء فتزهّد.

رحل ابن خفيف إلى الشيخ أبي الحسن الأشعري، وأخذ عنه، وهو من أعيان تلامذته.

قال الحافظ أبو نعيم: كان شيخ الوقت؛ حالاً وعلماً.

وروى عنه أنه قال:

[١٠٢] ما سمعت شيئاً من سنن النبي ﷺ إلا استعملته، وأنه ضعف في آخر عمره عن القيام في النوافل، فجعل بدل كل ركعة من أوراده ركعتين قاعداً؛ للخبر: «صلاة القاعد على النصف من صلاة القائم».

[١٠٣] وقال مرة:

ما وجبت علي زكاة الفطر أربعين سنة، مع مالي من القبول العظيم بين الخاص والعام.

[١٠٤] وكان إذا أراد أن يخرج إلى صلاة الجمعة، يفرّق كل ما عنده من ذهب وفضة وغير ذلك؛ ويُخرج في كل سنة جميع ما عنده.

وقال بعض أصحابه:

[١٠٥] أمرني ابن خفيف أن أقدم كل ليلة إليه عشر حبات زبيب لإفطاره، قال: فأشفقت عليه ليلةً، فجعلتها خمس عشرة حبة، فنظر إليّ،

وقال: من أمرك بهذا؟ وأكل منها عشر حبات، وترك الباقي.

[١٠٦] وعن ابن خفيف أنه كان به وجع الخاصرة، فكان إذا أخذه أقعده عن الحركة، فكان إذا أقيمت الصلاة يُحمل على الظهر إلى المسجد، فقيل له: لو خففت عن نفسك؛ قال: إذا سمعتم حيَّ على الصلاة ولم تروني في الصف فاطلبوني في المقابر.

[١٠٧] وعن ابن خفيف:

تهت في البادية فما رجعت حتى سقط لي ثمانية أسنان، وانتثر شعري، ثم وقعت إلى فَيْد[1]، وأقمت بها حتى تماثلت، وصححت، ثم زرت القدس، فنمت إلى جانب دكان صباغ، وبات معي في المسجد رجل فكان يدخل ويخرج إلى الصباح.

فلما أصبحنا صاح الناس، وقال: نُقِبَ دكان الصباغ، وسرقت، فجروني وضربوني، وقالوا: تكلّم، فاعتقدت التسليم، فكانوا يغتاظون من سكوتي، فحملوني إلى دكان الصباغ، وكان أثر رجل اللص في الرماد، فقالوا: ضع رجلك فيه، فوضعت، فكان على قدر رجلي، فزادهم غيظاً.

وجاء الأمير، ونصب القدر، وفيها الزيت يغلي، وأحضرت السكين ومن يقطع اليد، فرجعت إلى نفسي فإذا هي ساكنة، فقلت: إن أرادوا قطع يدي سألتهم أن يُعفوا يميني، لأكتب بها.

فبقى الأمير يهددني، ويصول، فنظرت إليه فعرفته، وكان مملوكاً لوالدي، فكلمني بالعربية، وكلمته بالفارسية، فنظر إليَّ، وقال: أبو

---

(١) بُليدة في نصف طريق مكة من الكوفة، وهي بقرب أجأ: أحد جبلي طيء.

الحسين! وكنت أكنى بها في صباي. فضحكت فعرفني، فأخذ يلطم رأسه ووجهه، واشتغل الناس به، وإذا بضجة عظيمة، وأن اللص قد مُسك.

ثم أخذ الأمير يبالغ في الاعتذار، وجهدني أن أقبل شيئاً، فأبيت، وهربت.

[١٠٨] توفى ابن خفيف ليلة ثالث رمضان، سنة إحدى وسبعين وثلاثمائة، وازدحم الخلق على جنازته، وكان أمراً عظيماً، وصُلي عليه نحواً من مائة مرة.

وقيل: إنه عاش مائة سنة وأربع سنين.

وقيل: مائة إلا خمس سنين، ولعله الأصح.

[ومن كلماته؛ والفوائد، والمحاسن عنه]

[١٠٩] قال: التقوى مجانبة ما يبعدك من الله.

[١١٠] وقال: التوكل الاكتفاء بضمانه، وإسقاط التهمة عن قضائه.

[١١١] وقال:

ليس شيءٌ أضر بالمريد من مسامحة النفس في ركوب الرخص، وقبول التأويلات.

[١١٢] وقال: الزهد البَرَم بالدنيا، ووجود الراحة في الخروج منها.

[١١٣] وسئل عن القرب: قربك منه بملازمة الموافقات، وقربه منك بدوام التوفيق.

[١١٤] وقيل له: متى يصح للعبد العبودية؟ فقال: إذا طرح كله على

مولاه، وصبر معه على بلواه.

[١١٥] وعن ابن خفيف: الغني الشاكر هو الفقير الصابر.

[١١٦] وعن ابن خفيف: سألنا يوماً القاضي أبو العباس ابن سريج بشيراز، وكنا نحضر مجلسه لدرس الفقه، فقال لنا: محبة الله فرض أو غير فرض؟

قلنا: فرض.

قال: وما الدلالة على ذلك؟

فما فينا من أتى بشيء فقبل، فرجعنا إليه وسألناه الدليل. فقال: قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ ﴾ إلى قوله ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ﴾[١].

قال: فتوعدهم الله عز وجل على تفضيل محبتهم لغيره على محبته ومحبة رسوله، والوعيد لا يقع إلى على فرض.

قلتُ: ومثل هذا الدليل في الدلالة على محبة النبي ﷺ، قوله: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه، وأهله، وماله، وولده، والناس أجمعين»[٢].

---

(١) سورة التوبة: آية ٢٤.

(٢) «طبقات الشافعية الكبرى»: ٣/١٤٩-١٦٣.

أبو الوليد النيسابوري

حسان بن محمد بن أحمد هارون، القرشي الأموي، الإمام الجليل

ولد بعد السبعين ومائتين.

قال الحاكم:

كان إمام أهل الحديث بخراسان، وأزهد من رأيت من العلماء، وأعبدهم، وأكثرهم تقشفاً، ولزوماً لمدرسته وبيته، وله «كتاب المستخرج على صحيح مسلم»[1].

[١١٧] قال الحاكم:

أرانا أبو الوليد نقش خاتمه: «الله ثقة حسان بن محمد»، وقال: أرانا عبدالملك بن محمد بن عدي نقش خاتمة «الله ثقة عبدالملك بن محمد»، وقال: أرانا الربيع نقش خاتمه «الله ثقة الربيع بن سليمان»، وقال: كان نقش خاتم الشافعي رضي الله عنه «الله ثقة محمد بن إدريس».

[١١٨] قال الحاكم:

وسمعته في مرضه الذي مات فيه، يقول: قالت لي والدتي: كنتُ حاملاً بك، وكان للعباس بن حمزة مجلس، فاستأذنت أباك أن أحضر مجلسه في أيام العشر فأذن لي، فلما كان في آخر المجلس قال العباس بن حمزة: قوموا. فقاموا، وقمت معهم، فأخذ العباس يدعو، فقلت: اللهم هب لي ابناً عالماً، فرجعت إلى المنزل، فبت تلك الليلة، فرأيت فيما يرى النائم كأن رجلاً أتاني،

---

(١) «طبقات الشافعية الكبرى»: ٣/٢٢٦-٢٢٩.

فقال: أبشري، فإن الله قد استجاب دعوتك، ووهب لك ولدا ذكراً، وجعله عالماً، ويعيش كما عاش أبوك. قالت: وكان أبي عاش اثنتين وسبعين سنة.

قال الأستاذ: وهذه قد تمّت لي اثنتان وسبعون سنة.

قال الحاكم: فعاش الأستاذ بعد هذه الحكاية أربعة أيام(١).

ابن حَرْبُويه

علي بن الحسين بن حرب بن عيسى البغدادي القاضي أبو عبيد بن حربويه.

قاضي مصر، وأحد أركان المذهب، وهو من تلامذة أبي ثور، وداود إمام الظاهر، عنهما حمل العلم.

وقال البرقاني: ذكرته للدارقطني فذكر من جلالته وفضله، وقال: حدَّث عنه النسائي في «الصحيح»، لم يحصل لي عنه حرف، وقد مات بعد أن كتبت بخمس سنين.

[١١٩] وقال أبو سعيد بن يونس: هو قاضي مصر، أقام بها طويلاً، وكان شيئاً عجيباً، ما رأينا مثله، لا قبله ولا بعده، وكان يتفقه على مذهب أبي ثور، وعُزِل عن القضاء سنة إحدى عشرة لأنه كتب يستعفي، ووجّه بذلك رسولاً إلى بغداد، وأغلق بابه، وامتنع من الحكم، فأُعفي، فحدَّث حين جاء عزله، وأملى مجالس، ورجع إلى بغداد، وكان ثقة ثبتاً.

---

(١) «طبقات الشافعية الكبرى»: ٣/٢٢٦-٢٢٩

قلت: كان رسوله إلى بغداد بالاستعفاء أبو بكر بن الحداد، ورجع إليه، ولم يعف، لأن الوزير إذ ذاك أبى أن يعفيه، فما عاد ابن الحداد إلى مصر إلا وقد ولي وزيرٌ غير ذلك الوزير، وهو ابن الفرات، وكان يكره أبا عبيد، فصرفه بعد أن كان له في قضاء مصر أزيد من ثماني عشرة سنة.

[١٢٠] وكان مهيباً مصمماً، مضبوط الكلمات قليلها، وافر الحرمة، لم يره أحد يأكل ولا يشرب، ولا يلبس ولا يغسل يده، إنما يفعل ذلك في خلوة وهو منفرد بنفسه، ولا رآه أحد يمتخط ولا يبصق، ولا يحك جسمه، ولا يمسح وجهه، وكان عليه من الوقار والهيبة والحشمة ما يتذاكره أهل بلده.

[١٢١] وقال ابن زولاق:

كان عالماً بالاختلاف والمعاني والقياس، عارفاً بعلم القرآن والحديث، فصيحاً عاقلا عفيفا، قوالا بالحق، سمحا منقبضا، وكان رزقه في الشهر مائة وعشرين ديناراً، وكان يورث ذوي الأرحام، وولي قضاء واسط، قبل مصر، وكان أمير مصر يأتي إلى داره.

[١٢٢]قال: وهو آخر قاض ركب إليه الأمراء بمصر، ولم يكن شكل أبي عبيد بهياً، فكان من رآه ربما استزراه، حتى يسمع كلامه وفصاحة لسانه، فيقع من قلبه إذ ذاك أعظم موقع، وكان ابن الحداد كثير المخالطة له، والتعظيم له، وله به خصوصية.

[١٢٣]قال ابن الحداد: قدم أبو عبيد إلى مصر، فرأيته في الطريق فما أعجبني زيه، ولا منظره، ثم دخل شهر رمضان، وكنا عند أبي القاسم بشر بن نصر الفقيه، فدخل منصور بن إسماعيل الفقيه، مهنئاً له بشهر رمضان،

فقيل له من أين أقبلت؟ فقال: من عند القاضي، هنأته بدخول الشهر، قال ابن الحداد: فقلت له: كيف رأيت القاضي؟ قال: رأيت رجلاً عالماً بالقرآن والفقه الحديث، والاختلاف ووجوه المناظرات، وعالماً باللغة والعربية وأيام الناس، عاقلاً ورعاً زاهداً متمكناً، فقلت له: هذا يحيى بن أكثم! فقال: الذي عندي قلت لك.

قال ابن الحداد: ثم دخلت إليه فوجدت منصوراً مقصراً في وصفه.

توفي في صفر سنة تسع عشرة وثلاثمائة ببغداد.

من الفوائد والغرائب والملح عنه

[١٢٤] قد أطال ابن زولاق في ذكر أخبار القاضي أبي عبيد، والثناء على محاسنه، وقول أهل مصر إنهم لم يروا قبله ولا بعده قاضياً مثله، قال: وكان يذهب إلى قول أبي ثور، ثم صار يختار، فجميع أحكامه بمصر باختياره، وحكم بمصر بأحكام لو حكم بها غيره لأنكر عليه، فما أنكر عليه أحد، لأن أبا عبيد كان رجلاً لا يطعن عليه في علم، ولا تلحقه ظِنة في رشوة، ولا يحيف في حكم، وكان يورث ذوي الأرحام.

[١٢٥] قال ابن الحداد: وما كان أبو عبيد يؤمر أحداً، بل إذا ذكر تكين، أمير مصر، يقول: أبو منصور تكين، ولا يقول: الأمير. قال: وكان إذا ركب لا يلتفت ولا يتحدث مع أحد، ولا يصلح رداءه، وركب مرة إلى أمير مصر، تكين وهو بالجيزة، في كاينة اتفقت له، فقيل له: قد رأى القاضي النيل؟ فقال: قد سمعت خرير الماء.

قلت: فلله در قاض أقام بمصر ثماني عشرة سنة، لم يبصر النيل!

وكانت الكاينة التي خرج فيها تكين إلى الجيزة، قد قتل فيها في الواقعة على ما قيل نحو من خمسين ألفا، أراد تكين أن يحفر لهم خندقاً ويدفنهم، فخرج إليه القاضي، وقال: إنك إن فعلت ذلك تلفت المواريث، ولكن ناد في الناس: من له قتيل يأخذه، ففعل تكين ما قاله.

[١٢٦] قال ابن زولاق: وجرى للقاضي في هذا الخروج إلى الجيزة خبر عجيب، حركه البول، وهو راجع، فعدل إلى بستان فنزل وبال، واستنجى وتوضأ من مائه، ثم انصرف، ثم سأل بعد أيام عن البستان، فقيل: لفلانة، فأرسل إليها يستأذنها على الحضور إليها، فارتاعت لذلك وقالت: أنا أركب إليه، وكانت من أهل الأقدار، فأبى، فركب إليها أبو عبيد، وقد فرشت له الدار وحسنتها، فقال لها: البستان لك وحدك بلا شريك؟ فقالت: نعم، وأنا التي أسقيه من مائي، قال: فأنا نزلت في أرضه، وتوضأت من مائه، فخذى ثمن ذلك، فبكت. وقالت: أيها القاضي، أنت في حل، ولو علمت أن القاضي يقبله هدية لأهديته إليه، فقال لها: عن طيب نفس تركت، ولم تتركي ذلك لأجل القاضي وحرمته؟ فقالت: نعم، فانصرف.

وحكى ابن زولاق أشياء من هذا الجنس، دالة على تصلبه في الورع، وأشياء أخر دالة على شدته في الحق، وأشياء أخر دالة على تصميمه ووقاره وهيبته، وأنه كان ينهى أن يتلفظ لافظ في مجلسه بذكر الطعام أو النساء.

[١٢٧] قال: ومكث في مصر ثماني عشرة سنة وستة أشهر، ما رآه راء يأكل ولا يشرب.

وذكر أن تواقيعه[١] جمعت وكتبت ؛ لفصاحتها وبلاغتها ، وأنه كان إذا تكلم بكلمة طارت في البلد إعجاباً بها.

[١٢٨] [ومن مليح توقيعاته]

رفع إليه أن امرأة امتنعت من السفر مع زوجها ، فوقع إلى كاتبه : إن لم يكن لها مهر عليه باق ، ولم يكن بينهما شقاق ، يدعوهما إلى مساوئ الأخلاق ، فله أن يخرج بها إلى جميع الآفاق.

وكتب إليه خليفته الحسن بن صالح البهنسي : إن جماعة ذموني عند القاضي ، فكتب إليه أبو عبيد : لو كان المادحون لك بعدد الذامين الدارين عليك ، لما نقصك ذلك عندي ، فكيف والمثنون عليك أضعاف الذامين ، وسألتك بالله ألا يزيدك كتابي إلا تواضعاً ، ولا تقعقع بكتاب قاضيك على رعيتك ، فتضعف قلوبهم ، فإنما قربك مني قربك من الحق ، ومتى بعدت منه بعدت من قلبي ، والسلام.

وكان أبو بكر بن الحداد كثير الإجلال للقاضي أبي عبيد ، بحيث لا يقول له إلا القاضي ؛ غيبةً وحضوراً ، في حياته وبعد وفاته ، وإذا قيل له : من القاضي؟ غضب ، ويقول : إنما القاضي أبو عبيد.

[ومن قضايا أبي عبيد]

[١٢٩] ومما يحكى في تصميمه أن مؤنساً الخادم ، وهو أكبر أمراء المقتدر ، وكان في خدمته سبعون أميراً سوى أصحابه ، وكان يخطب له على

---

(١) قلت : التواقيع هي ما يكتبه الكبراء على العرائض المرفوعة إليهم.

جميع المنابر مع الخليفة، ورد إلى مصر في عسكر كبير، فعرض له ضعف، فأرسل إلى القاضي يطلب منه شهوداً يشهدهم عليه أنه أوصى بوقف قرى كثيرة على سبيل البر وبعتق ستمائة مملوك، وبأنواع من الخير، فقال القاضي: حتى يثبت عندي أن مؤنساً حر.

هذا، ومؤنس أكبر أمراء الإسلام، فصمم القاضي، وقال: إن لم يرد علي كتاب المقتدر أنه أعتقه، وإلا فلا أفعل.

[١٣٠] ومن ذلك أن أمير المؤمنين المقتدر كتب كتاباً إلى القاضي، فوصل الكتاب إلى مؤنس، فاستدعى بعض الأمراء ليوصله إلى القاضي، فهاب القاضي، فدعى تكين أمير مصر، وحمله أن يذهب إلى القاضي، ويوصل الكتاب إليه، فأتى إلى القاضي وأومى بيده إلى أن ناوله الكتاب، فقال القاضي: ما هذا؟

فقال: كتاب أمير المؤمنين.

فقال: أمن يدك؟ فقال: بلى.

فقال: بل من يد شاهدين عدلين، يشهدان أنه كتاب أمير المؤمنين.

[١٣١] وذكر أن شخصاً، يقال له إبراهيم، أصبح في منزله يوماً جنباً، ليس معه شيء يدخل به الحمام، قال: فخرجت رجاء صديق يدخلني الحمام، فإذا بغريم على بابي، يطالبني بخمسة دنانير، فحدثته حديثي، فقال: ما نفترق إلا إلى القاضين فتوجهنا إلى القاضي أبي عبيد، فوجدناه خارجاً من المسجد، وبين يديه غلام أسود خصى، فقال له خصمي: أيد الله القاضي، انظر في أمري، فإني بت على بابك. والقاضي مطرق لا ينظر إلينا، حتى دخل داره، وليس على بابه حاجب ولا أحد، ثم خرج علينا الغلام، وقال:

ادخلا، فدخلنا فوجدناه جالساً في وسط مجلسه، فقال: تكلما، فسبقت أنا، فصرت المدعي، فقلت: أيد الله القاضي: لي على هذا خمسة دنانير.

فقال: مصرية؟

فقلت: نعم.

فقال: حالّة؟[1]

فقلت: نعم. فقال للخصم: ما تقول؟ فضحك معجباً، فصاح القاضي صيحة ملأت الدار، وقال: مم تضحك؟ لا أضحك الله سنك، ويحك! تضحك في مجلس الله مطلع عليك فيه، ويحك! تضحك وقاضيك بين الجنة والنار! فأرعب القاضي الرجل، وقال: أنا أدفع إليه، قم. فقمنا، فلما خرج قال لي: امض؛ فأنت في حل، فقلت: ما نفترق إلا بخمسة دنانير، ارجع بنا إلى القاضي. فأعطاني ديناراً، ومرض ثلاثة أشهر، فكنت إذا عدته، يقول لي: صيحة القاضي في قلبي إلى الساعة، وأحسبها تقتلني[2].

الثعلبي

أحمد بن محمد بن إبراهيم، أبو إسحاق، النيسابوري، الثعلبي.

[١٣٢]صاحب «التفسير» كان أوحد زمانه في علم القرآن، وله كتاب «العرائس، في قصص الأنبياء عليهم السلام».

قال ابن السمعاني: يقال له الثعلبي، والثعالبي، وهو لقب لا نسب.

---

(١) يعني حان وقت سدادها.

(٢) «طبقات الشافعية الكبرى»: ٣/٤٤٦-٤٥٥.

[١٣٣] وقد جاء عن الأستاذ أبي القاسم القشيري، أنه قال: رأيت رب العزة في المنام وهو يخاطبني، وأخاطبه، فكان في أثناء ذلك أن قال الرب جل اسمه: أقبل الرجل الصالح. فالتفت، فإذا أحمد الثعلبي مقبل.

[١٣٤] ومن شعر الثعلبي:

وإني لأدعو الله والأمر ضيق ... علي فما ينفك أن يتفرجا

ورب فتى سدت عليه وجوهه ... أصاب له في دعوة الله مخرجا

توفى في المحرم، سنة سبع وعشرين وأربعمائة[١].

الإسفراييني

أحمد بن محمد بن أحمد، أبو حامد الإسفرايني.

حافظ المذهب وإمامه. ولد سنة ٣٤٤هـ، وقدم بغداد شاباً.

[١٣٥] عن سليم الرازي: أن الشيخ أبا حامد كان في أول أمره يحرس في بعض الدروب ويطالع العلم في زيت الحرس، وأنه أفتى وهو ابن سبع عشرة سنة، وأقام يفتي إلى أن مات، ولما قربت وفاته، قال: لما تفقهنا متنا.

[١٣٦] وكان الشيخ أبو حامد رفيع الجاه في الدنيا، ووقع من الخليفة أمير المؤمنين ما أوجب أن كتب إليه الشيخ أبو حامد: اعلم أنك لست بقادر على عزلي عن ولايتي التي ولانيها الله تعالى، وأنا أقدر أن أكتب رقعة إلى خراسان بكلمتين أو ثلاث أعزلك عن خلافتك.

---

(١) «طبقات الشافعية الكبرى»: ٤/٥٨-٥٩.

[١٣٧] وحُكي أن قارئاً قرأ في مجلسه: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾[(١)].

فقال الشيخ أبو حامد: أما العلو فقد أردنا، وأما الفساد فما أردنا.

[١٣٨] وحُكي أنه أرسل إلى مصر، فاشترى «أمالي الشافعي» بمائة دينار.

[١٣٩] ومن محاسن الشيخ أبي حامد أنه اتفق في سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة وقوع فتنة بين أهل السنة والشيعة ببغداد، بسبب إخراج الشيعة مصحفاً، قالوا: إنه مصحف ابن مسعود، وهو يخالف المصاحف كلها، فثار عليهم أهل السنة، وثاروا هم أيضاً، ثم آل الأمر إلى جمع العلماء والقضاة في مجلس، فحضر الشيخ أبو حامد، وأحضر المصحف المشار إليه، فأشار الشيخ أبو حامد والفقهاء بتحريقه، ففعل ذلك بمحضر منهم، فغضبت الشيعة، وقصد جماعة من أحداثهم دار الشيخ أبي حامد ليؤذوه، فانتقل منها، ثم سكّن الخليفة الفتنة، وعاد الشيخ أبو حامد إلى داره.

توفى الشيخ أبو حامد في شوال، سنة ست وأربعمائة، ودفن بداره، ثم نقل سنة عشرة إلى المقبرة.

[١٤٠] وعليه تأول جماعة من العلماء حديث: «يبعث الله لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها»[(٢)].

---

(١) سورة القصص: آية ٨٣.

(٢) «طبقات الشافعية الكبرى»: ٤/٦١-٧٤.

أبو الفرج الزاز

عبدالرحمن بن أحمد بن محمد، السرخسي، رحلت إليه الطلبة من الأقطار، وسار اسمه مسير الشمس في الأمصار.

مولده سنة إحدى أو اثنتين وثلاثين وأربعمائة.

[١٤١] قال فيه ابن السمعاني:

أحد أئمة الإسلام، ومن يضرب به المثل في الآفاق بحفظ مذهب الشافعي الإمام، ومعرفته، وتصنيفه الذي سماه «الإملاء» سار في الأقطار مسير الشمس، ورحل إليه الأئمة والفقهاء من كل جانب، وحصلوه واعتمدوا عليه، ومن تأمله عرف أن الرجل كان ممن لا يشق غباره في العلم، ولا يثنى عنانه في الفتوى، ومع وفور فضله وغزارة علمه كان متديناً ورعاً، محتاطاً في المأكول والملبوس.

[١٤٢] قال: وسمعت زوجته، وهي حرة بنت عبدالرحمن بن محمد بن علي السنجاني تقول: إنه كان لا يأكل الأرز؛ لأنه يحتاج إذا زرع إلى ماء كثير، وصاحبه قَلّ ألا يظلم غيره في سقى الماء.

[١٤٣] قال: وسمعتها تقول: سرق كل شيء في داري، من ملبوسي، حتى المرط الذي كنت أصلى عليه، وكانت طاقية الإمام عبدالرحمن زوجي على حبل في صحن الدار لم تؤخذ، فوجد السارق، فقبض عليه بعد خمسة أشهر، ورد علينا أكثر المسروق، ولم يضع إلا القليل، فاتفق أن الإمام عبدالرحمن سأل السارق: لم لَمْ تأخذ الطاقية؟ فقال: أيها الشيخ، تلك الطاقية أخذتها تلك الليلة مرات، فكل مرة إذا قربت منها كانت النار تشتعل

منها، حتى كادت أن تحرقني، فتركتها على الحبل، وخرجت[(١)].

الرُوذْراوَرِي[(٢)]

أبو شجاع، محمد بن الحسين بن محمد، الوزير، ولد سنة ٤٣٧هـ.

لما عزل المقتدي بالله عميد الدولة أبا منصور بن جهير من وزارته ولاها ظهير الدين أبا شجاع سنة ٤٧٦هـ وتوالت السعادة في وزارته، وما زال يتقدم في كل يوم تقدماً لم يكن لغيره، وعظم الحق، وانتشر العدل.

وكان لا يخرج من بيته حتى يقرأ شيئاً من القرآن ويصلي.

[١٤٤] وكان يصلي الظهر ويجلس للمظالم إلى وقت العصر، وحُجّابه تنادي:

أين أصحاب الحوائج؟

قال النقلة: فلم يطمع في أيامه طامع، ولم يحدث نفسه بالظلم ظالم.

وكان من سعادته أن قاضي القضاة الشامي[(٣)] ذلك الرجل العالم الصالح هو القاضي في أيامه فانتظم أمر بغداد كما ينبغي.

[١٤٥] استدعى يوماً بعض كبار الأمراء بالنواحي، فجاءه في خمسمائة فارس من الأمراء والسلارية، فلما مثل بين يديه، فقال له: إن بعض أعوانك أخذ عمامة رجل.

---

(١) «طبقات الشافعية الكبرى»: ٥/١٠١-١٠٤.

(٢) نسبة إلى بلدة بنواحي همذان، وهمذان اليوم في إيران.

(٣) ستأتي ترجمته بعد هذه.

فقال: يا مولانا: إنك تتعمد الغض مني، والنقص من محلي، هذا مما يسأل عنه من استنبته في الشرطة من أصحابي، والمستخدمون على أبوابي.

فقال له الوزير: وإذا سألك الله تعالى في الموقف الذي يسألك فيه عن اللفظة، واللحظة، ومثال الذرة، يكون هذا جوابك؟

فخرج ذلك الملك، واستبحث عن العمامة حتى عادت.

وأخباره في ذلك ونظائره مشهورة كثيرة.

[١٤٦] وأما ما كان يفعله من صنائع البر، والتنوع في صلة المعروف فعجيب كثير:

وحُكِيَ أنه استدعى بعض أخصائه في يوم بارد، وعرض عليه رقعة من بعض الصالحين، يذكر فيها أن في الدار الفلانية امرأة معها أربعة أطفال أيتام، وهم عراة جياع.

فقال له: امض الآن، وابتع لهم جميع ما يصلح لهم.

ثم خلع أثوابه، وقال: والله لا لبستها، ولا أكلت حتى تعود وتخبرني أنك كسوتهم، وأشبعتهم.

وبقي يرعد بالبرد إلى حيث قضى الأمر، وعاد إليه، وأخبره.

[١٤٧] وقال بعض من كان يتولى صدقاته: إنه حسب ما انصرف على يده من صلاته، فاشتمل على مائة ألف دينار، وعشرين ألف دينار.

قال: وكنت واحداً من عشرة يتولون صدقاته.

ثم إن السلطان ملكشاه سأل الخليفة في عزله، فعزله في ربيع الأول، سنة أربع وثمانين وأربعمائة، فأنشد أبو شجاع في حال انصرافه:

تولاهــا ولــيس لــه عــدو وفارقهــا ولــيس لــه صــديق

وخرج إلى الجامع يوم الجمعة، وأمالت العامة عليه تصافحه، وتدعو له.

وأقام في داره مكرما، محترما، وبنى على بابها مسجداً.

واستمر إلى أن أذن له الخليفة في الحج، في موسم سنة أربع وثمانين، فلما عاد مع الحجيج في سنة خمس تلقاه من أصحاب السلطان من منعه من دخول العراق، وسار به إلى رُوذْرَاوَر، فأقام بها إلى سنة سبع وثمانين، توجه منها إلى الحج، ودخل بعد وفاة المقتدِي، والسلطان ملكشاه، ونظام الملك، فأقام بمدينة النبي ﷺ، وأضرب عن العز والجاه، والأهل، والوطن(١).

أبو بكر الشامي

محمد بن المظفر بن بكران بن عبدالصمد بن سليمان الحموي، القاضي.

الزاهد، الورع، أحد الأئمة.

ولد بحماة، سنة أربعمائة.

ورحل إلى بغداد فسكنها، وتفقه على القاضي أبي الطيب الطبري.

قال ابن السمعاني: هو أحد المتقنين لمذهب الشافعي، وله اطلاع على أسرار الفقه، وكان ورعاً، زاهداً، متقناً، جرت أحكامه على السداد.

[١٤٨] ولي قضاء القضاة ببغداد بعد موت أبي عبدالله الدامغاني، سنة

---

(١) «طبقات الشافعية الكبرى»: ٤/١٣٦-١٤٠.

ثمان وسبعين، إلى أن تغير عليه المقتدي بالله لأمر؛ فمنع الشهود من حضور مجلسه مدة؛ فكان يقول: ما أنعزلُ حتى يتحقق عليّ الفسق.

قلت: لعله كان يرى ذلك، والمذهب أنه ينعزل وإن لم يفسق.

ثم إن الخليفة خلع عليه، واستقام أمره.

وقال أبو علي بن سكرة:

[١٤٩] ورع، زاهد، وأما العلم فكان يقال: لو رفع مذهب الشافعي أمكنه أن يمليه من صدره.

قلت: وكان من قضاة العدل، واتفقت منه محاسن أيام قضائه.

وكان الذي أشار على الخليفة بولايته عند موت الدامغاني الوزير أبو شجاع، فامتنع الشامي من القبول، فما زالوا به حتى تقلده، وشرط أن لا يأخذ رزقاً، ولا يقبل شفاعة، ولا يغير ملبوسه، فأجيب إلى ذلك.

[١٥٠] قال عبدالوهاب الأنماطي: لم يكن الشامي يتبسم في مجلسه قط:

[١٥١] قال: ولما منعت الشهود من حضور مجلسه، وقعد في بيته، نقل إليه القاضي أبو يوسف القزويني المعتزلي: ما عزلك الخليفة، إنما عزلك النبي ﷺ.

قال: وكيف ذلك؟

قال: لأنه قال: «لا يقضى القاضي بين اثنين وهو غضبان» وأنت طول عمرك غضبان.

وقال محمد بن عبدالملك الهمذاني: كان لا يقبل من سلطان عطية، ولا من صديق هدية، وكان يعاب بالحدة، وسوء الخلق.

قال ابن النجار: ما استتاب أحداً في القضاء، وكان يسوي بين الوضيع والشريف في الحكم، ويقيم جاه الشرع، فكان هذا سبب انقلاب الأكابر عنه، فألصقوا به ما كان منه بريئاً، من أحاديث ملفقة، ومعايب مزورة.

[١٥٢] وقال الفقيه أحمد بن عبدالله بن الآبنوسي:

جاء أمير المؤمنين إلى قاضي القضاة الشامي، فادعى شيئاً، وقال: بينتي فلان، والمشطّب الفرغاني الفقيه.

فقال: لا أقبل شهادة المشطب، لأنه يلبس الحرير.

فقال: السلطان ملكشاه، ووزيره نظام الملك يلبسانه.

فقال: ولو شهدا عندي ما قبلت شهادتهما أيضاً.

قال ابن الآبنوسي: كان له كِيسان، أحدهما يجعل فيه عمامته وقميصه، والعمامة كتان، والقميص قطن خشن، فإذا خرج لبسهما، والكيس الآخر فيه فتيت، فإذا أراد الأكل جعل منه في قصعة، وقليل من الماء، وأكل منه.

[١٥٣] وكان له كراء بيت في الشهر بدينار ونصف، كان منه قوته، فلما ولى القضاء جاء إنسان، فدفع فيه أربعة دنانير، فأبى، وقال: لا أغير ساكني، وقد ارتبت بك، لم لا كانت هذه الزيادة قبل القضاء؟

وكان يشد في وسطه مئزراً، ويخلع في بيته ثيابه، ثم يجلس.

وكان يقول: ما دخلت في القضاء حتى وجب علي.

توفى في عاشر شعبان، سنة ثمان وثمانين وأربعمائة[١].

الدسكري

أبوسعد، عبدالواحد بن أحمد بن الحسين.

تفقه على أبي إسحاق الشيرازي.

قال ابن السمعاني: فقيه صالح، ديّن ورع، برع في الفقه، وكانت له معرفة بالأدب، وارتقت درجته وارتفعت.

روى عن أبي علي الحسن بن علي بن المذهب، وغيره.

[١٥٤] قلت: وقد حج وأنفق مالاً صالحاً على المجاورين الفقراء بالحرمين، وحكى أن الحاج عطشوا في تلك السنة فسألوه أن يستسقيَ لهم، فتقدم وقال: اللهم إنك تعلم أن هذا بدن لم يعصك قط في لذة، ثم استسقى فسقى الناس، مات في سنة ست وثمانين وأربعمائة[٢].

أبو محمد القَرّاب

إسماعيل بن إبراهيم بن محمد، الفقيه المقرئ، مصنف كتاب مناقب

(١) «طبقات الشافعية الكبرى»: ٢٠٢/٤-٢٠٥.

(٢) «طبقات الشافعية الكبرى»: ٢٢٤/٥.

الشافعي» و«درجات التائبين»، وكان إماماً مبرزاً في عدة علوم، زاهداً ورعاً، وكان في ذلك آية.

قال ابن الصلاح: ووجدت عن الحاكم أبي عبدالله، أنه ذكره، فقال: كان من صالحي أهل العلم، والمقدمين في معرفة القراءات.

طلب العلم بخراسان، والعراق.

وكان من أجل بيت لأهل الحديث بهراة. انتهى.

قلت: وقد تأخرت وفاته عن الحاكم، فإنه مات في شعبان، سنة أربع عشرة وأربعمائة، ومات الحاكم سنة خمس وأربعمائة.

وقد حدث هو أيضاً في كتابه «المناقب» عن الحاكم، وأكثر فيه النقل عنه.

وقد نقلت من كتاب «المناقب» هذا فوائد استعذبتها، فمنها:

[١٥٥] قال: سمعت أبا القاسم عبدالعزيز بن عبدالله الداركي، يقول ببغداد، في درسه: حكى له أن صلى على أحمد بن حنبل ستمائة ألف رجل، وستون ألف امرأة(١).

---

[١٥٦] (١) «طبقات الشافعية الكبرى»: ٤/٢٦٦-٢٧٠.

بعد هذا في الطبقات الوسطى زيادة: حدث الحاكم عنه بسند له، عن محمد بن الحسن، أن امرأة قالت لزوجها: يا سُفْلَة، فقال لها: إن كنتُ فأنتِ طالق ثلاثا. فاختصما إلى أبي حنيفة، فقال للزوج: أحائِكٌ أنت؟

قال: لا.

قال: أسماكٌ؟

قال: لا.

قال: أحجامٌ؟

=

أبو عثمان الصابوني

إسماعيل بن عبدالرحمن بن أحمد، أبو عثمان الصابوني.

هو الأستاذ الإمام، شيخ الإسلام أبو عثمان، الخطيب، المفسر، المحدث، الواعظ، أوحد وقته في طريقته، وعظ المسلمين في مجالس التذكير ستين سنة، وخطب، وصلى في الجامع، – يعني بنيسابور – نحواً من عشرين سنة.

ورزق العز، والجاه، في الدين والدنيا، وكان جَمالاً للبلد، زيناً

= قال: لا.

قال: قم، فلست سُفْلة.

قال ابن الصلاح: لعله علم عُرْوَة عن باقي أسباب السفالة فلم يسأله؛ وإلا فليست منحصرة في هذه الثلاثة.

قال أبو عبدالله الزبيري، من أصحابنا، في كتابه «المسكت»: جماع الصفات الحميدة أن يكون الرجل عالي النسب، كريم الحسب، جميل الأخلاق، منزهاً عن الريب، واسع العلم، كبير الحلم، وافر العقل، فخم الألفاظ، جيد الرأي، حسن الاقتصاد، إن نطق أبان عن نفسه، وإن سكت كان سكوته على غير عي منه عن جوابه، غير مضيع لما ولي، ولا متكلف لما قد كفي، قد اقتصد في معاشه، وصان نفسه ولسانه عن العيب والسفه، لا يظلم من خالطه، ولا يبخس من عامله، ولا يخون أمانته، ولا يخلق مروءته، ولا يعطى الدنية في دينه، إن اكتسب اكتسب من حيث يحسن، وإن ترك كان تركه منه من حيث لا يلحقه منه ما يقبح.

فمن كان هكذا فهو غير سُفْلة، وإذا اجتمعت أضداد هذه الصفات في شخص – ولن تجتمع – فهو السفلة بعينه، ومن كان فيه من هذه وهذه فالاعتبار بالأكثر والأغلب؛ كما قال الشافعي في الشهادات، عند ذكر العدل: ليس أحدٌ من الناس يُخلص الطاعات حتى لا يخلطها بمعصية، ولا يخلص المعصية حتى لا يخلطها بالطاعة، ولا يدع المروءة حتى لا يأتي بشيء منها؛ فمن كان أكثر أحواله الطاعة والمروءة فهو العدل، ومن كان أكثر أحواله ضد ذلك فهو غير العدل.

قال: وكذا الكلام في الكريم واللئيم.

وأطال الزبيري في ذلك.

ولو قال قائل: الرجوع في مثل هذه الأشياء عند جريانها على لسان العامة إلى العرف، لشهدت له نظائر كثيرة من الفقه».

للمحافل والمجالس، مقبولاً عند الموافق والمخالف، مجمعاً على أنه عديم النظير، وثق السنة، ودافع البدعة.

[١٥٧] قال أبو العباس:

قرأت من خط قديم معروف، أنه حُكي عن يهودي أنه قال: اغتممتُ لوفاة أبي نصر الصابوني، وقتله، فاستغفرت له، ونمت، فرأيته في المنام، وعليه ثياب خضر، ما رأيت مثلها قط، وهو جالسٌ على كرسي، بين يديه جماعة كثيرة من الملائكة، وعليهم ثياب خضر، فقلت: يا أستاذ، أليس قد قتلوك؟

قال: فعلوا بي ما رأيت.

فقلت: ما فعل بك ربك؟

قال: يا أبا حوايمرد، كلمة بالفارسية، لمثلي يقال هذا؟ غفر لي، وغفر لمن صلى علي، كبيرهم وصغيرهم، ومن يكون على طريقي.

قلت: أما أنا فلم أصل عليك.

قال: لأنك لم تكن على طريقي.

فقلت: إيش أفعل لأكون على طريقك؟

فقال: قل أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله.

فقلت ذلك؛ ثم قلت: أنا مولاك.

قال: لا، أنت مولى الله.

قال: فانتبهت، فجاء مِن عنده إلى قبره، وذكر ما رأى في المنام، وقال:

أنا مولاه، وأسلم عند قبره، ولم يأخذ شيئاً من أحد، وقال: إني غني، أسلمت لوجه الله، لا لوجه المال.

وحكى أبو سهل بن هارون، قال: قال أبو بكر الصيدلاني، وكان من الصالحين: كنت حاضراً قبره؛ حين جاء اليهودي، فأسلم.

[١٥٨] وقد حدث عنه البيهقي وهو من أقرانه، وقال فيه: إنه إمام المسلمين حقاً، وشيخ الإسلام صدقاً، وأهل عصره كلهم مذعنون لعلو شأنه في الدين، والسيادة، وحسن الاعتقاد، وكثرة العلم، ولزوم طريقة السلف.

وقال أبو عبدالله المالكي: أبو عثمان الصابوني ممن شهدت له أعيان الرجال بالكمال في الحفظ والتفسير وغيرهما.

توفي سنة تسع وأربعين وأربعمائة.

[١٥٩] وهذه وصيته، وقد وجدت بدمشق عند دخوله إليها حاجاً:

هذا ما أوصى به إسماعيل بن عبدالرحمن بن إسماعيل أبو عثمان الصابوني، الواعظ غير المتعظ، الموقظ غير المتيقظ، الآمر غير المؤتمر، والزاجر غير المنزجر، المتعلم، المعترف، المنذر، المخوف، المخلط، المفرط، المسرف، المقترف للسيئات المغترف، الواثق مع ذلك برحمة ربه، الراجي لمغفرته، المحب لرسول الله ﷺ وشيعته، الداعي الناس إلى التمسك بسنته وشريعته ﷺ.

أوصى وهو يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، إلهاً واحداً أحداً، فرداً صمداً، لم يتخذ صاحبة ولا ولداً، ولم يشرك في حكمه أحداً، الأول، الآخر، الظاهر، الباطن، الحي، القيوم، الباقي بعد فناء خلقه،

المطلع على عباده، العالم بخفيات الغيوب، الخبير بضمائر القلوب، المبدئ، المعيد، الغفور، الودود، ذو العرش، المجيد، الفعال لما يريد ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾(١)، هو مولانا، فنعم المولى، ونعم النصير، يشهد بذلك كله مع الشاهدين، مقراً بلسانه، عن صحة اعتقاد، وصدق يقين، ويتحملها عن المنكرين الجاحدين، ويعدها ليوم الدين: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾(٢)﴿يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾(٣).

ويشهد أن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون.

ويشهد أن الجنة حق، وجملة ما أعد الله تبارك وتعالى فيها لأوليائه حق. ويسأل مولاه الكريم، جل جلاله أن يجعلها مأواه، ومثواه، فضلاً منه وكرماً.

ويشهد أن النار، وما أعد الله فيها لأعدائه حق، ويسأل الله مولاه أن يجيره منها، ويزحزحه عنها، ويجعله من الفائزين، قال الله عز وجل: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾(٤).

ويشهد أن صلاته، ونسكه، ومحياه ومماته لله رب العالمين، لا شريك له، وبذلك أمر وهو من المسلمين، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) سورة الشورى: آية ١١.

(٢) سورة الشعراء: آية ٨٨، ٨٩.

(٣) سورة الدخان: آية ٤١، ٤٢.

(٤) سورة آل عمران: آية ١٨٥.

وأنه رضي بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبياً، وبالقرآن إماماً، على ذلك يحيى، وعليه يموت إن شاء الله، عز وجل.

ويشهد أن الملائكة حق، وأن النبيين حق، وأن الساعة لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور.

ويشهد أن الله سبحانه وتعالى قدر الخير، وأمر به، ورضيه، وأحبه، وأراد كونه من فاعله، ووعد حسن الثواب على فعله، وقدر الشر، وزجر عنه، ولم يرضه، ولم يحبه، وأراد كونه من مرتكبه غير راض به، ولا محب له، تعالى ربنا عما يقول الظالمون علواً كبيراً، وتقدس أن يأمر بالمعصية، أو يحبها، ويرضاها، وجل أن يقدر العبد على فعل شيء لم يقدره عليه، أو يحدث من العبد ما لا يريده، ولا يشاؤه.

ويشهد أن القرآن كتاب الله، وكلامه، ووحيه، وتنزيله، غير مخلوق، وهو الذي في المصاحف مكتوب، وبالألسنة مقروءٌ، وفي الصدور محفوظ، وبالآذان مسموع. قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾[١]، وقال ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾[٢]، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ﴾[٣]، وقال: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ﴾[٤].

ويشهد أن الإيمان تصديق بالقلب، بما أمر الله أن يصدق به، وإقرار باللسان بما أمر الله أن يقرّ به، وعمل بالجوارح بما أمر الله أن يعمل به، وانزجار

---

(١) سورة التوبة: آية ٦.

(٢) سورة العنكبوت: آية ٤٩.

(٣) سورة فاطر: آية ٢٩.

(٤) سورة يس: آية ٦٩.

عما زجر عنه، من كسب قلب، وقول لسان، وعمل جوارح، وأركان.

ويشهد أن الله سبحانه وتعالى مستو على عرشه، استوى عليه كما بينه في كتابه، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾[1]، وقوله: ﴿اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَٰنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا﴾[2] في آيات أُخَرَ، والرسول ﷺ تسليماً، ذكره فيما نقل عنه، من غير أن يكيف استواءه عليه؛ أو يجعل لفعله، وفهمه، أووهمه سبيلاً إلى إثبات كيفيته؛ إذ الكيفية عن صفات ربنا منفية.

قال إمام المسلمين في عصره أبو عبدالله مالك بن أنس رضي الله عنه، في جواب من سأله عن كيفية الاستواء: «الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وأظنك زنديقاً، أخرجوه من المسجد».

ويشهد أن الله تعالى موصوفٌ بصفات العلى، التي وصف بها نفسه في كتابه، وعلى لسان نبيه ﷺ تسليماً كثيراً، لا ينفي شيئاً منها ولا يعتقد شبهاً له بصفات خلقه، بل يقول: إن صفاته لا تشبه صفات المربوبين، كما لا تشبه ذاته ذوات المحدثين، تعالى الله عما يقول المعطلة، والمشبهة علواً كبيراً.

ويسلك في الآيات التي وردت في ذكر صفات البارئ، جل جلاله، والأخبار التي صحت عن رسول الله ﷺ، في بابها، كآيات مجيء الرب يوم القيامة، وإتيان الله في ظلل من الغمام، وخلق آدم بيده، واستوائه على

---

(١) سورة الأعراف: آية ٥٤.

(٢) سورة الفرقان: آية ٥٩.

عرشه، وكأخبار نزوله كل ليلة إلى سماء الدنيا، والضحك، والنجوى، ووضع الكنف على من يناجيه يوم القيامة، وغيرها، مسلك السلف الصالح، وأئمة الدين، من قبولها، وروايتها على وجهها، بعد صحة سندها، وإيرادها على ظاهرها، والتصديق بها، والتسليم لها، واتقاء اعتقاد التكييف، و التشبيه فيها، واجتناب ما يؤدى إلى القول بردها، وترك قبولها، أو تحريفها بتأويل يستنكر، ولم ينزل الله به سلطانا، ولم يجر به للصحابة، والتابعين، والسلف الصالحين لسان.

[١٦٠] وينهى في الجملة عن الخوض في الكلام، والتعمق فيه وفي الاشتغال بما كره السلف رحمهم الله الاشتغال به، ونهوا، وزجروا عنه، فإن الجدال فيه والتعمق في دقائقه، والتخبط في ظلماته، كل ذلك يفسد القلب، ويسقط منه هيبة الرب، جل جلاله، ويوقع الشبه الكبيرة فيه، ويسلب البركة في الحال، ويهدي إلى الباطل، والمحال، والخصومة في الدين، والجدال، وكثرة القيل والقال، في الرب ذي الجلال، الكبير المتعال، سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً، الحمد لله على ما هدانا من دينه وسنة نبيه، صلوات الله وسلامه عليه، حمداً كثيراً.

ويشهد أن القيامة حق، وكل ما ورد به الكتاب والأخبار الصحاح من أشراطها، وأهوالها، وما وعدنا به، وأوعدنا به فيها فهو حقٌّ، نؤمن به ونصدق الله سبحانه، ورسوله ﷺ فيما أخبر به عنه، كالحوض، والميزان، والصراط، وقراءة الكتب، والحساب، والسؤال، والعرض، والوقوف، والصدر عن المحشر إلى جنة أو إلى نار، مع الشفاعة الموعودة لأهل التوحيد، وغير ذلك، مما هو مبين في الكتاب، ومدون في الكتب الجامعة

لصحاح الأخبار.

ويشهد بذلك كله في الشاهدين، ويستعين بالله تبارك وتعالى في الثبات على هذه الشهادات إلى الممات، حتى يتوفى عليها، في جملة المسلمين، المؤمنين، الموقنين، الموحدين.

ويشهد أن الله تبارك وتعالى يمن على أوليائه بوجوه ناضرة، إلى ربها ناظرة، ويرونه عياناً في دار البقاء، لا يضارون في رؤيته، ولا يمارون، ولا يضامون، ويسأل الله تبارك وتعالى أن يجعل وجهه من تلك الوجوه، ويقيه كل بلاء، وسوء ومكروه، ويبلغه كل ما يؤمله من فضله، ويرجوه بمنه.

ويشهد أن خير الناس بعد رسول الله ﷺ أبو بكر الصديق، ثم عمر الفاروق، ثم عثمان بن عفان، ثم علي بن أبي طالب، رضي الله عنهم أجمعين، ويترحم على جميع الصحابة، ويتولاهم، ويستغفر لهم، وكذلك ذريته، وأزواجه أمهات المؤمنين، ويسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعله معهم، ويرجو أن يفعلَه به؛ فإنه قد صح عنده من طرق شتى أن رسول الله ﷺ، قال: «المرء مع من أحب».

ويوصي إلى من يخلفه من ولد، وأخ، وأهل، وقريب، وصديق، وجميع من يقبل وصيته من المسلمين عامة أن يشهدوا بجميع ما شهد به، وأن يتقوا الله حق تقاته، وألا يموتوا إلا وهم مسلمون ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾[1].

ويوصيهم بصلاح ذات البين، وصلة الأرحام، والإحسان إلى الجيران،

---

(١) سورة النحل: آية ١٢٨.

والأقارب، والإخوان، ومعرفة حق الأكابر، والرحمة على الأصاغر.

وينهاهم عن التدابر، والتباغض، والتقاطع والتحاسد.

ويأمرهم أن يكونوا إخواناً على الخيرات، أعواناً، وأن يعتصموا بحبل الله جميعاً ولا يتفرقوا، ويتبعوا الكتاب والسنة، وما كان عليه علماء الأمة. وأئمة الملة، كمالك بن أنس، والشافعي، وسفيان الثوري، وسفيان بن عيينة، وأحمد بن حنبل، وإسحاق بن إبراهيم، ويحيى بن يحيى، وغيرهم من أئمة المسلمين، وعلماء الدين، رضي الله عنهم أجمعين، وجمع بيننا وبينهم في ظل طوبى ومستراح العابدين.

أوصى بهذا كله إسماعيل بن عبدالرحمن الصابوني، إلى أولاده، وأهله، وأصحابه، ومختلفة مجالسه.

وأوصى أنه إذا نزلت به المنية، التي لا شك أنها نازلة، والله يسأل خير ذلك اليوم الذي تنزل المنية به فيه، وخير تلك الليلة التي تنزل به فيه، وخير تلك الساعة وخير ما قبلها، وخير ما بعدها، أن يُلبس لباساً طيباً، حسناً، طاهراً، نقياً، ويوضع على رأسه العمامة التي كان يشدها في حال حياته، وضعاً على الهيئة التي كان يضعها على رأسه أيام حياته، ويوضع الرداء على عاتقيه ويضجع مستلقياً على قفاه، موجها إلى القبلة، وتجلس أولاده عند رأسه، ويضعوا المصاحف على حجورهم، ويقرأوا القرآن جهراً، وحرج عليهم ألا يمكنوا امرأة لا قرابة بينه وبينها، ولا نسب، ولا سبب من طريق الزوجية تقرب من مضجعه تلك الساعة، أو تدخل بيتاً يكون فيه، وكذلك يُحرِّج عليهم أن يأذنوا لأحد من الرجال في الدخول عليه في تلك الساعة، بل

يأمرون الأخ، والأحباب، وغيرهم أن يجلسوا في المدرسة، ولا يدخلوا الدار، وليساعدوا الأصحاب في قراءة القرآن، وإمداده بالدعاء، فلعل الله سبحانه وتعالى أن يهون عليه سكرات الموت، ويسهل له اقتحام عقبة الموت على الإسلام والسنة، في سلامة وعافية.

وأوصى إذا قضى نحبه، وأجاب ربه، وفارقت روحه جسده، أن يشد ذقنه، وتغمض عيناه. وتمد أعضاؤه، ويسجى بثوب، ولا يكشف عن وجهه لنظر إليه، إلا أن يأتيه غاسله، فيحمله إلى مغتسله، جعل الله ذلك الحمل مباركاً عليه، ونظر بعين الرحمة إليه، وغفر له ما قدمه من الأعمال السيئة بين يديه.

وأوصى ألا يناح عليه وأن يمنع أولياؤه، وأقرباؤه وأحباؤه، وجميع الناس من الرجال والنساء أنفسهم عن الشق، والحلق، والتخريق للثياب، والتمزيق، وألا يبكوا عليه إلا بكاءَ حزن قلب، ودموع عين، لا يقدرون على ردهما، ودفعهما، وأما دعاءٌ بويل، ورن شيطان وخمش وجوه، وحلق شعر، ونتفه، وتخريق ثوب وتمزيقه، وفتقه فلا، وهو بريء ممن فعل شيئاً من ذلك، كما برئ النبي ﷺ منهم.

وأوصى أن يعجل تجهيزه، وغسله، وتكفينه، وحمله إلى حفرته، ولا يحبس؛ ولا يبطأ به، وإن مات ضحوة النهار، أو وقت الزوال، أو بكرة؛ فإنه لا يؤخر تجهيزه إلى الغد، ولا يترك ميتاً بين أهله بالليل أصلاً، بلا يعجل أمره، فينقل إلى حفرته نقلاً، بعد أن يغسل وتراً، ويجعل في آخر غسلة من

غسلاته كافور، ويكفن في ثلاثة أثواب بيض سحولية[١] إن وجدت، فإن لم توجد سحولية كفن في ثلاثة أثواب بيض، ليس فيها قميص، ولا عمامة، ويجمر كفنه وتراً، لا شفعاً قبل أن يلف عليه، ويسرع بالسير بجنازته، كما أمر به رسول الله ﷺ، ويحمل للصلاة عليه إلى ميدان الحسين، ويصلي عليه ولده أبو نصر، إن كان حاضراً، فإن عجز عن القيام بالصلاة لعيه، فأمر الصلاة عليه إلى أخيه أبي يعلى، ثم يرد إلى المدرسة، فيدفن فيها بين يدي والده الشهيد، رضي الله تعالى عنه، ويلحد له لحد، ويُنْصَب عليه اللبن نصباً، ولا يشق له، ولا يتخذ له تابوت أصلاً، ولا يوضع في التابوت للحمل إلى المصلى، وليوضع على الجنازة ملفوفاً في الكفن، مسجى بثوب أبيض، ليس فيه إبريسم[٢] بحال، ولا يطين قبره، ولا يجصص، ويرش عليه الماء، ويوضع عليه الحصا، ويمكث عند قبره مقدار ما ينحر جزور، ويقسم لحمه حتى يعلم ما يراجع به رسل ربه، جل وعلا، ويسأل الله تعالى على رأس قبره له التثبيت الموعود لجملة المؤمنين، في قوله تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ ﴾[٣] ويستغفر له، ولوالديه، ولجميع المؤمنين والمؤمنات، والمسلمين والمسلمات، ولا ينسى، بل يذكر بالدعاء؛ فإن المؤمن إذا قبر كان كالغريق المغتوت[٤]، ينتظر دعوة صالحة تلحقه، ولا يمكن أحد من الجواري، والنسوان أن يكشفن رءوسهن، وأن يندبنه في ذلك الوقت، بل يشتغل الكل بالدعاء والاستغفار، لعل الله سبحانه

(١) نسبة إلى السحول، وهو القصار، أو إلى سحول، وهي قرية باليمن.

(٢) الإبريسم: الحرير.

(٣) سورة إبراهيم: آية ٢٧.

(٤) المغتوت: المغموم. انظر لسان العرب: ٢/٦٣، مادة (غتّ).

وتعالى يهون عليه الأمر في ذلك الوقت، وييسر خروج منكر ونكير من قبره على الرضا منه، وينصرفان عنه، وقد قالا له: نم نومة العروس، فلا روعة عليك. ويفتحان في قبره باباً من الجنة، فضلاً من الله ومنة فيفوز فوزاً عظيماً، ويحوز ثواباً كريماً، ويلقى روحاً وريحاناً، ورباً كريماً رحيماً. آخر الوصية[١].

أبو الفتح البُستي

علي بن محمد، أديب زمانه، وواحد عصره.

[١٦١] **من نثره**: من أصلح فاسده، أرغم حاسده.

عادات السادات، سادات العادات.

لم يكن لنا طمع في دَرَك دَرِّك، فأعفنا من شَرَك شَرِّك[٢].

يا جهل من كان على السلطان مدلا، وللإخوان مذلا.

إذا صح ما قاتك، فلا تيأس على ما فاتك.

المعاشرة ترك المعاسرة.

من سعادة جدك، وقوفك عند حدك.

[١٦٢] ومن شعره:

كل الذنوب فإن الله يغفرها ... إن شيع المرءَ إخلاص وإيمان
وكل كسر فإن الله يجبره ... وما لكسر قناة الدين جبران

(١) «طبقات الشافعية الكبرى»: ٤/٢٧١-٢٩٢.

(٢) دَرَك: أي لحاق، دَرِّك: عطائك، الشرك: الفخ.

قلت: وهذا البيتان من كلمة طيبة لأبي الفتح، تسمى عنوان الحكم(١) مطلعها:

زيـادة المـرء في دنيـاه نقـصان ... وربحـه غـير محـض الخـير خـسران
وكـل وجـدان حـظٍ لا ثبـات لـه ... فـإن معنـاه في التحقيـق فقـدان
يـا عـامراً لخـراب الـدار مجتهـداً ... بـالله هـل لخـراب العمـر عمـران؟
ويا حريصاً على الأموال يجمعها ... أقـصر فـإن سـرور المـال أحـزان
دع الفـؤاد عـن الـدنيا وزخرفهـا ... فـصفوها كـدر والوصـل هجـران
وأرع سمعـك أمثـالاً أفـصلها ... كمـا يفـصل يـاقوت ومرجـان
أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم ... فطالمـا اسـتعبد الإنـسانَ إحـسان
وإن أساء مسيء فليكن لك في ... عـروض زلتـه صـفح وغفـران
واشدد يديك بحبل الله معتصماً ... فإنـه الـركن إن خانتـك أركـان
مـن اسـتعان بغـير الله في طلـب ... فـإن ناصـره عجـز وخـذلان
من جاد بالمال مال الناس قاطبة ... إليـه والمـال للإنـسان فتـان
من سالم الناس يسلم من غوائلهم ... وعـاش وهـو قريـر العـين جـذلان
والناس أعوان من واتته دولته ... وهـم عليـه إذا خانتـه أعـوان
يـا ظالمـاً فرحـاً بالـسعد سـاعده ... إن كنـت في سِنَةٍ فالـدهر يقظـان(٢)
لا تحـسبن سـروراً دائمـاً أبـداً ... مـن سـره زمـن سـاءته أزمـان

---

(١) قصيدة «عنوان الحكم» من أطول وأشهر ما نظم البستي، انظرها باعتناء الشيخ عبدالفتاح أبو غدة رحمه الله رحمة واسعة..

(٢) السِنة: النعاس، والمراد هنا: الغفلة.

لا تغتر بشباب رائق خضل ... فكم تقدم قبل الشيب شبان
ويا أخا الشيب لو ناصحت نفسك لم ... يكن لمثلك في اللذات إمعان
هب الشبيبة تبدى عذر صاحبها ... ما عذرُ أشيبَ يستهويه شيطان

مات في سنة إحدى وأربعمائة ببخارى[1].

نظام الملك

الحسن بن علي بن إسحاق الطوسي، أبو علي، الوزير الكبير، العالم العادل، الملقب نظام الملك.

دولته كلها فضل، وأيامه جميعها عدل، وإن قعد للمظالم أقام بالكتاب والسنة.

ولد نظام الملك سنة ٤٠٨هـ، وكان من أولاد الذين يعملون في البساتين بنواحي طوس[2]، فحفّظه أبوه القرآن، وشغله في التفقه على مذهب الشافعي.

[١٦٣] ثم خرج من عند أبيه إلى غزنة[3] وخدم في الديوان السلطاني، ورقت به الأحوال، وخدم في الدووابن بخراسان وغزنة، واختُص بأبي علي بن شاذان وزير السلطان ألب أرسلان، فلما حانت وفاة ابن شاذان أوصى

(١) «طبقات الشافعية الكبرى»: ٤/٢٩٣-٢٩٦.
(٢) وهي مشهد اليوم في إيران.
(٣) مدينة بأفغانستان اليوم.

ألب أرسلان به، وذكر له كفاءته وأمانته فنصّبه مكانه في الوزارة. ولم يزل السعد يخدمه، والأمور تجري على وفق مراده، واتفق في أيامه من محاسن الأفعال، ونشر العدل، وضبط الأحوال ما سارت به الركبان، وتناقلته الألسنة.

وأخذ في بناء المساجد، والمدارس، والرباطات، وفعل أصناف المعروف، وعظمت مكانته، وتزايدت هيبته.

وتوجه مع السلطان ملكشاه(١) إلى الغزاة ببلاد الروم.

مجالسه معمورة بالعلماء، مأهولة بالأئمة والزهاد.

[١٦٤] وكان من أخلاقه أنه ما جلس قط إلا على وضوء، ولا توضأ إلاّ وتنفل.

[١٦٥] ويقرأ القرآن، ولا يتلوه مستنداً إعظاماً له، ويستصحب المصحف معه أينما توجه.

[١٦٦] وإذا أذن المؤذن أمسك عن كل شغل هو فيه وأجابه.

[١٦٧] ويصوم يوم الإثنين والخميس.

[١٦٨] ولا يمنع أحداً يدخل عليه لا وقت الطعام ولا غيره إذا جلس.

[١٦٩] وهجمت امرأة عليه مرة وقت الطعام ومعها قضية، فزجرها بعض الحُجّاب فحانت منه التفاتة إليه فلقيه بالكلام الصعب، وقال: إنما أريدك وأمثالك لإيصال مثل هذه، وأما المحتَشِمون فهم يوصلون نفوسهم.

---

(١) أحد سلاطين السلاجقة.

[١٧٠] وبنى مدرسةً ببغداد، ومدرسة ببَلخ[١]، ومدرسة بنيسابور[٢]، ومدرسة بهراة[٣]، ومدرسة بأصبهان، ومدرسة بالبصرة، ومدرسة بمرو، ومدرسة بآمل طبرستان، ومدرسة بالموصل.

ويقال: إن له في كل مدينة بالعراق، وخراسان[٤] مدرسة، وله بيمارستان بنيسابور[٥]، ورباط ببغداد.

[١٧١] قلت: وشيخنا الذهبي زعم أنه أول من بنى المدارس، وليس كذلك، فقد كانت المدرسة البيهقية بنيسابور قبل أن يولد نظام الملك، والمدرسة السعدية بنيسابور أيضاً، بناها الأمير نصر بن سُبُكتِكِين، وقد أدرت فكري، وغلب على ظني أن نظام الملك أول من قَدَّر المعاليم للطلبة؛ فإنه لم يتضح لي، هل كانت المدارس قبله بمعاليم للطلبة أوْلا؟ والأظهر أنه لم يكن لهم معلوم.

[١٧٢] وحكى الأمير أبو نصر بن ماكولا، قال:

حضرت مجلس نظام الملك وقد رمى بعض أرباب الحوائج رقعة إليه، فوقعت على دواته، وكان مدادها كثيراً، فنال المداد عمامته، وثيابه فاسودت، فلم يقطب، ولم يتغير، ومد يده إلى الرقعة فأخذها، ووقع عليها، فتعجبت من حلمه، فحكيت لأستاذ داره، فقال: الذي جرى في بارحتنا أعجب، كان في نوبتنا أربعون فراشاً، فهبت ريح شديدة، ألقت

(١) مدينة في أفغانستان اليوم.

(٢) هي بلدة خربة اليوم في إيران.

(٣) بلدة في أفغانستان اليوم.

(٤) خراسان هي اليوم في إيران.

(٥) البيمارستان هو المستشفى.

التراب على بساطه الخاص، فالتمست أحدهم ليكنسه، فلم أجده، فاسودت الدنيا في عيني وقلت: أقل ما يجري صرفي وعقوبتهم، فأظهرت الغضب، فقال نظام الملك: لعل أسباباً لهم اتفقت منعتهم من الوقوف بين أيدينا، وما يخلو الإنسان من عذر ما نع، وشغل قاطع يصده عن تأدية الفرض، وما هم إلا بشر مثلنا، يألمون كما نألم، ويحتاجون إلى ما نحتاج إليه، وقد فضلنا الله عليهم، فلا نجعل شكر نعمته مؤاخذتهم على ذنب يسير.

قال: فعجبت من حلمه.

[١٧٣] استأذن نظام الملك السلطان ملكشاه في الحج فأذن له، وهو إذ ذاك ببغداد، وضُرِبت الخيام على شط دجلة، وإذ بباب الخيمة فقير[١] معه رقعة[٢] مطوية، فطلب من أحدهم أن يوصلها للوزير نظام الملك، فنظر الوزير فيها وبكى بكاءً شديداً.

ثم قال نظام الملك: أدخلوا عليّ صاحب هذه الرقعة.

قال عبدالله الساوجي -راوي القصة-: فخرجت فلم أجده، وطلبته فلم أظفر به، فأخبرت الوزير بذلك، فدفع إليّ الرقعة، فإذا فيها: رأيت النبي ﷺ، وقال لي: اذهب إلى الحسن، وقل له: أين تذهب إلى مكة! حجك ها هنا، أما قلت لك: «أقم بين يدي هذا التركي، وأعن أصحاب الحوائج من أمتي؟» فرجع نظام الملك.

وكان يقول: لو رأيت ذلك الفقير حتى أتبرك به.

---

(١) يعني من المتصوفة.

(٢) أي رسالة.

قال: فرأيته على شط دجلة، وهو يغسل خريقات له، فقلت له: إن الصاحب يطلبك.

فقال: ما لي وللصاحب، إنما كانت عندي أمانة فأديتها.

[١٧٤] وحكى الفقيه أبو القاسم، أخو نظام الملك، أنه كان عنده ليلة، على أحد جانبيه، والعميد خليفة على الجانب الآخر، وبجنبه فقير مقطوع اليمنى — أي يده اليمنى مقطوعة —.

قال: فشرَّفني الصاحب بالمواكلة، وجعل يلحظ العميد خليفة، كيف يلاحظ الفقير.

قال: فتنزَّه خليفة من مواكلة الفقير؛ لما رآه يأكل بيساره، فقال لخليفة: تحول إلى هذا الجانب. وقال للفقير: إن خليفة رجل كبير في نفسه، مستنكف من مواكلتك، فتقدم إليّ، وأخذ يواكله.

[١٧٥] حُكي أن الأستاذ أبا القاسم القشيري دخل عليه مرة فوجد بين يديه الجمدارية[١] قد اصطفت ميمنة وميسرة وكانوا ثمانين جمداراً مُلَبّسين أحسن الملابس، وكلهم مُرْد ملاح، فقطّب الأستاذ، ففهم نظام الملك أن الأستاذ أنكر هذه الحالة، فقال له: يا أستاذ: ما في هؤلاء المماليك الثمانين إلا مَن شراؤه فوق الثمانين ألفاً، ومع ذلك والله ما حللت سراويلي على حرام قط ولكن حرمة الوزارة والملك تقتضي هذا.

فهذه الحكاية تدل على أن له إما مائة وستين جمداراً إن كان يعمل نوبتين أو أكثر إن كان أكثر من نوبتين، وإن كان هذا عدد الجمدارية — وهم

---

(١) هم الذين يشرفون على الملابس السلطانية وغيرها من المتعلقات الشخصية.

عبارة عن مماليك مردان يكونون مع الملوك في غالب أحوالهم – فما يكون عدد مماليكه الذين يعدهم للحرب، وكل ذلك خارج عن أجناده المجندة.

وقد كانت حالته تقتضي أكثر من ذلك؛ فإنه مكث في الوزارة ثلاثين سنة، ولم تكن وزارته وزارة بل فوق السلطنة، فإن السلطان جلال الدولة ملكشاه بن ألب أرسلان اتسعت ممالكه، فمملكته من كاشغر – وهي أقصى مدائن الترك[1] – إلى بيت المقدس طولاً، ومن قرب قسطنطينية إلى بحر الهند عرضاً، ومع ذلك لم يكن لملكشاه مع نظام الملك غير الاسم والأبهة، والتنوع في اللذات؛ فقد كان مشغولاً بالصيد واللذة، ونظام الملك هو الآمر المتصرف، لا يجري جليل ولا حقير إلا بأمره، مستبداً بذلك.

[١٧٦] وحُكي عنه أنه كان بهمذان، وقدم عليه ابنه مؤيد الملك من بلخ، فإنه كان استقدمه لينفذه إلى بغداد حين زوجه، فدخل عليه ووقف بين يديه ساعة، وقضى للناس حوائجهم، فلما أذن المؤذن لصلاة الظهر، وتفرق الناس نظر إلى ابنه، واستدناه فجعل يقبل الأرض ويدنو، فضمه إليه، وقبل بين عينيه، وقال له: يا بني، توجه إلى بيتك إلى بغداد، في ساعتك هذه. فودعه، وقبل يده وسار من ساعته.

[١٧٧] والتفت نظام الملك إلى من عنده، وقد تغرغرت عينه بالدموع، وقال: إن عيش أحد البقالين أصلح من عيشي، يخرج إلى دكانه غدوة ويروح عشية، ومعه ما قسم له من الرزق، فيجتمع هو وأولاده على طعامه، ويسر بقربهم منه، وحضورهم معه، وهذا ولدي، ما رأيته منذ ولد، غير أوقات يسيرة، وقد نشأ هذا المنشأ، وما يظهر عليّ ما عندي من الحنو والشفقة،

---

(١) هي اليوم في الصين، عجل الله ردها.

فنهاري بين أخطار، وتكلف، ومشاق، وليلي بين سهر وفكر، تارة لتدبير الممالك والبلدان، ومن أرتب في كل صُقْع ومكان، وما يخرج لكل واحد من العطاء، والإحسان، وكيف أرضي هذا السلطان حتى يميل إلي، ولا يتغير علي، وبأي أمر أدفع شر من يقصدني، فمتى يكون لي زمان ألتذ فيه بنعمتي، واستدرك أفعالي بما ينفعني عند لقاء ربي، وبكى بكاء شديداً.

[١٧٨] **ومن الفوائد عن نظام الملك**: دخل أبو علي القومساني على نظام الملك في مرضة مرضها يعوده فأنشأ يقول:

إذا مرضنا نوينا كل صالحة ... فإن شفينا فمنا الزيغ والزلل
نرجو الإله إذا خفنا ونسخطه ... إذا أمنا فما يزكو لنا عمل

فبكى نظام الملك، وقال: هو كما يقول.

وتوفي مقبَولا شهيداً في رمضان سنة خمس وثمانين وأربعمائة[١].

أبو المظفر ابن السمعاني

منصور بن محمد بن عبدالجبار الحنفي الشافعي، أحد أئمة الدنيا، توفى سنة تسع وثمانين وأربعمائة بمرو.

[من المسائل والفوائد عن أبي المظفر ومستحسن كلامه]:

[١٧٩] ونفتتح بدعائه في خطبة كتابه «الاصطلام»[٢] قال:

---

(١)«طبقات الشافعية الكبرى»: ٤/٣٠٩-٣٢٨.

(٢)كتاب «الاصطلام» للسمعاني، رد فيه على أبي زيد الدبوسي.

اللهم اجعل صدري خزانة توحيدك، ولساني مفتاح تمجيدك، وجوارحي خدم طاعتك، فإنه لا عز إلا في الذل لك، ولا غنى إلا في الفقر إليك، ولا أمن إلا في الخوف منك، ولا قرار إلا في القلق نحوك، ولا روح إلا في النظر إلى وجهك، ولا راحة إلا في الرضا بقسمك، ولا عيش إلا في جوار المقربين عندك.

[١٨٠] وقال في «باب الربا» في مسألة أن العلة الطعم: الفقه صعب مرامه، شديد مراسه، لا يعطي مقاده لكل أحد، ولا ينساق لكل طالب، ولا يلين في كل حديد، بل لا يلين إلا لمن أيد بنور الله، في بصره وبصيرته، ولطف منه، في عقيدته وسريرته، وعندي أن الفقه أولى بهذا النظر من النحو، حيث قال قائلهم:

النحو صعب وطويل سُلمه ... إذا ارتقى فيه الذي لا يعلمه
زل إلى الحضيض منه قدمه ... يريد أن يعربه فيعجمه[١]

أبو الحسن البغدادي، الحمّال

رافع بن نصر. كان فقيهاً، متكلماً.

قال هيّاج بن عبيد: كان لرافع الحمّال في الزهد قدم، وإنما تفقه أبو الحسن رافع على أبي إسحاق الشيرازي.

[١٨١] ومن شعره يقول:

اقطع الآمال عن فضـ ... ـل بني آدم طرا
أنت ما استغنيت عن مثـ ... ـلك أعلا الناس قدراً

(١) «طبقات الشافعية الكبرى»: ٥/٣٣٥-٣٤٦.

توجه إلى مكة، وأقام بها إلى حين وفاته يتعبد، ويفيد، ويفتي.

توفى بها، سنة سبع وأربعين وأربعمائة.

[١٨٢] أخبرنا أبو الحسين أحمد بن عبدالقادر بن محمد بن يوسف، قال: سمعتُ رافعاً الحمّال البغدادي، الفقيه، ونحن نطوف بالبيت، يقول: سمعت بكراً الواعظ، يقول وقد سئل: أيهما أفضل، محمد أو موسى؟

فقال: محمد.

فقيل له: فما الدليل على ذلك؟

فقال: إنه تعالى أدخل بينه وبين موسى لام المِلْك، فقال: ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾(١) وقال لمحمد: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾(٢) فَفَرْق بين من أقام وصفه بوصفه، ومن أقامهُ مقام نفسه(٣).

ابن القزويني

أبو الحسن، علي بن عمر بن محمد الحربي.

أحد أولياء الله المكاشفين بالأسرار، المتكلمين على الخواطر.

تفقه على الدَّاركي.

[١٨٣] قال الخطيب:

كتبنا عنه، وكان أحد الزهاد المذكورين، ومن عباد الله الصالحين، يقرأ القرآن، ويروى الحديث، ولا يخرج من بيته إلا للصلاة، وكان وافر العقل

---

(١) سورة طه: آية ٤١.

(٢) سورة الفتح: آية ١٠.

(٣)«طبقات الشافعية الكبرى»: ٤/٣٧٧-٣٧٨.

صحيح الرأي، رحمة الله عليه، قال لي: ولدت سنة ستين وثلاثمائة.

وله مجالس مشهورة يرويها النجيب الحراني.

وقد أطال الشيخ أبو عمرو بن الصلاح ترجمة هذا الشيخ في كتابه، ليس في كتابه ترجمة أطول منها.

فمنه أن جميع الناس في عصره أجمعوا مع اختلاف آرائهم وتشعب أنحائهم على حسن معتقد هذا الشيخ وزهده وورعه.

[١٨٤] عن ابن القزويني أنه سمع الشاة تذكر الله تعالى، سمعها تقول: لا إله إلا الله، وكان جالساً في منزله يتوضأ لصلاة العصر، فقال لأهل داره: لا تخرج هذه الشاة غداً إلى الرعي، فأصبحت ميتة.

[١٨٥] وعن بعضهم: مضيت لزيارة قبر ابن القزويني، فخطر لي ما يذكر الناس من الكرامات، فقلت: ترى إيش منزلته عند الله تعالى؟ وعلى قبره مصاحف فحدثتني نفسي بأخذ واحد منها وفتحه، فأي شيء كان في أول ورقة من القرآن، ففتحته فكان في أول ورقة منه: ﴿وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾(١).

[١٨٦] قال أبو محمد الدهان اللغوي:

كنت ممن يقرأ على ابن القزويني فقلت يوماً في نفسي: أريد أن أسأله من أي شيء يأكل، وأسأله أن يطعمني منه، فلما جلست بين يديه قرأت ثم هممت أن أساله، فلحقني له هيبةٌ عظيمة فنهضت فأمرني بالجلوس،

(١) سورة آل عمران: آية ٤٥.

فجلست إلى أن فرغ من الإقراء، ثم قال: بسم الله، فقمت معه فأدخلني داره، وأخرج إلى رغيفين سميدا، وبينهما عدس، ورغيفين وبينهما تمر أو تين، وقال: كل، فمن هذا نأكل.

[١٨٧] وعن القاضي الماوردي:

صليت يوماً خلف ابن القزويني، فرأيت عليه قميصاً أنقى ما يكون من الثياب، وهو مطرز، فقلت في نفسي، أين الطرز من الزهد؟ فلما قضى صلاته قال: سبحان الله الطرز لا ينقص أحكام الزهد، الطرز لا ينقص أحكام الزهد، مرتين أو ثلاثاً.

[١٨٨] وعن أبي بكر محمد بن الحسين القزاز قال:

كان ينزل بنهر طابق رجل صالح زاهد، على طريقة حسنة، يلبس الصوف ويأكل الشعير بالملح الجريش، وكان يبلغه أن ابن القزويني يأكل طيب الطعام، ويلبس رقيق الثياب، فقال: يا سبحان الله! رجلٌ زاهد مجمع على زهده لا يختلف فيه اثنان؛ يأكل هذا المأكول، ويلبس هذا الملبوس! أشتهي أن أراه، فجاء إلى الحربية، فدخل مسجد القزويني وهو في منزله، ثم إنه خرج، فأذن ودخل المسجد، وفيه ذلك الرجل وجماعة غيره، فقال القزويني: سبحان الله! رجل يومأ إليه بالزهد والورع، يعارض الله في أفعاله أو فيما يجري فيه عبيده - مرتين أو ثلاثاً- وما هاهنا محرم ولا منكر، بحمد الله، فطفق ذلك الرجل يتشاهق، ويبكي بكاءً شديداً، والجماعة ينظرون إليه، لا يدرون ما الخبر، وصلى القزويني الظهر، فلما فرغ من صلاته خرج الرجل من المسجد يهرول حافياً، إلى أن خرج من الحربية. فلما قضى القزويني ركوعه التفت إلى أبي طالب، فقال له: بين الحربية والمشهد حائط وضع ليكون سوراً

وماتّمّ، تمضي إليه وتحمل هذا المداس معك، وتقول لذلك الشخص الجالس عليه: لا يكون لك عودة، أو كما قال.

قال أبو طالب: ووالله ما أعلم أن ثم حائطاً غير متموم - كذا قال، والصواب مُتَمّم - ولا رأيته قط، فإذا الرجل بعينه جالسٌ على الحائط يبكي ويتشاهق، فوضعت المداس بين يديه، وانصرفت.

[١٨٩] وقال أبو نصر بن الصباغ رحمه الله:

حضرت القزويني يوماً، ودخل عليه أبو بكر ابن الرحبي، فقال له: أيها الشيخ، أي شيء أمرتني نفسي أخالفها؟ فقال له: إن كنت مريداً فنعم، وإن كنت عارفاً فلا، فلما انكفأت من عنده فكرت في قوله، وكأنني لم أصوبه، فرأيت تلك الليلة في منامي شيئاً أزعجني، وكأن قائلاً يقول لي: هذا بسبب القزويني، يعني لما أخذت في نفسك عليه، أو كما قال.

قال ابن الصلاح: ذلك لأن العارف ملك نفسه فأمن عليها من أن تدعوه إلى محذور، بخلاف المريد؛ فإن نفسه بحالها، أمارةٌ بالسوء، فليخالفها كذلك.

[١٩٠] وعن محمد بن هبة الله، خادم ابن القزويني:

صليت ليلة مع ابن القزويني صلاة عشاء الآخرة، فأمسى في ركوعه، ولم يبق في المسجد غيري وغيره، فلما قضى صلاته أخذت القنديل بين يديه، ومشينا، فرأيته قد عبر منزله، فمشيت بين يديه، فخرج من الحربية وأنا معه، وقد صلى في مسجدها الآخر ركعتين، فلم أعقل بشيء إذا أنا بموضع أطوف

به مع جماعة خلفه، حتى مضى هويٌّ[١] من الليل، ثم أخذ بيدي وقال لي: بسم الله، ومشيت معه، فلم أعقل بشيء إلا وأنا على باب الحربية، فدخلناها قبل الفجر، فسألته وأقسمت عليه: أين كنا؟ فقال لي: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾[٢] ذلك البيت الحرام أو بيت المقدس، راوي الحكاية يشك.

قال النووي: أمسى في ركوعه: يعني صلاته، والصلاة تسمى ركوعاً. قال: ولفظ الطواف يدل على أنه البيت الحرام؛ فإن الطواف لا يشرع لغيره.

قلت: عبارته «أطوف به» فيحتمل أن يريد الطواف الشرعي، ويحتمل أن يريد أن يدور في جوانبه؛ فلا يتعين أن يكون هو الطواف الشرعي حتى يتعين أن يكون هو البيت الحرام.

ثم ساق جامع فضائل القزويني حكايات كثيرة، تدل على أن الله تعالى أكرمه بهذه المنقبة، وهي طي الأرض له.

[١٩١] وعن أبي نصر عبدالملك بن الحسين الدلال، قال:

كنت أقرأ على أبي طاهر بن فضلان المقري، وكنت إذا ذاك اقرأ على أبي الحسن بن القزويني، فقال لي ابن فضلان يوماً، وقد جرى ذكر كرامات القزويني: لا تعتقد أن أحداً يعلم ما في قلبك، فخرجت من عنده إلى ابن القزويني فقال: سبحان الله مقاومة معارضة، رُوي عن النبي ﷺ أنه قال: «إن تحت العرش ريحاً هفافة تهب إلى قلوب العارفين»[٣]. وروى عن النبي

---

(١) أي الحين الطويل من الزمان.

(٢) سورة الزخرف: آية ٥٩.

(٣) قلت: لا يصح هذا حديثاً.

ﷺ أنه قال: «قد كان فيمن خلا قبلكم ناس محدثون؛ فإن يكن في أمتي فعمر بن الخطاب».

[١٩٢] وعن بعضهم: أصبحت يوماً لا أملك شيئاً، فقلت في نفسي: أشتهى أن أجد الساعة في وسط الحربية ديناراً أعود به على عيالي، ومشيت فوافيت القزويني يخرج من منزله، فصاح بي، فجئت إليه فقال لي: أما علمت أن اللقطة إذا لم تعرّف فهي حرام، وأخرج لي ديناراً فوضعه في كفي، وقال: خذه حلالاً.

[١٩٣] وعن آخر: دخلت مسجده وقد حُمل إليه تفاح ومشمش كثيرٌ جداً، وهو يفرق على ضعفاء الحربية، فكأنني استكثرته وقلت في نفسي: قد بقي في الناس لله بعد شيءٌ! فرفع القزويني رأسه إليّ في الحال، وقال: سبحان الله! يستكثر لله شيء؟ لو رأيتم ما ينفق في معاصي الله!

[١٩٤] وعن بعضهم: أصابني ريح المفاصل حتى رُميت لأجلها، فأمَرّ القزويني يده من وراء كمه عليها، فقمت من ساعتي معافى.

وذكر ابن الصلاح كرامات أخر كثيرة، حذفتها اختصاراً لدلالة ما ذكرناه عليها؛ لكونها من نوعه.

مات ابن القزويني في ليلة الأحد لخمس خلون من شعبان، سنة اثنتين وأربعين وأربعمائة.

[ومن الفوائد عنه]

[١٩٥] عن الشيخ أبي نصر بن الصباغ الفقيه، رحمه الله: حضرت

القزويني للسلام عليه، فقلت في نفسي: قد حُكي له أنني أشعري، فربما رأيت منه في ذلك شيئاً، فلما جلست بين يديه، قال لي: لا نقول إلا خيراً، لا نقول إلا خيراً، مرتين أو ثلاثاً، ثم التفت إليَّ وقال لي: من صلى على جنازة فله قيراط، ومن تبعها حتى تدفن فله قيراطان، مع القيراط أو غير القيراط.

قال: قلت: مع القيراط.

قال: جيدٌ بالغ.

ونهض فدخل مسجده، وطالبني أهل المسجد بالدليل، فقلت لهم: في القرآن مثله، قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾[١] مع اليومين.

قلت:

ونظير هذا قوله ﷺ: «من صلى في جماعة فكأنما قام نصف الليل، ومن صلى الصبح في جماعة فكأنما قام الليل كله».

وقد اختلف فيمن صلاها[٢] جماعة، هل يكون كمن قام ليلة ونصف ليلة؟ والأرجح: لا يكون.

[١٩٦] قال أبو طاهر بن جحشويه:

أردت سفراً وكنت خائفاً منه، فدخلت إلى القزويني أسأله الدعاء،

---

(١) سورة فصلت: آية ٩-١٠.

(٢) قلت: كذا وردت ولعلها: صلاهما، وفي المطبوعة «بجماعة»..

فقال ابتداء: من أراد سفر ففزع من عدو أو وحش، فليقرأ: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾[١] فإنها أمان من كل سوء، فقرأتها، فلم يعرض لي عارض حتى الآن[٢].

الطالقاني

أحمد بن إسماعيل بن يوسف، أبو الخير، القزويني، الطالقاني.

الشيخ، الإمام، الفقيه، الملقب رضي الدين، ولد في سنة ٥١٢هـ بقزوين.

دَرّس ببلده مدة، ثم ببغداد، ثم عاد إلى بلده، ثم عاد إلى بغداد، ودرَّس بالنظامية.

وحدَّث بكبار الكتب، كـ «تاريخ الحاكم»، و«سنن البيهقي»، و«صحيح مسلم»، و«مسند إسحاق» وغيرها.

وأملى عدة مجالس.

قال ابن النجار: كان رئيس أصحاب الشافعي، وكان إماماً في المذهب، والخلاف، والأصول، والتفسير، والوعظ، والزهد.

وحدَّث عنه الإمام الرافعي في «أماليه».

وقال فيه: إمام كثير الخير، موفر الحظ من علوم الشرع؛ حفظاً،

---

(١) سورة قريش: آية ١.

(٢)«طبقات الشافعية الكبرى»: ٥/٢٦٠-٢٦٦.

وجمعاً، ونشراً، بالتعليم والتذكير والتصنيف، وكان لسانه لا يزال رطباً من ذكر الله، ومن تلاوة القرآن، وربما قُرئ عليه الحديث، وهو يصلي، ويصغي إلى ما يقول القارئ، وينبهه إذا زل.

[١٩٧] وروى بإسناده حكاية مبسوطة، ذكر أنه عرَّبها من العجمي إلى العربية، حاصلها أن الطالقاني حكى عن نفسه أنه كان بليد الذهن في الحفظ، وأنه كان عند الإمام محمد بن يحيى في المدرسة، وكان من عادة ابن يحيى أن يستعرض الفقهاء كل جمعة، ويأخذ عليهم ما حفظوه، فمن وجده مقصراً أخرجه، فوجد الطالقاني مقصراً، فأخرجه، فخرج في الليل، وهو لا يدري إلى أين يذهب، فنام في أتون حمام، فرأى النبي ﷺ، فتفل في فمه مرتين، وأمره بالعود إلى المدرسة، فعاد، ووجد الماضي محفوظاً، واحتد ذهنه جداً.

قال: فلما كان يوم الجمعة، وكان من عادة الإمام محمد بن يحيى أن يمضي إلى صلاة الجمعة في جمع من طلبته، فيصلى عند الشيخ عبدالرحمن الأكاف الزاهد.

قال: فمضيت معه، فلما جلس مع الشيخ عبدالرحمن تكلم الشيخ عبدالرحمن في شيء من مسائل الخلاف، والجماعة ساكتون تأدباً معه، وأنا لصغر سني وحدَّة ذهني أعترض عليه، وأنازعه، والفقهاء يشيرون إليَّ بالإمساك، وأنا لا ألتفت.

فقال لهم الشيخ عبدالرحمن: دعوه فإن هذا الكلام الذي يقوله ليس هو منه، إنما هو من الذي علمه.

قال: ولم يعلم الجماعة ما أراد، وفهمت أنا، وعلمت أنه مكاشف.

قال ابن النجار: وقيل: إنه كان مع كثرة اشتغاله يداوم الصيام ويفطر كل ليلة على قرص واحد[١].

السِّلَفيّ

أحمد بن محمد بن أحمد، أبو طاهر السِّلَفيّ، الأصبهانيّ، الجَرْوآنيّ.

الحافظ الكبير، واسع الرحلة، كان ديناً، ورعاً، انتهى إليه علو الإسناد كأنه شعلة نار في تحصيل الحديث.

قال الذهبي: لا أعلم أحداً في الدنيا حدث نيفاً وثمانين سنة سوى السِّلَفي.

[١٩٨] قال الرهاوي:

بلغني أن سلطان مصر[٢] حضر عنده للسماع، فجعل يتحدث مع أخيه، فزبرهما، وقال: ايش هذا! نحن نقرأ الحديث، وأنتما تتحدثان.

[١٩٩] قال: وبلغني أنه في مدة مقامه بالإسكندرية، وهي أربع وستون سنة، ما خرج إلى بستان ولا فُرجة غير مرة واحدة، بل كان عامة دهره ملازماً مدرسته، وما كنا نكاد ندخل عليه إلا نراه مطالعاً في شيء.

وكان حليماً، متحملاً كِفاء الغرباء.

وقد سمعت بعض فضلاء همذان يقول: السلفي أحفظ الحفاظ.

---

(١) «طبقات الشافعية الكبرى»: (٦/٧-١٣).

(٢) هو صلاح الدين الأيوبي رحمه الله تعالى.

[٢٠٠] قال عبدالقادر: وكان آمراً بالمعروف، ناهياً عن المنكر، أزال من جواره منكرات كثيرة.

[٢٠١]وجاء جماعة من المقرئين بالألحان، فأرادوا أن يقرأوا، فمنعهم من ذلك، وقال: هذه القراءة بدعة، بل اقرأوا ترتيلاً. فقرأوا كما أمرهم.

[٢٠٢] قلت: القراءة بالألحان جائزة مالم يفرط بحيث يزيد حرفاً أو ينقص حرفاً.

وقال ابن نقطة في السلفى: كان حافظاً، ثقة، جوالاً في الآفاق، سأْلاً عن أحوال الرجال، شجاعاً.

[٢٠٣] ويحكى عن السلفيّ أنه كان إذا اشتد الطلق بامرأة جاء أهلها إليه، فكتب لهم ورقة تعلق عليها، فتخلص بإذن الله تعالى، ولا يعلم ما يكتب فيها، ثم كشف عن ذلك، فإذا هو يكتب فيها: اللهم إنهم ظنوا بنا خيراً فلا تخيبنا، ولا تُكذِّب ظنهم.

[٢٠٤] وكان السلفيّ مُغرىً بجمع الكتب: حصل منها الكثير، وكتب بخطهِ لاسيما من الأجزاءِ مالا يعد كثرة.

ومن شعره رحمه الله تعالى:

قال السخاوي: سمعت أبا طاهر السلفي يوماً ينشد لنفسه شعراً قاله قديماً وهو:

أنا من أهل الحديث ... وهم خير فئة

جزت تسعين وأرجو ... أن أجوزن المائة

فقيل له: قد حقق الله رجاك.

فعلمت أنه قد جاوز المائة، وذلك في سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة[1].

الغزالـــي

محمد بن محمد بن محمد، أبو حامد، الغَزَّاليّ.

حجة الإسلام، جامع أشتات العلوم، ولد بطوس[2] سنة ٤٥٠ ومضى إلى رحمة الله سنة ٥٠٥هـ، ولم يعقب إلا البنات.

وكان والده يغزل الصوف ويبيعه.

قال ابن النجار:

[٢٠٥] إمام الفقهاء على الإطلاق، ورباني الأمة بالاتفاق، ومجتهد زمانه، وعين وقته وأوانه، من شاع ذكره في البلاد، واشتهر فضله بين العباد، واتفقت الطوائف على تبجيله، وتعظيمه، وتوقيره، وتكريمه، وخافه المخالفون، وانقهر بحججه وأدلته المناظرون، وظهرت بتنقيحاته فضائح المبتدعة والمخالفين، وقام بنصر السنة، وإظهار الدين، وسارت مصنفاته في الدنيا مسير الشمس في البهجة والجمال، وشهدله المخالف والموافق بالتقدم والكمال. انتهى.

وفي كلام المترجمين كثرةٌ، فلا نطيل، ففيما ذكرناه مقنع وبلاغ.

ذكر بقايا من ترجمته، رضي الله عنه:

قال ابن السمعاني:

---

(١) «طبقات الشافعية الكبرى»: ٦/٣٢-٤٤.

(٢) وهي اليوم بلدة مشهد بإيران.

قرأت في كتاب كتبه الغزالي، إلى أبي حامد بن أحمد بن سلامة، بالموصل، فقال في خلال فصوله:

[٢٠٦] أما الوعظ فلست أرى نفسي أهلاً له؛ لأن الوعظ زكاة نصابه الاتعاظ، فمن لا نصاب له كيف يخرج الزكاة؟ وفاقد الثوب كيف يستر به غيره، ومتى يستقيم الظل والعود أعوج؟ وقد أوحى الله تعالى إلى عيسى ابن مريم عليه السلام: عظ نفسك؛ فإن اتعظت فعظ الناس، وإلا فاستحي مني.

[٢٠٧] وقال أيضاً: سمعت أبا سعيد محمد بن أسعد بن محمد بن الخليل النوقاني، بمرو، مذاكرة، في دارنا، يقول: حضرت درس الإمام أبي حامد الغزالي لكتاب «إحياء علوم الدين»، فأنشد:

وحبب أوطانَ الرجال إليهم مآربُ قضاها الفؤاد هنالكا
إذا ذكروا أوطانهم ذكّرتهم عهود الصبا فيها فحنوا لذالكا

قال: فبكى، وأبكى الحاضرين.

[٢٠٨] وقال أبو عبدالله محمد بن يحيى بن عبدالمنعم العبدري، المؤذن: رأيت بالإسكندرية، في سنة خمسمائة، في إحدى شهري المحرم، أو صفر، فيما يرى النائم، كأن الشمس طلعت من مغربها، فعبر ذلك بعض المعبرين ببدعةٍ تحدث فيهم، فبعد أيام وصلت المراكب بإحراق كتب الإمام أبي حامد الغزالي بالمرية[1].

[٢٠٩] وكان في زماننا شخص يكره الغزالي ويذمه ويستعيبه في الديار المصرية فرأى النبي ﷺ في المنام، وأبا بكر، وعمر، رضي الله عنهما،

(١) المرية: مدينة كبيرة، من أعمال الأندلس.

بجانبه، والغزالي، جالس بين يديه، وهو يقول: يا رسول الله، هذا يتكلم في، وأن النبي ﷺ، قال: هاتوا السياط، وأمر به، فضُرب لأجل الغزالي، وقام هذا الرجل من النوم، وأثر السياط على ظهره، ولم يزل، وكان يبكي ويحكيه للناس.

[٢١٠] وحكى لي بعض الفقهاء أهل الخير بالديار المصرية، أن شخصاً تكلم في الغزالي في درس الشافعي وسبه، فحمل هذا الحاكي من ذلك هماً مفرطاً، وبات تلك الليلة، فرأى الغزالي في النوم، فذكر له ما وجد من ذلك، فقال: لا تحمل هماً، غداً يموت.

فلما أصبح توجه إلى درس الشافعي، فوجد ذلك الفقيه قد حضر طيباً في عافية، ثم خرج من الدرس، فلم يصل إلى بيته إلا وقد وقع من على الدابة، ودخل بيته في حال التلف، وتوفي آخر ذلك النهار.

[٢١١] ومما يعد من كرامات الغزالي أيضاً، أن السلطان علي بن يوسف بن تاشفين، صاحب المغرب، الملقب بأمير المسلمين، وكان أميراً عادلاً، نزهاً، فاضلاً، عارفاً بمذهب مالك، خُيِّل إليه لما دخلت مصنفات الغزالي إلى المغرب أنها مشتملة على الفلسفة المحضة.

وكان المذكور يكره هذه العلوم، فأمر بإحراق كتب الغزالي، وتوعد بالقتل من وجد عنده شيء منها، فاختلت حاله وظهرت في بلاده منا كير كثيرة، وقويت عليه الجند، وعلم من نفسه العجز، بحيث كان يدعو الله بأن يقيض للمسلمين سلطاناً يقوى على أمرهم، وقوي عليه عبدالمؤمن بن علي[1].

---

(١) سلطان الموحدين.

ولم يزل من حين فعل بكتب الغزالي ما فعل في عكس ونكد إلى أن توفي.

[٢١٢] قال الشيخ الإمام الأوحد زين القُراء جمال الحرم أبو الفتح عامر بن نجا بن عامر العربي الساوي، بمكة المكرمة، حرسها الله:

دخلت المسجد الحرام، يوم الأحد، فيما بين الظهر والعصر، الرابع عشر، من شوال، سنة خمس وأربعين وخمسمائة، وكان بي نوعا تكسُّر ودوران رأس، بحيث إني لا أقدر أن أقف أو أجلس، لشدة ما بي، فكنت أطلب موضعاً أستريح فيه ساعة على جنبي، فرأيت باب بيت الجماعة، للرباط الرامشتي عند باب الحزورة[1] مفتوحاً، فقصدته، ودخلت فيه، ووقعت على جنبي الأيمن، بحذاء الكعبة المشرفة، مفترشاً يديَّ تحت خدي، لكي لا يأخذني النوم، فتنتقض طهارتي، فإذا رجل من أهل البدعة، معروف بها[2]، جاء ونشر مصلاه على باب ذلك البيت، وأخرج لويحاً من جيبه، أظنه كان من الحجر، وعليه كتابة فقبله، ووضعه بين يديه وصلى صلاة طويلة، مرسلاً يديه فيها، على عادتهم، وكان يسجد على ذلك اللويح في كل مرة، وإذا فرغ من صلاته سجد عليه، وأطال فيه، وكان يمعك خده من الجانبين عليه ويتضرع في الدعاء، ثم رفع رأسه، وقبله، ووضعه على عينيه، ثم قبله ثانياً، وأدخله في جيبه، كما كان.

قال: فلما رأيت ذلك كرهته، واستوحشت منه ذلك، وقلت في

(١) قلت: هي سوق مكة.

(٢) أي من الرافضة.

نفسي: ليت كان رسول الله ﷺ حياً فيما بيننا؛ ليخبرهم بسوء صنيعهم، وما هم عليه من البدعة.

ومع هذا التفكر كنت أطرد النوم على نفسي، كي لا يأخذني، فتفسد طهارتي.

فبينا أنا كذلك، إذ طرأ عليَّ النعاس، وغلبني، فكأني بين اليقظة والمنام، فرأيت عرصة واسعة، فيها ناسٌ كثيرون، واقفون وفي يد كل واحد منهم كتاب مجلد، وقد تحلقوا كلهم على شخص، فسألت الناس عن حالهم، وعمن في الحلقة، فقالوا: هو رسول الله ﷺ، وهؤلاء أصحاب المذاهب يريدون أن يقرأوا مذاهبهم، واعتقادهم من كتبهم، على رسول الله ﷺ، ويصححوها عليه.

قال: فبينا أن كذلك، انظر إلى القوم، إذ جاء واحد من أهل الحلقة، وبيده كتاب. قيل: إن هذا هو الشافعي، رضي الله عنه، فدخل في وسط الحلقة، وسلم على رسول الله ﷺ.

قال: فرأيت رسول الله ﷺ في جماله وكماله، متلبساً بالثياب البيض المغسولة النظيفة، من العمامة والقميص، وسائر الثياب، على زيٍّ أهل التصوف.

فرد عليه الجواب، ورحب به، وقعد الشافعي بين يديه، وقرأ من الكتاب مذهبه واعتقاده عليه.

وبعد ذلك جاء شخصٌ آخر، قيل: هو أبو حنيفة، رضي الله عنه، وبيده كتاب، فسلّم وقعد بجنب الشافعي، وقرأ من الكتاب مذهبه واعتقاده عليه.

ثم أتى بعده كل صاحب مذهب، إلى أن لم يبق إلا القليل، وكل من يقرأ يقعد بجنب الآخر.

فلما فرغوا، إذا واحدٌ من المبتدعة الملقبة بالرافضة، قد جاء وفي يده كراريس غير مجلدة، فيها ذكر عقائدهم الباطلة، وهم أن يدخل الحلقة، ويقرأها على رسول الله ﷺ، فخرج واحد ممن كان مع رسول الله ﷺ إليه، وزجره، وأخذ بالكراريس من يده، ورمى بها إلى خارج الحلقة، وطرده وأهانه.

قال: فلما رأيت أن القوم قد فرغوا، وما بقي أحدٌ يقرأ عليه شيئاً، تقدمت قليلاً، وكان في يدي كتاب مجلد، فناديت، وقلت: يا رسول الله، هذا الكتاب معتقدي، ومعتقد أهل السنة، لو أذنت لي حتى أقرأه عليك؟

فقال رسول الله ﷺ، وأي شيء ذاك؟

قلت: يا رسول الله، هو «قواعد العقائد» الذي صنفه الغزالي.

فأذن لي بالقراءة، فقعدت، وابتدأت: بسم الله الرحمن الرحيم، كتاب قواعد العقائد، وفيه أربعة فصول:

الفصل الأول في ترجمة عقيدة أهل السنة، في كلمتي الشهادة، التي هي أحد مباني الإسلام[1].

"معنى الكلمة الثانية، وهي شهادة الرسول ﷺ "

وأنه تعالى بعث النبي الأميَّ القرشي، محمداً ﷺ، برسالته، إلى كافة العرب، والعجم، والجن، والإنس.

---

(١) قلت: حذفت تجنباً للإطالة – الفصل الأول- .

قال: فلما بلغت إلى هذا رأيت البشاشة والبشر في وجهه ﷺ إذ انتهيتُ إلى نعته، وصفته، فالتفت إليَّ وقال: أين الغزالي؟

فإذا بالغزالي كأنه واقف على الحلقة بين يديه.

فقال: ها أنا ذا يا رسول الله.

وتقدم، وسلم على رسول الله ﷺ.

فرد عليه الجواب، وناوله يده العزيزة، والغزالي يقبل يده، ويضع خديه عليها؛ تبركاً به، وبيده العزيزة المباركة، ثم قعد.

قال: فما رأيت رسول الله ﷺ أكثر استبشاراً بقراءة أحد مثل ما كان بقراءتي عليه «قواعد العقائد».

ثم انتبهت من النوم، وعلى عيني أثر الدمع؛ مما رأيت من تلك الأحوال، والمشاهدات، والكرامات؛ فإنها كانت نعمة جسيمة من الله تعالى، سيما في آخر الزمان، مع كثرة الأهواء.

فنسأل الله تعالى أن يثبتنا على عقيدة أهل الحق، ويُحيينا عليها، ويميتنا عليها، ويحشرنا معهم ومع الأنبياء، والمرسلين؛ والصديقين، والشهداء، والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً، فإنه بالفضل جدير، وعلى ما يشاء قدير.

قال الشيخ الإمام أبو القاسم الإسفرايني: هذا معنى ما حكى لي أبو الفتح الساوي، أنه رآه في المنام؛ لأنه حكاه لي بالفارسية، وترجمته أنا بالعربية.

[٢١٣] ذكر كلام الطاعنين على هذا الإمام وردِّه، ونقض عُرى باطله وهَدِّه

قال الإمام أبو عبدالله المازري، المالكي، مجيباً لمن سأله عن حال كتاب «إحياء علوم الدين»، ومصنفه:

هـذا الرجـل، يعـني الغزالـي، وإن لم أكـن قـرأت كتابـه، فقـد رأيـت تلامذته وأصحابه، فكلٌّ منهم يحكي لي نوعاً من حاله، وطريقته، فأتلوح بها من مذهبه وسيرته ما قام لي مقام العيان.

فأنـا اقتـصر علـى ذكـر حـال الرجـل، وحـال كتابـه، وذكـر جُمـل مـن مذاهب الموحدين والفلاسفة، والمتصوفة، وأصحاب الإشارات؛ فإن كتابه متردد بين هذه الطرائق لا يعدوها.

ثم أُتبع ذلك بذكر حيل أهل مذهب على أهل مذهب آخر.

ثم أُبين عن طرق الغرور، وأكشف عما دفن من حبـال الباطـل، ليُحـذر من الوقوع في حبالة صائده.

ثم أثنى على الغزالي في الكشف، وقال: هو أعرف بالفقه منه بأصوله، وأما علـم الكـلام، الـذي هـو أصـول الـدين؛ فإنه صنف فيـه أيـضاً، ولـيس بالمستبحر فيها، ولقد فطنت لسبب عدم استبحاره فيهـا، وذلـك أنه قـرأ علـم الفلسفة قبل استبحاره في فن أصول الدين، فكسّبته قراءة الفلسفة جراءة على المعـاني، وتـسهيلاً للـهجوم علـى الحقـائق؛ لأن الفلاسـفة تمُـرُّ مع خواطرهـا، وليس لها حكم شرع ترعاه، ولا تخاف من مخالفة أئمة تتبعها.

[٢١٤] وعرفني بعض أصحابه أنه كان له عكوف على «رسائل إخوان الصفا»، وهي إحدى وخمسون رسالة، ومصنفها فيلسوف قد خاض في علم الشرع والعقل، فمزج ما بين العلمين، وذكر الفلسفة وحسنها في قلوب أهل الشرع بأبيات يتلوها عندها، وأحاديث يذكرها، ثم كان في هذا الزمان المتأخر رجلٌ من الفلاسفة، يعرف بابن سينا، ملأ الدنيا تآليف في علم الفلسفة، وهو فيها إمام كبير، وقد أدته قوته في الفلسفة إلى أن حاول رد أصول العقائد إلى علم الفلسفة، وتلطف جُهده حتى تم له ما لم يتم لغيره، وقد رأيت جُملاً من دواوينه، ورأيت هذا الغزالي يُعوّل عليه في أكثر ما يشير إليه من الفلسفة.

ثم قال: وأما مذاهب الصوفية، فلست أدرى على من عول فيها.

ثم أشار إلى أنه عول على أبي حيان التوحيدي.

ثم ذكر توهية أكثر ما في «الإحياء» من الأحاديث، وقال: عادة المتورعين أن لا يقولوا: قال مالك، قال الشافعي، فيما لم يثبت عندهم.

ثم أشار إلى أنه يستحسن أشياء، مبناها على ما لا حقيقة له، مثل قوله في قص الأظفار: أن تبدأ بالسبابة؛ لأن لها الفضل على بقية الأصابع، لكونها المسبحة، إلى آخر ما ذكر من الكيفية، وذكر فيه أثراً.

وقال: من مات بعد بلوغه، ولم يعلم أن الباري قديمٌ، مات مُسلماً إجماعاً.

قال: ومن تساهل في حكاية هذا الإجماع، الذي الأقرب أن يكون فيه الإجماع بعكس ما قال، فحقيقٌ أن لا يُوثق بما نقل.

وقد رأيت له أنه ذكر أن في علومه هذه ما لا يسوغ أن يودع في كتاب، فليت شعري أحقٌّ هو أو باطل؟ فإن كان باطلاً فصدق، وإن كان حقاً، وهو مراده بلا شك، فلم لا يودع في الكتب، ألغموضه ودقته؟

قال: فإن كان هو، فما المانع أن يفهمه عليه.

هذا ملخص كلام المازري.

وسبقه إلى قريب منه من المالكية أبو الوليد الطرطوشي، فذكر في «رسالة إلى ابن مظفر»: فأما ما ذكرت من أمر الغزالي، فرأيت الرجل، وكلمته، فرأيته رجلاً من أهل العلم، قد نهضت به فضائله، واجتمع فيه العقل، والفهم، وممارسة العلوم، طولَ زمانه.

ثم بدا له الانصراف عن طريق العلماء، ودخل في غمار العمال.

ثم تصوف، فهجر العلوم وأهلها، ودخل في علوم الخواطر، وأرباب القلوب، ووساوس الشيطان.

ثم شابها بآراء الفلاسفة، ورموز الحلاج، وجعل يطعن على الفقهاء والمتكلمين.

ولقد كاد ينسلخ من الدين، فلما عمل «الإحياء» عمد يتكلم في علوم الأحوال، ومرامز الصوفية، وكان غير أنيس بها، ولا خبير بمعرفتها، فسقط على أم رأسه، وشحن كتابه بالموضوعات. انتهى.

وأنا أتكلم على كلامهما، ثم أذكر كلام غيرهما، وأتعقبه أيضاً، وأجتهد أن لا أتعدى طور الإنصاف، وأن لا يلحقني عرق الحمية والاعتساف. وأسأل الله الإمداد بذلك والإسعاف، فما أحدٌ منهم معاصراً لنا

ولا قريباً، ولا بيننا إلا وصلة العلم، ودعوة الخلق إلى جناب الحق، فأقول:

أما المازري، فقبل الخوض معه في الكلام أقدم لك مقدمة، هي:

أن هذا الرجل كان من أذكى المغاربة قريحة، وأحدِّهم ذهناً، بحيث اجترأ على شرح «البرهان» لإمام الحرمين، وهو لغز الأمة، الذي لا يحوم نحو حماه، ولا يُدندن حول مغزاه إلا غواص على المعاني، ثاقب الذهن، مبرز في العلم.

وكان مصمماً على مقالات الشيخ أبي الحسن الأشعري، رضي الله عنه، جليلها، وحقيرها، كبيرها، وصغيرها، لا يتعداها، ويبدع من خالفه، ولو في النزر اليسير، والشيء الحقير.

ثم هو مع ذلك مالكي المذهب، شديد الميل إلى مذهبه، كثير المناضلة عنه.

وهذان الإمامان، أعني: إمام الحرمين، وتلميذه الغزالي، وصلا من التحقيق، وسعة الدائرة في العلم، إلى المبلغ الذي يعرف كلُّ منصف بأنه ما انتهى إليه أحدٌ بعدهما، وربما خالفا أبا الحسن في مسائل من علم الكلام، والقوم أعني الأشاعرة لا سيما المغاربة منهم، يستصعبون هذا الصنع، ولا يرون مخالفة أبي الحسن في نقير ولا قطمير.

وربما ضعفا مذهب مالك في كثير من المسائل، كما فعلا في مسألة المصالح المرسلة، وعند ذكر الترجيح بين المذاهب.

فهذان أمران نفر المازري منهما، وينضم إلى ذلك أن الطرق شتى مختلفة، وقَلّ ما رأيت سالك طريق إلا ويستقبح الطريق التي لم يسلكها، ولم يفتح عليه من قبلها، ويضع عند ذلك من غيره، لا ينجو من ذلك إلا القليل

من أهل المعرفة والتمكين.

ولقد وجدت هذا واعتبرته، حتى في مشايخ الطريقة.

ولا يخفى أن طريقة الغزالي التصوف، والعمق في الحقائق، ومحبة إشارات القوم، وطريقة المازري الجمود على العبارات الظاهرة، والوقوف معها، والكل حسن، ولله الحمد، إلا أن اختلاف الطريقين يوجب تباين المزاجين، وبعد ما بين القلبين، لا سيما وقد انضم إليه ما ذكرناه من المخالفة في المذهب، وتوهم المازري أنه يضع من مذهبه، وأنه يخالف شيخ السنة أبا الحسن الأشعري، حتى رأيته، أعني المازري، قال في «شرح البرهان»، في مسألة خالف فيها إمام الحرمين أبا الحسن الأشعري، وليست من القواعد المعتبرة، ولا المسائل المهمة: «مَن خَطّأ شيخ السنة أبا الحسن الأشعري فهو المُخَطّأ» وأطال في هذا.

وقال في الكلام على ماهية العقل، في أوائل «البرهان»، وقد حكى عن الأشعري أنه يقول: العقل هو العلم وأن الإمام، رضي الله عنه، قال مقالة الحارث المحاسبي: إنه غريزة، بعد أن كان في «الشامل» ينكرها: وإنه إنما رضيها لكونه في آخر عمره قرع باب قوم آخرين، يشير إلى الفلاسفة.

فليت شعري، ما في هذه المقالة مما يدل على ذلك.

وأعجب من هذا أنه، أعني المازري، في آخر كلامه اعترف بأن الإمام لا ينحو نحوهم، وأخذ يجل من قدره، وله من هذا الجنس كثير.

فهذه أمور توجب التنافر بينهم، وتحمل المنصف على أن لا يسمع كلام المازري فيهما إلا بعد حجة ظاهرة.

ولا تحسب أننا نفعل ذلك إزراء بالمازري، وحَطّاً من قدره، لا والله، بل بينا بطريق الوهم عليه، وهو في الحقيقة معذور؛ فإن المرء إذا ظن بشخص سُوءاً قلما أمعن بعد ذلك في النظر إلى كلامه، بل يصير بأدنى لمحة أدلّت يحمل أمره على السوء، ويكون مخطئاً في ذلك، إلا من وفق الله تعالى، ممن برىء عن الأغراض، ولم يظن إلا الخير، وتوقف عند سماع كل كلمة، وذلك مقام لم يصل إليه إلا الآحاد من الخلق، وليس المازري – بالنسبة إلى هذين الإمامين – من هذا القبيل.

وقد رأيت فعله في حق إمام الحرمين، في مسألة الاسترسال، التي حكيناها في ترجمة الإمام، في الطبقة الرابعة[1]، وكيف وهم على الإمام، وفهم عنه ما لا يفهمه عنه العوام، وفَوّق نحوه سهام الملام.

إذا عرفت هذه المقدمة، فأقول: إن ما ادعاه من أنه عرف مذهبه، بحيث قام له مقام العيان هو كلام عجيب، فإنا لا نستجيز أن نحكم على عقيدة أحد بهذا الحكم، فإن ذلك لا يطلع عليه إلا الله، ولن تنتهي إليه القوانين والأخبار أبداً.

وقد وقفنا نحن على غالب كلام الغزالي، وتأملنا كتب أصحابه الذين شاهدوه، وتناقلوا أخباره، وهم به أعرف من المازري، ثم لم ننته إلى أكثر من غلبة الظن، بأنه رجل أشعري المعتقد، خاض في كلام الصوفية.

وأما قوله: «وذكر جُملاً من مذاهب الموحدين، والفلاسفة، والمتصوفة، وأصحاب الإشارات» فأقول: إن عني بالموحدين، الذين يوحدون الله، فالمسلمون أول داخل فيهم، ثم عطف الصوفية عليهم يوهم أنهم ليسوا مسلمين، وحاشا لله.

---

(١) انظر «طبقات الشافعية الكبرى»: ١٩٣/٥ وما بعدها.

وإن عني به أهل التوكل على الله، فهم من خير فرق الصوفية، الذين هم من خير المسلمين، فما وجه عطف الصوفية عليهم بعد ذلك؟

وإن أراد أهل الوحدة المطلقة، المنسوب كثيرٌ منهم إلى الإلحاد والحلول، فمعاذ الله ليس الرجل في هذا الصوب، وهو مصرح بتكفير هذه الفئة، وليس في كتابه شيءٌ من معتقداتهم.

وأما قوله: «الغزالي ليس بالمتبحر في علم الكلام» فأنا أوافقه على ذلك، لكني أقول: إن قدمه فيه راسخ، ولكن لا بالنسبة إلى قدمه في بقية علومه، هذا ظني.

وأما قوله: «إنه اشتغل في الفلسفة قبل استبحاره في فن الأصول»، فليس الأمر كذلك، بل لم ينظر في الفلسفة إلا بعد ما استبحر في فن الأصول، وقد أشار هو، أعني الغزالي، إلى ذلك في كتابه «المنقذ من الضلال»، وصرح بأنه توغل في علم الكلام قبل الفلسفة.

ثم قول المازري: «قرأ علم الفلسفة قبل استبحاره في علم الأصول»، بعد قوله: «إنه لم يكن بالمستبحر في الأصول» كلام يناقض أوله آخره.

وأما دعواه أنه تجرأ على المعاني، فليست له جرأة إلا حيث دله الشرع، ويدعي خلاف ذلك من لا يعرف الغزالي، ولا يدري مع من يتحدث.

ومن الجهل بحاله دعوى أنه اعتمد على كتب أبي حيان التوحيدي، والأمر بخلاف ذلك، ولم يكن عمدته في «الإحياء» بعد معارفه، وعلومه، وتحقيقاته التي جمع بها شمل الكتاب، ونظم بها محاسنه، إلا على كتاب «قوت القلوب»، لأبي طالب المكي، وكتاب «الرسالة» للأستاذ أبي القاسم

القشيري، المجمع على جلالتهما، وجلالة مصنفيهما، وأما ابن سينا فالغزالي يكفره، فكيف يقال إنه يقتدي به؟

ولقد صرح في كتاب «المنقذ من الضلال» أنه لا شيخ له في الفلسفة.

وقوله: «لا أدري على من عوَّل في التصوف».

قلت: عول على كتاب «القوت»، و«الرسالة»، مع ما ضم إليهما من كلام مشايخه، أي على العلائي، وأمثاله، ومع ما زاده من قبل نفسه، بفكره، ونظره، وما فتح به عليه، وهو عندي أغلب ما في الكتاب، وليس في الكتاب للفلاسفة مدخل، ولم يصنفه إلا بعد ما ازدرى علومهم، ونهى عن النظر في كتبهم، وقد أشار إلى ذلك في غير موضع من «الإحياء».

ثم في كتاب «المنقذ من الضلال» ما نصه:

ثم إني لما ابتدأت بعد الفراغ من علم الكلام بعلم الفلسفة، وعلمت يقيناً أنه لا يقف على فساد نوع من العلوم من لا يقف على منتهى ذلك العلم، حتى يساوي أعلمهم في أصل العلم، ثم يزيد عليه، ويجاوز درجته، فيطلع على ما لم يطلع عليه صاحب العلم من غور وغائلة؛ فإذ ذاك يمكن أن يكون ما يدعيه من فساده حقاً، ولم أر أحداً من علماء الإسلام وجه عنايته إلى ذلك، ولم يكن في كتب المتكلمين من كلامهم - حيث اشتغلوا بالرد عليهم - إلا كلماتٌ معقدة مُبددة ظاهرة التناقض والفساد، ولا يظن الاعتراف بها عاقلٌ عامي، فضلاً عمن يدعي دقائق العلوم.

فعلمت أن رد هذا المذهب قبل فهمه والاطلاع على كنهه يرمي في عماية، فشمرت عن ساق الجد في تحصيل ذلك العلم من الكتب بمجرد

المطالعة، من غير استعانة بأستاذ وتعلم.

فأقبلت على ذلك في أوقات فراغي، من التدريس والتصنيف في العلوم الشرعية، وأنا مهتم بالتدريس والإفادة، لبل غُلة نفر من الطلبة ببغداد، فأطلعني الله تعالى بمجرد المطالعة في هذه الأوقات على منتهى علومهم، في أقل من سنتين.

ثم لم أزل أواظب على التفكر فيه، بعد فهمه، قريباً من سنة، أعاوده وأراوده، وأتفقد غوائله وأغواره، حتى اطلعت على ما فيه من خداع، وتلبيس، وتحقيق وتحيل، اطلاعاً لم أشك فيه.

فاسمع الآن حكايتي، وحكاية حاصل علومهم؛ فإني رأيت أصنافاً ورأيت علومهم أقساماً، وهم على كثرة أصنافهم تلزمهم وجهة الكفر والإلحاد، وإن كان بين القدماء منهم، والأقدمين، والأواخر منهم، والأوائل تفاوت عظيم في البعد عن الحق، والقرب منه. انتهى.

وقال بعده: فصل، في بيان أصنافهم، وشمول سمة الكفر كافتهم، واندفع في ذلك.

فهذا رجلٌ ينادى على كافة الفلاسفة بالكفر، وله في الرد عليهم الكتب الفائقة، وفي الذب عن حريم الإسلام الكلمات الرائقة، ثم يقال إنه بنى كتابه على مقالتهم، فيا لله ويا للمسلمين: نعوذ بالله من تعصب يحمل على الوقيعة في أئمة الدين.

وأما ما عاب به «الإحياء» من توهنة بعض الأحاديث، فالغزالي معروف بأنه لم تكن له في الحديث يد باسطة، وعامة ما في «الإحياء» من الأخبار

والآثار، مبدد في كتب من سبقه من الصوفية والفقهاء، ولم يسند الرجل لحديث واحد، وقد اعتنى بتخريج أحاديث «الإحياء» بعض أصحابنا، فلم يشذ عنه إلا اليسير.

وسأذكر جملة من أحاديثه الشاذة، استفادة.

وأما ما ذكروه في قص الأظفار، فالأمر المشار إليه، يروى عن علي كرم الله وجهه، غير أنه لم يثبت، وليس في ذلك كبير أمر، ولا مخالفة شرع، وقد سمعت جماعة من الفقراء يذكرون أنهم جربوه فوجدوه لا يخطئ، من داومه أمن من وجع العين.

[٢١٥] ويروون من شعر علي، كرم الله وجهه هذا:

ابدأ بيمناك وبالخنصر ... في قص أظفارك واستبصرِ
واختم بسبابتها هكذا ... لا تفعل في الرِجل ولا تَمْتَرِ
وابدأ ليسراك بإبهامها ... والأصبع الوسطى وبالخِنْصَر
ويتبع الخنصرَ سبابةٌ ... بِنْصَرُها خاتمة الأيسر
هذا أمان لك قد حزته ... من رمد العين كما قد قُرِي

وأما قول المازري: «عادة المتورعين أن لا يقولوا: قال مالك» إلى آخره، فليس ما قال الغزالي: «قال رسول الله ﷺ» على سبيل الجزم، وإنما يقول عزوٌ بتقدير الجزم، فلو لم يغلب على ظنه لم يقله، وغايته أنه ليس الأمر على ما ظن.

وأما مسألة من مات ولم يعلم قدم الباري، ففرق بين عدم اعتقاد بالقدم، واعتقاد أن لا قدم، والثاني هو الذي أجمعوا على تكفير من اعتقده.

فمن استحضر بذهنه صفة القدم، ونفاها عن الباري، وأوجبها منفية، أوشك في انتفائها كان كافراً.

وأما الساذج في مسألة القدم، الخالي، الخِلْو، المؤمن بالله على الجملة، فهو الذي ادعى الغزالي الإجماع على أنه مؤمن على الجملة، ناجٍ من حيث مطلق الإيمان الجُمْليّ.

ومن البلية العظمى، والمصيبة الكبرى، أن يقال عن مثل الغزالي: إنه غير موثوق بنقله، فما أدري ما أقول، ولا بأنى يلقى الله من يعتقد ذلك في هذا الإمام.

وأما تقسيم المازري في العلم، الذي أشار حجة الإسلام أنه لا يودع في كتاب، فوددت لو لم يذكره، فإنه شُبِّه عليه.

وهذا المازري كان رجلاً، فاضلاً، ركناً، ذكياً، وما كنت أحسبه يقع في مثل هذا، أَوَ خَفِيَ عليه أن للعلوم دقائق، نهى العلماء عن الإفصاح بها، خشية على ضعفاء الخلق، وأمور أُخَر لا تحيط بها العبارات، ولا يعرفها إلا أهل الذوق، وأمور أخر لم يأذن الله في إظهارها؛ لحكم تكثر عن الإحصاء.

وماذا يقول المازري فيما خرّجه البخاري في «صحيحه» من حديث أبي الطفيل، سمعت علياً رضي الله عنه، يقول: حدثوا الناس بما يعرفون، أتحبون أن يكذب الله ورسوله؟

وكم مسألةٍ نص العلماء على عدم الإفصاح بها، خشية على إفضاح من لا يفهمها.

وهذا إمامنا الشافعي، رضي الله عنه. يقول: إن الأجير المشترك لا يضمن.

قال الربيع: وكان لا يبوح به خوفاً من أجير السوء.

قال الربيع أيضاً: وكان الشافعي، رضي الله عنه، يذهب إلى أن القاضي يقضي بعلمه، وكان لا يبوح به، مخافة قضاة السوء.

فقد لاح لك بهذا أنه ربما وقع السكوت عن بعض العلم؛ خشية من الوقوع في محذور، ومثل ذلك يكثر.

وأما كلام الطرطوشي، فمن الدعاوي العارية عن الدلالة، وما أدرى كيف استجاز في دينه أن ينسب هذا الحبر إلى أنه دخل في وسواس الشيطان، ولا من أين اطلع على ذلك.

وأما قوله: «شابها بآراء الفلاسفة، ورموز الحلاج» فلا أدري، أي رموز في هذا الكتاب، غير إشارات القوم، التي لا ينكرها عارف! وليس للحلاج رموز يعرف بها.

وأما قوله: «كاد ينسلخ من الدين»، فيا لها كلمة، وقانا الله شرها.

وأما دعواه أنه غيرُ أنيس بعلوم الصوفية، فمن الكلام البارد، فإنه لا يرتاب ذو نظر بأن الغزالي كان ذا قدم راسخ في التصوف، وليت شعري إن لم يكن الغزالي يدري التصوف فمن يدريه.

وأما دعواه أنه سقط على أم رأسه، فوقيعةٌ في العلماء بغير دلالة؛ فإنه لم يذكر لنا بماذا سقط!

كفاه الله وإيانا غائلة التعصب.

وأما الموضوعات في كتابه، فليت شعري، أهو واضعها حتى ينكر

عليه، إن هذا إلا تعصب بارد، وتشنيع بما لا يرتضيه ناقد.

ولقد ماجوا في هذا «الإحياء»، الذي لا ينبغي لعالم أن ينكر مكانته في الحسن والإفادة، ولقد قال بعض المحققين: لو لم يكن للناس في الكتب التي صنفها الفقهاء الجامعون في تصانيفهم بين النقل والنظر، والفكر والأثر، غيره لكفى.

وهو من الكتب التي ينبغي للمسلمين الاعتناء بها، وإشاعتها؛ ليهتدي بها كثيرٌ من الخلق، وقلما ينظر فيه ناظر إلا وتيقظ به في الحال، رزقنا الله بصيرة ترينا وجه الصواب، ووقانا شر ما هو بيننا وبينه حجاب.

وللشيخ تقي الدين ابن الصلاح في حق الغزالي كلام لا نرتضيه، ذكره على المنطق، تكلمنا عليه في أوائل شرحنا «للمختصر» لابن الحاجب.

[٢١٦] وكتب إليّ مرة الحافظ عفيف الدين المطري، المقيم بمدينة سيدنا رسول الله ﷺ، كتاباً، سألني أن أسأل الشيخ الإمام رأيه[١]، فذكرت له ذلك، فكتب إليّ الجواب بما نصه:

«الحمد لله».

الولد عبدالوهاب، بارك الله فيه.

وقفت على ما ذكرتَ مما سأل عنه الشيخ الإمام العالم، القدوة، عفيف الدين المطري، نفع الله به، في ترجمة الغزالي، وأبي حيان التوحيدي، وما ذكرته أنت في «الطبقات» في ترجمة التوحيدي، وما عندي فيه أكثر من ذلك،

---

(١) قلت: أي والده الحافظ تقي الدين السبكيّ.

فتكتبه له، وكذلك الغزالي، ما عندي فيه زيادة على ما ذكره ابن عساكر، وغيره، ممن ترجمه، وماذا يقول الإنسان فيه، وفضله واسمه قد طبق الأرض، ومن خَبَرَ كلامه عرف أنه فوق اسمه.

وأما ما ذكره الشيخ تقي الدين ابن الصلاح وما ذكره من عند نفسه، ومن كلام يوسف الدمشقي والمازري، فما أشبه هؤلاء الجماعة، رحمهم الله، إلا بقوم متعبدين، سليمة قلوبهم، قد ركنوا إلى الهُوَيْنا، فرأوا فارساً عظيماً من المسلمين، قد رأى عدواً عظيماً لأهل الإسلام، فحمل عليهم، وانغمس في صفوفهم، ومازال في غَمرتهم حتى فَلّ شوكتهم، وكسرهم، وفرَّق جموعهم شذر بذر[1]، وفلّق هام كثير منهم، فأصابه يسيرٌ من دمائهم، وعاد سالماً، فرأوه، وهو يغسل الدم عنه، ثم دخل معهم في صلاتهم، وعبادتهم، فتوهموا أيضاً أثر الدم عليه، فأنكروا عليه.

هذا حال الغزالي وحالهم والكل، إن شاء الله، مجتمعون في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

وأما المازري لأنه مغربي، وكانت المغاربة لما وقع بهم كتاب «الإحياء» لم يفهموه، فحرَّقوه، فمن تلك الحالة تكلّم المازري.

ثم إن المغاربة بعد ذلك أقبلوا عليه، ومدحوه بقصائد، منها قصيدة:

أبا حامد أنت المخصص بالحمد ... وأنت الذي علمتنا سنن الرشد
وضعت لنا الإحياء تحيي نفوسنا ... وتنقذنا من ربقة المارد المُرْدِي

وهي طويلة، وإن كنت لا أرتضى قوله «أنت المخصص بالحمد»،

---

(١) ذهبوا شذر مذر وبذر، أي تفرقوا في كل وجه، انظر لسان العرب: ٣٩٩/٤، مادة (شذر)

ويتأول لفاعليه، أنه من بين أقرانه، أو من بين من يتكلم فيه.

وأين نحن ومن فوقنا وفوقهم من فهم كلام الغزالي، أو الوقوف على مرتبته في العلم، والدين، والتأله.

ولا ينكر فضل الشيخ تقي الدين(١)، وفقهه، وحديثه، ودينه، وقصده الخير، ولكن لكل عمل رجال.

ولا ينكر علو مرتبة المازري، ولكن كل حال لا يعرفه من لم يذقه، أو يشرف عليه، وكل أحد إنما يتكيف بما نشأ عليه، ووصل إليه.

[٢١٧] وأما من ذكر أبا بكر وعمر، رضي الله عنهما، في هذا المقام، فالله يوفقنا وإياه لفهم مقامهما، على قدرنا، وأما على قدرهما فمستحيل، بل وسائر الصحابة لا يصل أحدٌ ممن بعدهم إلى مرتبتهم؛ لأن أكثر العلوم التي نحن نبحث ونذأب فيها، الليل والنهار، حاصلةٌ عندهم بأصل الخلقة، من اللغة، والنحو، والتصريف، وأصول الفقه.

وما عندهم من العقول الراجحة، وما أفاض الله عليهم من نور النبوة العاصم من الخطأ في الفكر، يغني عن المنطق، وغيره من العلوم العقلية.

وما ألف الله بين قلوبهم حتى صاروا بنعمته إخواناً، يغني عن الاستعداد للمناظرة والمجادلة، فلم يكن يحتاجون في علومهم إلا إلى ما يسمعونه من النبي ﷺ، من الكتاب والسنة، فيفهمونه أحسن فهم، ويحملونه على أحسن محمل، وينزلونه منزلته، وليس بينهم من يماري فيه،

---

(١) أي ابن الصلاح رحمه الله تعالى.

ولا يجادل، ولا بدعة، ولا ضلالة.

ثم التابعون على منازلهم، ومنوالهم، قريباً منهم، ثم أتباعهم، وهم القرون الثلاثة، التي شهد النبي ﷺ لها بأنها خير القرون بعده.

ثم نشأ بعدهم، وكان قليلاً في أثناء الثاني والثالث، أصحاب بدع وضلالات، فاحتاجت العلماء من أهل السنة إلى مقاومتهم، ومجادلتهم، ومناظرتهم، حتى لا يلبسوا على الضعفاء أمر دينهم، ولا يدخلوا في الدين ما ليس منه.

ودخل في كلام أهل البدع من كلام المنطقيين، وغيرهم من أهل الإلحاد، شيءٌ كثير، ورتبوا علينا شبهاً كثيرة، فإن تركناهم وما يصنعون استولوا على كثيرٍ من الضعفاء، وعوام المسلمين، والقاصرين من فقهائهم وعلمائهم، فأضلوهم، وغيروا ما عندهم من الاعتقادات الصحيحة، وانتشرت البدع والحوادث، ولم يمكن كل واحد أن يقاومهم، وقد لا يفهم كلامهم؛ لعدم اشتغاله به، وإنما يرد الكلام من يفهمه، ومتى لم يرد عليه تعلو كلمته، ويعتقد الجهلاء، والأمراء، والملوك، والمستولون على الرعية صحة كلام ذلك المبتدع، كما اتفق في كثير من الأعصار، وقصرت همم الناس عما كان عليه المتقدمون.

فكان الواجب أن يكون في الناس من يحفظ الله به عقائد عباده الصالحين، ويدفع به شبه الملحدين، وأجره أعظم من أجر المجاهد بكثير، ويحفظ أمر بقية الناس عبادات المتعبدين، واشتغال الفقهاء، والمحدثين والمقرئين، والمفسرين، وانقطاع الزاهدين:

لا يعرف الشوق إلا من يكابده ولا الصبابةَ إلا من يعانيها

واللائق بابن الصلاح وأمثاله، أن يشكر الله على ما أنعم به من الخير، وما قيض الله له من الغزالي، وأمثاله، الذين تقدموه حتى حفظوا له ما يتعبد به، وما يشتغل به.

وما يحتمل هذا الموضع بسط القول في ذلك.

وإذا كان في «الإحياء» أشياءُ يسيرة، تنتقد، لا تدفع محاسن أكثره، التي لا توجد في كتاب غيره، وكم من منة للغزالي، وسواء عرف من أخذ عنه التصوف، أم لا، فالاعتقادات هي هبةٌ من الله تعالى، وليست رواية» انتهى.

وما أشرت إليه من كلام ابن الصلاح في الغزالي، هو ما ذكره في «الطبقات» من إنكاره عليه المنطق، وقوله في أول «المستصفى»: هذه مقدمة العلوم كلها، ومن لا يحيط بها، فلا ثقة بمعلومه أصلاً. ثم حكايته كلام المازري، وقد أوردناه.

وذكر ابن الصلاح أن كتاب «المضنون» المنسوب إليه، معاذ الله أن يكون له، وبيّن سبب كونه مختلقاً، موضوعاً عليه.

والأمر كما قال، وقد اشتمل «المضنون» على التصريح بقدم العالم، ونفي العلم القديم بالجزئيات، ونفي الصفات، وكل واحدة من هذه يكفّر الغزالي قائلها، هو وأهل السنة أجمعون، وكيف يتصور أنه يقولها.

ولقد وقعت في بلاد المغرب بسبب «الإحياء» فتن كثيرة، وتعصبٌ أدى إلى أنهم كادوا يحرقونه، وربما وقع إحراقٌ يسير، وقد قدمنا من ذلك شيئاً.

[٢١٨] [رسالة الإمام حجة الإسلام رضي الله عنه التي كتبها إلى بعض أهل عصره]:

ونصها :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين.

والصلاة والسلام على سيد المرسلين، سيدنا محمد، وآله، وصحبه أجمعين.

أما بعد :

فقد انتسج بيني وبين الشيخ الأجل، معتمد الملك، أمين الدولة، حرس الله تأييده، بواسطة القاضي الجليل الإمام مروان، زاده الله توفيقاً، من الوداد، وحسن الاعتقاد، ما يجرى مجرى القرابة، ويقتضي دوام المكاتبة والمواصلة، وإني لا أصله بصلة هي أفضل من نصيحة توصله إلى الله، وتقربه لربه زلفى، وتحله الفردوس الأعلى.

فالنصيحة هي هدية العلماء، وإنه لن يهدى إليّ تحفة أكرم من قبوله لها، وإصغائه بقلب فارغ عن ظلمات الدنيا إليها.

وإني أحذره، إذا مُيزت عند أرباب القلوب أحرار الناس، أن يكون إلا في زمرة الكرام الأكياس، فقد قيل لرسول الله ﷺ : من أكرم الناس؟

فقال : «أتقاهم».

فقيل: من أكيس الناس؟

فقال: «أكثرهم للموت ذكراً، وأشدهم له استعداداً».

وقال ﷺ: «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله المغفرة».

وأشد الناس غباوة وجهلاً، من تهمه أمور دنياه التي يختطفها عنه الموت، ولا يهمه أن يعرف أنه من أهل الجنة أو النار، وقد عرفه الله تعالى ذلك، حيث قال: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾[1].

وقال: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾﴾[2].

وقال: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا﴾ إلى قوله: ﴿وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[3].

وإني أوصيه أن يصرف إلى هذا المهم همته، وأن يحاسب نفسه قبل أن يحاسب، ويراقب سريرته، وقصده، وهمته، وأفعاله، وأقواله، وإصداره، وإيراده، أهي مقصورةٌ على ما يقرِّبه من الله تعالى ويوصله إلى سعادة الأبد، أوهي مصروفة إلى ما يعمر دنياه، ويصلحها له إصلاحاً منغصاً، مشوباً بالكدورات، مشحوناً بالهموم والغموم، ثم يختمها بالشقاوة، والعياذ بالله؟

فليفتح عن بصيرته؛ لتنظر نفس ما قدمت لغد، وليعلم أنه لا مشفق

---

(١) سورة الانفطار: آية ١٣-١٤.

(٢) سورة النازعات: آية ٣٧- ٣٨.

(٣) سورة هود: آية ١٥-١٦.

ولا ناظر لنفسه سواه.

وليتدبر ما هو بصدده.

فإن كان مشغولاً بعمارة ضيعة فلينظر كم من قرية أهلكها الله تعالى وهي ظالمة، فهي خاوية على عروشها بعد عمارها.

وإن كان مقبلاً على استخراج ماء، وعمارة نهر، فليفكر: كم من بئر معطلة وقصر مشيد بعد عمارتهما.

وإن كان مهتماً بتأسيس بناء، فليتأمل كم من قصور مشيدة البنيان، محكمة القواعد والأركان، أظلمت بعد سكانها.

وإن كان معتنياً بعمارة الحدائق والبساتين، فليعتبر: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٢٥ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٢٦ وَنَعْمَةٍ﴾[1] الآية، وليقرأ قوله: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ۝٢٠٥ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ۝٢٠٦ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ﴾[2].

وإن كان مشغوفاً، والعياذ بالله، بخدمة سلطان، فليذكر ما ورد في الخبر: أنه ينادي مناد يوم القيامة: أين الظلمة وأعوانهم، فلا يبقى أحدٌ منهم مد لهم دواة، وبرى لهم قلماً، فما فوق ذلك، إلا أحضروا، فيجمعون في تابوت من نار، فيلقون في جهنم.

وعلى الجملة، فالناس كلهم إلا من عصم الله نسوا الله فنسيهم،

---

(١) سورة الدخان: آية ٢٥-٢٧.

(٢) سورة الشعراء: آية ٢٠٥-٢٠٧.

وأعرضوا عن التزود للآخرة، وأقبلوا على طلب أمرين: الجاه، والمال، فإن كان هو في طلب جاه ورياسة، فليتذكر ما ورد به الخبر: أن الأمراء يحشرون يوم القيامة في صور الذَرّ، تحت أقدام الناس، يطؤونهم بأقدامهم. وليقرأ ما قاله تعالى، في كل متكبر جبار.

وقد قال رسول الله ﷺ: «يكتب الرجل جباراً وما يملك إلا أهل بيته» أي إذا طلب الرياسة بينهم، وتكبر عليهم، وقد قال عليه السلام: «ماذئبان ضاريان أرسلا في زريبة غنم بأكثر فساداً من حب الشرف في دين الرجل المسلم».

وإن كان في طلب المال وجمعه فليتأمل قول عيسى عليه السلام:

يا معشر الحواريين، العين مَسَرة في الدنيا، مضرة في الآخرة، بحق أقول، لا يدخل الأغنياء ملكوت السماء.

وقد قال نبينا ﷺ: «يحشر الأغنياء يوم القيامة أربع فرق:

رجلٌ جمع مالاً من حرام، وأنفقه في حرام، فيقال: اذهبوا به إلى النار.

ورجلٌ جمع مالاً من حرام، وأنفقه في حلال، فيقال: اذهبوا به إلى النار.

ورجلٌ جمع مالاً من حلال، وأنفقه في حرام، فيقال: اذهبوا به إلى النار.

ورجلٌ جمع مالاً من حلال، وأنفقه في حلال، فيقال: قفوا هذا، واسألوه، لعله ضيع بسبب غناه فيما فرضناه عليه، أو قصر في صلاته، أو في وضوئها، أو سجودها، أو خشوعها، أو ضيع شيئاً من فرض الزكاة والحج.

فيقول الرجل: جمعت المال من حلال، وأنفقته في حلال، وما ضيعت

شيئاً من حدود الفرائض، بل أتيتها بتمامها.

فيقال: لعلك باهيت، واختلت في شيء من ثيابك؟

فيقول: يا رب، ما باهيت بمالي، ولا اختلت في ثيابي.

فيقال: لعلك فرطت فيما أمرناك من صلة الرحم، وحق الجيران، والمساكين، وقصرت في التقديم والتأخير، والتفضيل والتعديل.

ويحيط هؤلاء به، فيقولون: ربنا أغنيته بين أظهرنا، وأحوجتنا إليه، فقصر في حقنا.

فإن ظهر تقصيرٌ ذهب به إلى النار، وإلا قيل له: قف، هات الآن شكر كل نعمة، وكل شربه، وكل أكلة، وكل لذة، فلا يزال يسأل ويسأل[١].

فهذه حال الأغنياء الصالحين المصلحين، القائمين بحقوق الله تعالى، أن يطول وقوفهم في العرصات، فكيف حال المفرطين المنهمكين في الحرام والشبهات، المكاثرين به المتنعمين بشهواتهم، الذين قيل فيهم: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾[٢].

فهذه المطالب الفاسدة، هي التي استولت على قلوب الخلق، فسخرها للشيطان، وجعلها ضُحكة له، فعليه وعلى كل مستمر في عداوة نفسه أن يتعلم علاج هذا المرض الذي حل بالقلوب.

---

(١) قلت: هذا الحديث لا يصح، والله أعلم، والغني الشاكر المنفق في طاعة الله على خير كثير إن شاء الله.

(٢) سورة التكاثر: آية ١ - ٢.

[٢١٩] فعلاج مرض القلب أهمٌ من علاج مرض الأبدان، ولا ينجو إلا من أتى الله بقلب سليم.

وله دواءان:

أحدهما: ملازمة ذكر الموت، وطول التأمل فيه، مع الاعتبار بخاتمة الملوك، وأرباب الدنيا، أنهم كيف جمعوا كثيراً، وبنوا قصوراً، وفرحوا بالدنيا بطراً وغروراً، فصارت قصورهم قبوراً، وأصبح جمعهم هباءً منثوراً: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾[١]، ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾[٢] فقصورهم، وأملاكهم، ومساكنهم، صوامت ناطقة، تشهد بلسان حالها على غرور عمالها. فانظر الآن في جميعهم ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾[٣].

الدواء الثاني:

تدبر كتاب الله تعالى، ففيه شفاء ورحمةٌ للعالمين:

وقد أوصى رسول الله ﷺ بملازمة هذين الواعظين، فقال: تركت فيكم واعظين صامتاً وناطقاً، الصامت الموت، والناطق القرآن»[٤].

وقد أصبح أكثرُ الناس أمواتاً عن كتاب الله تعالى وإن كانوا أحياء في معايشهم، وبُكْماً عن كتاب الله تعالى وإن كانوا يتلونه بألسنتهم، وصُماً عن

---

(١) سورة الأحزاب: آية ٣٨.

(٢) سورة السجدة: آية ٢٦.

(٣) سورة مريم: آية ٩٨.

(٤) لم يصح هذا الحديث.

سماعه وإن كانوا يسمعونه بآذانهم، وعُمْياً عن عجائبه وإن كانوا ينظرون إليه في صحائفهم ومصاحفهم، نائمين عن أسراره وإن كانوا يشرحونه في تفاسيرهم.

فاحذر أن تكون منهم، وتدبر أمرك، وأمر من لم يتدبر كيف يقوم ويحشر!

وانظر في أمرك وأمر من لم ينظر في أمر نفسه، كيف خاب عند الموت، وخسر!

واتعظ بآية واحدة من كتاب الله، ففيه مقنع وبلاغ لكل ذي بصيرة، قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾[1] إلى آخرها.

وإياك، ثم إياك، أن تشتغل بجمع المال، فإن فرحك به ينسيك أمر الآخرة، وينزع حلاوة الإيمان من قلبك.

قال عيسى، صلوات الله عليه وسلامه:

لا تنظروا إلى أموال أهل الدنيا، فإن بريق أموالهم يذهب بحلاوة إيمانكم.

وهذه ثمرة مجرد النظر، فكيف عاقبة الجمع، والطغيان، والنظر!.

وأما القاضي الجليل الإمام مروان، أكثر الله في أهل العلم أمثاله فهو قرة العين، وقد جمع بين الفضلين: العمل، والتقوى، ولكن الاستتمام بالدوام ولا يتم الدوام إلا بمساعدة من جهته، ومعاونة له عليه فيما يزيد في رغبته،

---

(١) سورة المنافقون: آية ٩.

ومن أنعم الله عليه بمثل هذا الولد النجيب، فينبغي أن يتخذه ذخراً للآخرة ووسيلة عند الله تعالى، وأن يسعى في فراغ قلبه لعبادة الله تعالى، ولا يقطع عليه الطريق إلى الله تعالى.

[٢٢٠] وأول الطريق إلى الله طلب الحلال، والقناعة بقدر القوت من المال، وسلوك سبيل التواضع والخمول، والنزوع عن رعونات أهل الدنيا، التي هي مصائد الشيطان.

هذا مع الهرب عن مخالطة الأمراء والسلاطين، ففي الخبر: إن الفقهاء أمناء الله ما لم يدخلوا في الدنيا، فإذا دخلوها فاتهموهم على دينكم.

وهذه أمور قد هداه الله إليها، ويسرها عليه، فينبغي أن يمده ببركة الرضا ويمده بالدعاء، فدعاء الوالد أعظم ذخراً وعدة في الآخرة والأولى.

وينبغي أن تقتدي به فيما يؤثره من النزوع عن الدنيا.

فالولد، وإن كان فرعاً، فربما صار بمزيد العلم أصلاً، ولذلك قال إبراهيم عليه السلام:

﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ﴾ (١).

وليجتهد أن يجبر تقصيره في القيامة بتوقيره ولده الذي هو فلذة كبده، فأعظم حسرة أهل النار فقدهم في القيامة حميماً يشفع لهم، قال الله تعالى: ﴿ فَلَيۡسَ لَهُ ٱلۡيَوۡمَ هَٰهُنَا حَمِيمٞ ﴾ (٢).

---

(١) سورة مريم: آية ٤٣.

(٢) سورة الحاقة: آية ٣٥.

أسأل الله أن يصغر في عينه الدنيا، التي هي صغيرة عند الله، وأن يعظم في عينه الذي هو عظيم عند الله، وأن يوفقنا وإياه لمرضاته، ويحله الفردوس الأعلى من جناته، بمنه وفضله وكرمه، إن شاء الله تعالى[1].

الخُبُوشاني

محمد بن الموفق بن سعيد الخبوشاني، الفقيه، الصوفي.

أحد الأئمة، علماً وديناً وورعاً وزهداً.

وخُبُوشَان: بليدة بناحية نيسابور، ولد بها في رجب سنة عشر وخمسمائة، وتفقه بنيسابور، وقدم مصر سنة خمس وستين.

وكان إماماً جليلاً، كبير المحل في الورع، قَلّ أن ترى العيون مثله، زهداً وعلماً، وأمراً بالمعروف وتصميماً على الحق.

وكان السلطان صلاح الدين رضي الله عنه حسن العقيدة في الشيخ الخبوشاني.

[٢٢١] الخبوشاني له حال غريبة ومحل مكين ومقام في الدين، وكان يقول بملء فيه: أصعد إلى مصر وأزيل ملك بني عبيد اليهودي، فصعدها وصرّح بلعنهم، وحاروا في أمره وأرسلوا إليه بمال عظيم، قيل: مبلغه أربعة آلاف دينار، فلما وقع نظره على رسولهم وهو بالزي المعروف نهض إليه بأشد الغضب، وقال: ويلك، ما هذه البدعة! وكان الرجل قد زوّر في نفسه

(١) «طبقات الشافعية الكبرى»: ٦/١٩١-٣٨٩.

كلاماً يلاطفه به، فأعجله عن ذلك، فرمى الدنانير بين يديه، فضربه على رأسه فصارت عمامته حلقاً في عنقه، وأنزله من السلم وهو يرمى بالدنانير على رأسه، ويسب أهل القصر.

ثم إن العاضد توفي، وتهيب صلاح الدين خوفاً من الخطبة لبني العباس، وحذراً من الشيعة، فوقف الخبوشاني أمام المنبر بعصاه، وأمر الخطيب أن يذكر بني العباس، ففعل، ولم يكن إلا الخير، ووصل إلى بغداد الخبر، فزينوها وأظهروا من الفرح فوق الوصف.

[٢٢٢] ومن ورع الخبوشاني أنه كان يركب الحمار ويجعل تحته أكسية لئلا يصل إليه عرقه.

[٢٢٣] وجاء الملك العزيز إلى زيارته وصافحه، فاستدعى بماء وغسل يديه وقال: يا ولدي أنت تمسك العنان[1] ولا يتوقى الغلمان عليه، فقال: اغسل وجهك، فإنك بعد المصافحة لمست وجهك. فقال: نعم. وغسل وجهه.

[٢٢٤] ولما خرج صلاح الدين إلى الإفرنج نوبة الرملة جاء الشيخ الخبوشاني إلى وداعه، والتمس منه أموراً من المكوس يسقطها عن الناس، فلم يفعل، فقال له الشيخ: قم لا نصرك الله، ووكزه بعصاه، فوقعت قلنسوة السلطان عن رأسه، فوجم لها، ثم توجه إلى الحرب فكسر، وعاد إلى الشيخ، فقبل يده، وعرف أن ذلك بسبب دعوته.

[٢٢٥] وكان تقي الدين عمر بن أخي السلطان له مواضع يُباع فيها

---

(١) العنان: الحبل الذي تشد به الدابة.

المِزْرِ[1]، فكتب الشيخ ورقة إلى صلاح الدين: إن هذا عمر، لا جبره الله، يبيع المزر. فسيرها صلاح الدين إلى عمر، وقال: لا طاقة لنا بهذا الشيخ، فأرضه. فركب إليه، فقال له حاجبه: قف بباب المدرسة حتى أسبقك إليه فأوطِّئ لك، فدخل وقال: إن تقي الدين يسلم عليك.

فقال الشيخ: بل شقي الدين، لا سلم الله عليه.

فقال: إنه يعتذر ويقول: ليس لي موضعٌ يباع فيه المزر.

فقال: يكذب.

فقال: إن كان هناك موضع مزر فأرناه.

فقال الشيخ: ادن، وأمسك ذؤابتيه وجعل يلطم على وجهه وخديه، ويقول: لست مزّاراً فأعرف مواضع المزر، فخلصوه من يده، وخرج إلى تقي الدين، وقال: فديتك بنفسي.

[٢٢٦] وعاش الشيخ نجم الدين عمره لم يأكل من وقف المدرسة لقمة، ولا أخذ من مال الملوك درهماً، ودفن في الكساء الذي صحبه من خبوشان، وكان بمصر رجلٌ تاجر من بلده يأكل من ماله.

[٢٢٧] ودخل يوماً القاضي الفاضل وزير السلطان لزيارة الشافعي، فوجده يُلقي الدرس على كرسي ضيق، فجلس على طرفه وجنبه إلى القبر، فصاح الشيخ فيه: قم قم، ظهرك إلى الإمام! فقال الفاضل: إن كنت مستدبره بقالبي فأنا مستقبله بقلبي، فصاح فيه أخرى وقال: ما تُعُبِّدنا بهذا.

(١) المزر، بكسر الميم: نبيذ يتخذ من الذرة. وقيل: من الشعير أو الحنطة.

قلت: وهو يشبه ما يصنع في الحجاز ويسمى: السُوبْيا.

فخرج، وهو لا يعقل[(١)].

[٢٢٨] توفى الشيخ نجم الدين في ذي القعدة سنة سبع وثمانين وخمسمائة، وعلى يده كان خراب بيت العبيديين الرفضة الذين يزعمون أنهم فاطميون[(٢)].

الحِصْني

إبراهيم بن الحسن بن طاهر، أبو طاهر الحموي، المعروف بالحصني.

من فقهاء دمشق.

ولد في ذي الحجة سنة خمس وثمانين وأربعمائة، بحماة. وتفقه ببغداد.

[٢٢٩] وقدم دمشق، واجتمع بالملك العادل نور الدين، وحكى عن نفسه أنه كان عنده يوماً بقلعة دمشق، وأن نور الدين التفت إلى كاتبه، وقال: اكتب إلى نائبنا بمعرة النعمان ليقبض على جميع أملاك أهلها، فقد صح عندي أن أهل المعرة يتقارضون الشهادة، فيشهد أحدهم لصاحبه في ملك ليشهد له ذلك في مِلك آخر، فجميع ما في أيديهم بهذا الطريق.

قال: فقلت له:

اتق الله، فإنه لا يتصور أن يتمالأ أهل بلد على شهادة الزور.

---

(١) كان الشيخ رحمه الله تعالى خشناً، وما ينبغي له أن ينكر على القاضي الفاضل هذا الإنكار لمجرد أمر أقصى ما يصل إليه أنه خلاف الأولى.

(٢) «طبقات الشافعية الكبرى»: ٧/١٤-٢١.

فقال: صح عندي ذلك.

فكتب الكاتب الكتاب، ودفعه إليه ليعلم عليه، وإذا بصبي راكب بهيمة على نهر بردى، وهو ينشد:

اعـــدلوا مـــادام أمـــركم نافـــذاً في النفـــع والـــضرر
واحفظـــوا أيـــام دولـــتكم إنكـــم منهـــا علـــى خطـــر
إنمـــا الـــدنيا وزينتهـــا حُـــسْنُ مـــا يبقـــى مـــن الخـبر

قال: فاستدار إلى القبلة، وسجد واستغفر الله، ثم مزق الكتاب، وتلا قوله تعالى: ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾[1].

توفى الحصني بدمشق، في صفر سنة إحدى وستين وخمسمائة[2].

أبو إسحاق العراقي

إبراهيم بن منصور بن مُسلّم.، أبو إسحاق العراقي، الفقيه المصري شارح «المهذب». إمام الجامع العتيق بمصر وخطيبه.

كان في مبدأ عمره يعمل النُشّاب[3] في القاهرة.

[٢٣٠] قال ابن القليوبي في «مناقب الفقيه أبي الطاهر»: سمعت والدي يقول: كان سبب اشتغاله بالعلم أنه اشترى جارية وباتت عنده، فلما أصبح أتى إلى حانوته على عادته، فقال له بعض جيرانه: كيف وجدت جاريتك

(١) سورة البقرة: آية ٢٧٥.

(٢) «طبقات الشافعية الكبرى»: ٧/٣٢-٣٣.

(٣) أي الأسهم.

البارحة؟ فقال له آخر: كيف يجتمع معها قبل أن يستبرئها.

فقال: وما الاستبراء؟

فقال: أن تحيض في ملكك.

فتجرد لطلب العلم، ورحل إلى العراق، وفتح عليه هناك، وأقام مدة، ثم قدم مصر، ومن ثم عرف بالعراقي.

ولد سنة عشر وخمسمائة.

وكان معظماً في القاهرة، وعنه أخذ فقهاؤها، منهم الفقيه أبو الطاهر خطيب مصر، وغيره.

وكان رجلاً ورعاً، ذا حال حسنة.

توفي سنة ست وتسعين وخمسمائة[1].

القَايِنيّ

الجنيد بن محمد بن علي ،الشيخ أبو القاسم بن أبي منصور، الفقيه الصوفيّ.

شارك في الاسم والكنية، واسم الأب، والصوفية والتفقه سيد الطائفة: أبا القاسم الجنيد رحمه الله تعالى.

وكان والده يعرف بالدباغ.

مولد هذا سنة اثنتين وستين وأربعمائة.

قال ابن السمعاني:

(١) «طبقات الشافعية الكبرى»: ٣٧/٧- ٣٩

كان إماماً فاضلاً متقناً ورعاً، عالماً عاملاً بعلمه، كثير العبادة، دائم التهجد والتلاوة.

قال: وكان شيخ الصوفية في رباط فيروزآباد، بظاهر هَراة، أربعين سنة، ومقدمهم. وأطنب في وصفه، في كتاب «التحبير».

وقال: توفى بهراة ليلة الاثنين، ودفن من الغد الرابع عشر من شوال، سنة سبع وأربعين وخمسمائة، ببيت الريح، وصُليَّ عليه في الجامع.

[٢٣١] أخبرنا الجنيد بن محمد الصوفي، أخبرنا أبو الفضل الطبسي، أخبرنا أبو الحسن الفارسي، سمعت أحمد بن يعقوب بن عبدالجبار القرشي يقول:

دخلت مع خالي بغداد سنة ثلاث وثلاثمائة، وبغداد تغلي بالعلماء والأدباء والشعراء، وأصحاب الحديث، وأهل الأخبار، والمجالس عامرة، وأهلها متوافرون، فأردت أن أطوف المجالس كلها، وأخبر أخبارها، فقيل لي: إن هاهنا شيخاً يقال له: أبو العَبَرْ طز أملح الناس، يُحدث بالأعاجيب، فقلت لخالي: مل بنا ندخل على الشيخ، فقال: إنه مهَوّس، يضحك منه الناس، فارتحلنا من بغداد، ولم ندخل عليه، وكنت أجد في القلب من ذلك ما أجد، حتى إذا كان انحداري من الشام، بعد طول من المدة، فلما دخلت بغداد، سألت عنه، فقيل: إنه يعيش، وله مجلسٌ، فقمت وعمدت إلى الكاغد والمحبرة، وقصدت الشيخ، فإذا الدار مملوءة من أولاد الملوك والأغنياء، بأيديهم الأقلام يكتبون، وإذا مُستملٍ قائمٌ في صحن الدار، وإذا شيخ في صحن الدار، ذو جمال وهيبة، قد وضع في رأسه طاق خُفٍّ

مقلوب، مشتمل بفرو أسود، وجعل الجلد مما يلي بدنه، فجلست في أخريات القوم، وأخرجت الكاغد، وانتظرت ما يذكر من الإسناد، فلما فرغوا قال الشيخ: حدثنا الأول، عن الثاني، عن الثالث أن الزَّنج والزُّط كلهم سود.

وحدثني حرياق، عن يقاق، عن رياق، قال: مطر الربيع ماء كله. وحدثني دُرَيد، عن وريد عن رشيد، قال: الضرير يمشي رويد.

قال أبو بكر أحمد بن يعقوب: فتعجبت من أمره، وتطلَّبت به خلوة في أيام، أعود إليه كل يوم فلا أصل إليه، حتى كانت الليلة التي يخرج فيها الناس إلى الغدير، اجتزت بباب داره، فإذا الدار ليس فيها أحد، فدخلت فإذا أنا بالشيخ وحده جالسٌ في صدر الدار، فدنوت منه، فسلمت عليه، فرحّب بي وأدناني، وجعل يسألني، ورأيت منه من جميل المُحيا والعقل والظرافة والأدب ما تحيرت، فقال لي: هل من حاجة؟ فقلت: نعم، تحيَّرت في أمر الشيخ وما هو مدفوعٌ إليه، مما لا يليق بعقله وحسن أدبه وفصاحته، فتنفس تنفساً شديداً، ثم قال: يا بني إن الاضطرار رفع الاختيار، إن السلطان أرادني على عمل لم أكن أطيقه، وحبسني في المطبق أيام حياته، فلما ولي ابنه عرض عليّ ما عرضه أبوه، فأبيت فردني إلى أسوأ حال، وذهب من يدي ما كنت أملكه، فاخترت سلامة الدين، ولم أتعرض لشيء من الدنيا بشيء من ديني، وصنت العلم عما لا يليق به، ولم أجد وجهاً للخلاص، فتحامقت ونجوت، فها أناذا في رغدٍ من العيش[1].

---

(١) «طبقات الشافعية الكبرى»: ٥٤/٧-٥٦.

الصَعْبي

عبدالله بن يحيى بن أبي الهيثم بن عبدالسميع الصَعْبي.

كان إماماً فاضلاً ورعاً زاهداً، من أهل اليمن.

قال ابن سمرة:

[٢٣٢] رُوي أن أناساً ضربوا الصعبي بالسيوف، فلم تقطع سيوفهم فيه، فسئل عن ذلك فقال: كنت أقرأ سورة يس.

قال ابن سمرة: والمشهور أن الصعبي قال وقد سئل عن ذلك: كنت أقرأ: ﴿وَلَا يَئُودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾[١].

﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾[٢].

﴿وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ﴾[٣].

﴿وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾[٤].

﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾[٥].

﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾

(١) سورة البقرة: آية ٢٥٥.

(٢) سورة يوسف: آية ٦٤.

(٣) سورة الصافات: آية ٧.

(٤) سورة فصلت: آية ١٢.

(٥) سورة الطارق: آية ٤.

﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ۝١٥ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾[١] إلى آخر السورة.

[٢٣٣] قال: وكان الصعبي يقول: كنت خرجت يوماً مع جماعة، فرأينا ذئباً يُلاعب شاة عجفاء ولا يضرها بشيء، فلما دنونا نفر عنها الذئب، فوجدنا في رقبة الشاة كتاباً مربوطاً، فحللناه، فقرأنا فيه هذه الآيات.

مات الصعبي سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة، وهو ابن ثمان وسبعين سنة[٢].

السُهْرَوَرْدي

عبدالقاهر بن عبدالله بن محمد بن عَمُّويه.

الشيخ أبو النجيب السُهْرَوَرْدي.

الصوفي الزاهد الفقيه، الإمام الجليل، أحد أئمة الطريقة ومشايخ الحقيقة، من هداة الدين وأئمة المسلمين.

ولد في صفر سنة تسعين وأربعمائة.

كان من أهل سُهْرَوَرْد، ثم قدم بغداد، وتفقه بالمدرسة النظامية، وبرع في المذهب، ، وسمع الحديث، ثم ولي تدريس النظامية، فدرس بها مدة، ثم انصرف عنها.

---

(١) سورة البروج: آية ١٢-١٦.

(٢) «طبقات الشافعية الكبرى»: ٧/١٤٠-١٤١.

[٢٣٤] وصحب الشيخ أحمد الغزالي[١]، وهب له نسيم التوفيق، ودله على سواء الطريق، فانقطع عن الناس وآثر العزلة والخلوة، واشتملت المريدون عليه، وعمت بركته، وبقي عدة سنين يستقي بالقربة على ظهره بالأجرة، ويتقوت بذلك ويقوت من عنده من الأصحاب، وكانت له خربة على دجلة يأوي إليها هو وأصحابه، واشتهر اسمه وبعد صيته واستفاضت كراماته، وبنى تلك الخربة رباطاً، وبنى إلى جانبها مدرسة فصارا حمى لمن التجأ إليه من الخائفين، يجير من السلطان والخليفة وغيرهما، وأفلح بسببه خلق، وأملى مجالس وصنف مصنفات، واتفقت له في بدايته مجاهداتٌ كثيرة، واجتمع بسادات.

[٢٣٥] وحكى عن نفسه قال:

كنت أدخل على شيخي، وربما يكون اعتراني بعض الفتور عما كنت عليه من المجاهدة، فيقول لي: أراك قد دخلت وعليك ظلمة! فأعلم سبب ذلك وكرامة الشيخ، وكنت أبقى اليومين والثلاثة لا أستطعم بزاد، وكنت أنزل إلى دجلة، وأتقلب في الماء ليسكن جوعي حتى دعتني الحاجة إلى أن اتخذت قربة أستقي بها الماء للقوت، فمن أعطاني شيئاً أخذته، ومن لم يعطني تركته، ولما تعذر علي ذلك في الشتاء خرجت يوماً إلى بعض الأسواق فوجدت رجلاً وبين يديه طبرزد وعنده جماعة يدقون الأرز، فقلت: هل لك أن تستأجرني؟ فقال: أرني يديك، فأريته، فقال: هذه يدٌ لا تصلح إلا للقلم، ثم ناولني قرطاساً فيه ذهب، فقلت: ما آخذ إلا أجرة عملي، فاستأجرني على النسخ إن كان لك نسخ وإلا انصرفت، وكان رجلاً يقظاً، فقال: اصعد، قال لغلامه: ناوله المدقة، فناولني فدققت معهم، وليس لي

(١) أخو الشيخ أبي حامد الغزالي رحمهما الله تعالى.

عادة، وصاحب الدكان يلحظني، فلما عملت ساعة قال: تعال، فجئت إليه، فناولني الذهب، وقال: هذه أجرتك، فأخذته وانصرفت.

ثم أوقع الله في قلبي الاشتغال بالعلم، فاشتغلت حتى أتقنت المذهب، وقرأت أصول الدين، وأصول الفقه وحفظت «وسيط» الواحدي، في التفسير، وسمعت كتب الحديث المشهورة.

توفى الشيخ أبو النجيب في جمادى الآخرة سنة ثلاث وستين وخمسمائة[1].

الغزنوي

محمد بن سام ،أبو المظفر الغزنوي، السلطان شهاب الدين، صاحب غزنة، أحد المشكورين من الملوك، الموصوفين بمحبة العلماء، وإحضارهم للمناظرة عنده.

[٢٣٦] وهو الذي قال له الإمام فخر الدين الرازي في موعظة وعظها له على المنبر: يا سلطان العالم لا سلطانك يبقى، ولا تلبيس الرازي يبقى، ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾[2].

[٢٣٧] ملك غزنة، و الهند، وكثيراً من بلاد خراسان، وكان شافعي المذهب، أشعري العقيدة، له بلاء حسن في الكفار.

---

(١) «طبقات الشافعية الكبرى»: ٧/١٧٣-١٧٥.

(٢) سورة غافر: آية ٤٣.

[٢٣٨] قتلته الباطنية اغتيالاً، جهزهم الكفار عليه، لشدة ما أنكى فيهم، فإنه كان جاهد في الكفار، وأوسعهم قتلاً ونهباً وأسراً، فجهزوا عليه الباطنية، فقتلوه بعد عوده من لهاور، في شعبان، سنة اثنتين وستمائة(١).

الإسكندراني

محمد بن عبدالله بن الحسن الصفراوي الإسكندراني، شرف الدين ابن عين الدولة.

مولده في عام ٥٥١هـ بالإسكندرية، وتفقه وسمع الحديث.

وناب في الحكم بالقاهرة عن قاضي القضاة عماد الدين بن السكري، وكان يوقع عنه، فلما توفي ولي ابن عين الدولة قضاء القضاة بالقاهرة والوجه البحري، وولي تاج الدين ابن الخراط مصر والوجه القِبلي، ثم لما صرف ابن الخراط، جمع لابن عين الدولة العَمَلان، وذلك في سنة سبع عشرة وستمائة، فلم يزل إلى أن عزل عن مصر والوجه القبلي بالقاضي بدر الدين ابن السنجاري، في سنة تسع وثلاثين، وبقي قاضياً بالقاهرة والوجه البحري فقط.

كان فقيهاً فاضلاً، عارفاً بالشروط، أديباً يحفظ كثيراً من الأشعار والحكايات، مزوحاً، يحكى عنه نوادر كثيرة، ديناً، مُصَمِّماً، وكانت نوادره لا يخرجها إلا بسكون وناموس.

[٢٣٩] ومن شعره:

---

(١) «طبقات الشافعية الكبرى»: ٨/٦٠-٦١. ولهاور هي لاهور اليوم.

وليت القضاء وليت القضا ء لم يك شيئاً توليته
وقد ساقني للقضاء القضا ء وما كنت قِدْماً تمنيته

توفى بمصر في سابع عشر ذي القعدة، سنة تسع وثلاثين وستمائة.

[٢٤٠] **ذِكْر الحكاية العجيبة، المشهورة عنه في عجيبة:**

وعجيبة مغنية كانت بمصر، على عهد السلطان الملك الكامل ابن أيوب، ويذكر أن الكامل كان مع تصميمه بالنسبة إلى أبناء جنسه تحضر إليه ليلاً، وتغنيه بالجَنْك[١] على الدف، في مجلس بحضرة ابن شيخ الشيوخ وغيره، وأولع الكامل بها جداً، ثم اتفقت قضية شهد فيها الكامل عند ابن عين الدولة، وهو في دَسْت ملكه[٢]، فقال ابن عين الدولة: السلطان يأمر ولا يشهد، فأعاد عليه السلطان الشهادة، فأعاد القاضي القول، فلما زاد الأمر، وفهم السلطان أنه لا يقبل شهادته، قال: أنا أشهد، تقبلني أم لا؟ فقال القاضي: لا، ما أقبلك، وكيف أقبلك وعجيبة تطلع إليك بجنكها كل ليلة، وتنزل ثاني يوم بكرة وهي تتمايل سكراً على أيدي الجواري، وينزل ابن الشيخ من عندك أنجس مما نزلتْ، فقال له السلطان: يا كنواخ، وهي كلمة شتم بالفارسية، فقال: ما في الشرع يا كنواخ، اشهدوا عليّ أني قد عزلت نفسي، ونهض، فجاء ابن الشيخ إلى الملك الكامل وقال: المصلحة إعادته، لئلا يقال: لأي شيء عزل القاضي نفسه، وتطير الأخبار إلى بغداد، ويشيع أمر عجيبة، فقال له: صدقت، ونهض إلى القاضي، وترضاه، وعاد إلى القضاء.

---

(١) الجنك آلة للطرب، معرب.

(٢) أي سرير ملكه.

قلت: وهذه حكاية يستحسنها المؤرخين؛ لما فيها من تصميم القاضي، غافلين عن وجهها الفقهي، وقد يقال: إن كان الفسق عند ابن عين الدولة مخرجاً للسلطان عن الأهلية فذلك يعود على ولايته القضاء التي وليها من قِبَله بالإبطال.

وجواب هذا أن الفسق لا ينعزل به السلطان على الصحيح من المذهب[1].

الــــرازي

محمد بن عمر بن حسن التيمي، البكري، الإمام فخر الدين الرازي

ولد سنة ٥٤٣هـ

واشتغل على والده الشيخ ضياء الدين عمر، وكان من تلامذة محيى السنة أبي محمد البغوي، وقرأ الحكمة على المجد الجيلي بمراغة، وتفقه على الكمال السمناني، ويقال: إنه حفظ «الشامل» في علم الكلام لإمام الحرمين.

وكان أول أمره فقيراً، ثم فتحت عليه الأرزاق، وانتشر اسمه، وبعد صيته، وقصد من أقطار الأرض لطلب العلم.

وكان له يد طولى في الوعظ باللسان العربي والفارسي، ويلحقه فيه حالٌ، وكان من أهل الدين والتصوف، وله يد فيه، وتفسيره ينبئ عن ذلك.

وعبر إلى خوارزم بعد ما مهر في العلوم، فجرى بينه وبين المعتزلة مناظرات أدت إلى خروجه منها، ثم قصد ما وراء النهر فجرى له أشياء نحو ما جرى بخوارزم، فعاد إلى الري ثم اتصل بالسلطان شهاب الدين الغوري،

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى»: ٨/٦٣-٦٦.

وحظي عنده، ثم بالسلطان الكبير علاء الدين خوارزمشاه محمد بن تكش، ونال عنده أسنى المراتب، واستقر عنده بخراسان.

واشتهرت مصنفاته في الآفاق، وأقبل الناس على الاشتغال بها، ورفضوا كتب المتقدمين.

وأقام بهراة، وكان يلقب بها شيخ الإسلام، وكان كثير الإزراء بالكَرّامية[١]، فقيل: إنهم وضعوا عليه من سقاه سمّاً، فمات.

[٢٤١] وكان خوارزمشاه يأتي إليه، وكان إذا ركب يمشي حوله نحو ثلاثمائة نفس من الفقهاء وغيرهم.

وكان شديد الحرص جداً في العلوم، وأصحابه أكثر الخلق تعظيماً له، وتأدباً معه، له عندهم المهابة الوافرة.

[٢٤٢] وصية الرازي:

يقول العبد الراجي رحمة ربه، الواثق بكرم مولاه، محمد بن عمر بن الحسن الرازي، وهو في أول عهده بالآخرة وآخر عهده بالدنيا، وهو الوقت الذي يلين فيه كل قاس، ويتوجه إلى مولاه كل آبق:

أحمد الله بالمحامد التي ذكرها أعظم ملائكته في أشرف أوقات معارجهم، ونطق بها أعظم أنبيائه في أكمل أوقات شهادتهم، وأحمده بالمحامد التي يستحقها، عرفتها أو لم أعرفها؛ لأنه لا مناسبة للتراب مع رب الأرباب.

وصلواته على ملائكته المقربين، والأنبياء والمرسلين، وجميع عباد الله

---

(١) فرقة من المجسمة تنتسب إلى محمد بن كَرّام السجستاني.

الصالحين.

اعلموا أخلائي في الدين، وإخواني في طلب اليقين، أن الناس يقولون: إن الإنسان إذا مات انقطع عمله وتعلقه عن الخلق، وهذا مخصص من وجهين؛ الأول أنه إن بقي منه عملٌ صالحٌ صار ذلك سبباً للدعاء، والدعاء له عند الله تعالى أثر، الثاني ما يتعلق بالأولاد، وأداء الجنايات.

[٢٤٣] أما الأول فاعلموا أني كنت رجلاً محباً للعلم، فكنت أكتب من كل شيء شيئاً لأقف على كميته وكيفيته، سواء كان حقاً أو باطلاً، إلا أن الذي نطق به في الكتب المعتبرة أن العالم المخصوص تحت تدبير مدبره المنزه عن مماثلة التحيزات موصوف بكمال القدرة والعلم و الرحمة، ولقد اختبرت الطرق الكلامية، والمناهج الفلسفية، فما رأيت فيها فائدة تساوي الفائدة التي وجدتها في القرآن؛ لأنه يسعى في تسليم العظمة والجلال لله، ويمنع عن التعمق في إيراد المعارضات والمناقضات، وما ذاك إلا للعلم بأن العقول البشرية تتلاشى في تلك المضايق العميقة، والمناهج الخفية، فلهذا أقول: كل ما ثبت بالدلائل الظاهرة، من وجوب وجوده، ووحدته، وبراءته عن الشركاء، كما في القدم، والأزلية، والتدبير، والفعالية، فذلك هو الذي أقول به، وألقى الله به، وأما ما ينتهي الأمر فيه إلى الدقة والغموض، وكل ما ورد في القرآن والصحاح، المتعين للمعنى الواحد، فهو كما قال، والذي لم يكن كذلك أقول: يا إله العالمين، إني أرى الخلق مطبقين على أنك أكرم الأكرمين، وأرحم الراحمين، فكل ما مدَّه قلمي، أو خطر ببالي، فأستشهد وأقول: إن علمتَ مني أني أردت به تحقيق باطل، أو إبطال حق، فافعل بي ما أنا أهله، وإن علمت مني أني ما سعيت إلا في تقديسٍ اعتقدت أنه الحق، وتصورت أنه الصدق، فلتكن

رحمتك مع قصدي لامع حاصلي، فذاك جهد المقل، وأنت أكرم من أن تضايق الضعيف الواقع في زلة، فأغثني، وارحمني، واستر زلتي، وامح حَوْبتي، يا من لا يزيد ملكَه عرفان العارفين، ولا ينقص ملكه بخطأ المجرمين.

وأقول: ديني متابعة الرسول محمد ﷺ، وكتابي القرآن العظيم، وتعويلي في طلب الدين عليهما.

اللهم يا سامع الأصوات، ويا مجيب الدعوات، ويا مقيل العثرات، أنا كنت حسن الظن بك، عظيم الرجاء في رحمتك، وأنت قلت: «أنا عند ظن عبدي بي»، وأنت قلت: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾(١)، فهب أني ما جئت بشيء، فأنت الغني الكريم، فلا تخيب رجائي، ولا ترد دعائي، واجعلني آمناً من عذابك، قبل الموت، وبعد الموت، وعند الموت، وسهل علي سكرات الموت، فإنك أرحم الراحمين.

وأما الكتب التي صنفتها، واستكثرت فيها من إيراد السؤالات، فليذكرني من نظر فيها بصالح دعائه، على سبيل التفضل والإنعام، وإلا فليحذف القول السيئ؛ فإني ما أردت إلا تكثير البحث، وشحذ الخاطر، والاعتماد في الكل على الله.

[٢٤٤] الثاني؛ وهو إصلاح أمر الأطفال، فالاعتماد فيه على الله.

ثم إنه سرد وصيته في ذلك، إلى أن قال:

[٢٤٥] وأمرت تلامذتي، ومن لي عليه حق، إذا أنا مِت يبالغون في

---

(١) سورة النمل: آية ٦٢.

إخفاء موتي، ويدفنوني على شرط الشرع، فإذا دفنوني قرأوا عليَّ ما قدروا عليه من القرآن، ثم يقولون: يا كريم، جاءك الفقير المحتاج، فأحسن إليه.

هذا آخر الوصية.

[٢٤٦] وقال الإمام في «تفسيره» وأظنه في سورة يوسف عليه السلام:

والذي جربته من طول عمري أن الإنسان كلما عول في أمر من الأمور على غير الله، صار ذلك سبباً للبلاء والمحنة، والشدة والرزية، وإذا عول على الله، ولم يرجع إلى أحد من الخلق، حصل ذلك المطلوب على أحسن الوجوه، فهذه التجربة قد استمرت لي من أول عمري إلى هذا الوقت، الذي بلغت فيه إلى السابع والخمسين، فعند هذا أسفر قلبي على أنه لا مصلحة للإنسان في التعويل على شيء سوى فضل الله وإحسانه، انتهى.

قلت: وما ذكره حق، ومن حاسب نفسه وجد الأمر كذلك، وإن فرض أحد عول في أمر على غير الله وحصل له، فاعلم أنه لا يخلو عن أحد رجلين؛ إما رجل ممكور به، والعياذ بالله، وإما رجلٌ يطلب شراً وهو يحسب أنه خيرٌ لنفسه، ويظهر له ذلك بعاقبة ذلك الأمر، فما أسرع انقلابه في الدنيا قبل الآخرة إلى أسوأ الأحوال، ومن شاء اعتبار ذلك فليحاسب نفسه.

واعلم أن هذه الجملة من كلام الإمام دالةٌ على مراقبته طول وقته، ومحاسبته لنفسه، رضي الله عنه، وقبح من يسبه، أو يذكره بسوء حسداً وبغياً من عند نفسه.

توفى الإمام، رحمه الله، بهراة، في يوم الاثنين، يوم عيد الفطر، سنة ست وستمائة.

[من الفوائد عنه]:

[٢٤٧] اختار الإمام في «التفسير» في سورة الإسراء أن الجمادات وغير المكلف من البهائم أنها تسبح الله بلسان الحال، ولا تسبح له بلسان المقال، واحتج بما لم ينهض عندنا.

وفصَّل قومٌ، فقالوا: كل حي ونامٍ يسبح دون ما عداه، وعليه قول عكرمة: الشجرة تسبح، والاسطوانة لا تسبح.

وقال يزيد الرقاشي للحسن، وهما يأكلان طعاماً، وقد قدم الخوان: أيسبح هذا الخوان أبا سعيد؟ فقال: قد كان يسبح ثمره. يريد أن الشجرة في زمن ثمرها واعتدالها ذات تسبيح، وأما الآن فقد صار خوانا مدهونا.

ويستدل لهذا، بما ثبت من حديث ابن عباس، أن النبي ﷺ مر بقبرين، فقال: «إنهما ليعذبان» وفيه: أنه دعا بعسيب رطب، وشقه باثنين، وغرس على هذا واحداً، وعلى هذا واحداً، ثم قال: «لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا» فإن فيه إشارة إلى أنهما ماداما رطبين يسبحان، وإذا يبسا صارا جمادا.

وذهب قومٌ إلى أن كل شيء من جماد وغيره يسبح بلسان المقال، وهذا هو الأرجح عندنا؛ لأنه لا استحالة فيه، ويدل له كثيرٌ من النقول، قال تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ۝٩٠ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾[2].

---

(١) سورة ص: آية ١٨.

(٢) سورة مريم: آية ٩٠، ٩١.

وقال ﷺ، كما روى ابن ماجه: «لا يسمع صوت المؤذن جن ولا إنس، ولا شجر ولا حجر ولا مدر، ولا شيء، إلا شهد له يوم القيامة».

وفي «صحيح البخاري» أنهم كانوا يسمعون تسبيح الطعام وهو يؤكل عند النبي، ﷺ، وفي «صحيح مسلم» أن رسول الله ﷺ، قال: «إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم علي قبل أن أُبعث»، وخبر الجذع في هذا الباب مشهورٌ.

وروى ابن المبارك في «رقائقه» أن ابن مسعود، قال: إن الجبل ليقول للجبل: هل مر بك اليوم ذاكرٌ لله، فإن قال: نعم، سُرّ به.

إلى غير ذلك من أخبار وآيات تشهد لمن يحمل قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾[1]، على عمومه، غير أنا نقول: لا نسلم من تسبيحها بلسان المقال أنا نسمعها، إنما يكون ذلك على سبيل المعجزة، كما كانوا يسمعون تسبيح الطعام عند المصطفى ﷺ، أو على وجه الكرامة.

[٢٤٨] ومن شعر الإمام:

نهاية إقدام العقول عقال ... وأكثر سعى العالمين ضلال
وأرواحنا في غفلة من جسومنا ... وحاصل دنيانا أذى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا ... سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا
وكم من جبال قد علت شرفاتِها ... رجال فزالوا والجبال جبال
وكم قد رأينا من رجال ودولة ... فبادوا جميعاً مزعجين وزالوا[2]

(١) سورة الإسراء: آية ٤٤.

(٢) «طبقات الشافعية الكبرى»: ٨/٨١-٩٦.

ابن عساكر

أبو البركات، الحسن بن محمد بن الحسن ، ابن عساكر، زين الأمناء الدمشقي.

أحد أئمة الإسلام؛ علماً، وديناً، وروعاً، وزهداً.

ولد في سلخ ربيع الأول، سنة أربع وأربعين وخمسمائة.

[٢٤٩]كان فقيهاً، صالحاً، ورعاً، كثير الصلاة، متجرداً للعبادة، جزأ الليل ثلاثة أجزاء، ثلثاً للتلاوة والتسبيح، وثلثاً للنوم، وثلثاً للعبادة والتهجد، وكذلك معظم نهاره، وكان لذلك يقال له السجاد، وبالجملة كان من الأئمة الأوابين، وقد رأى بعضهم عثمان بن عفان، رضي الله عنه، وهو يعتنقه، ويسلم عليه، فقيل: يا أمير المؤمنين، أهكذا تسلم على زين الأمناء! فقال: نعم، إنه من الأوابين، وقد أهديت له تمراً صيحانياً[1]. وكان أخوه أبو الفضل في الحجاز، فلما قدم من الحج، قال له: يا أخي قد جئتك بعلبة فيها تمرٌ، قيل: إنه من غرس عثمان أو علي. فقال زين الأمناء: بل من غرس عثمان: وقص عليه القصة.

[٢٥٠] وكان يقول:

ما أفطرت في رمضان منذ صمت قط؛ لا بمرض ولا غيره، بل كنت أمرض قبله أو بعده، وسلم لي نيف وسبعون رمضان، فلم أفطر فيها يوماً.

وولى نظر الخزانة، ونظر الأوقاف بدمشق، ثم أعرض عنها، وأقبل

(١) الصيحاني: من تمر المدينة، نسبة إلى صيحان لكبش كان يربط إليها، أو اسم الكبش الصياح.

على شأنه، وأجمع الناس على عظم قدره في الدين.

[٢٥١] وأقعد زين الأمناء بأَخَرَة، فصار يُحمل في مِحَفّة إلى الجامع من أجل الصلاة، وإلى دار الحديث النورية من أجل إسماع الحديث.

مات في سنة سبع وعشرين وستمائة[١].

ابن الحرستاني

جمال الدين، أبو القاسم ابن الحرستاني، عبدالصمد بن محمد بن أبي الفضل، الأنصاري الخزرجي العُبادِي السعدي الدمشقي.

أحد الأجلة من الفقهاء البارعين في المذهب، الزاهدين الورعين، وكان من قضاة العدل، رحمه الله.

ولد في أحد الربيعين، سنة عشرين وخمسمائة.

ولي القضاء بدمشق نيابة عن أبي سعد بن أبي عصرون، ثم ولي قضاء الشام في آخر عمره سنة اثنتي عشرة[٢]، عُمِّر

(١) طبقات الشافعية الكبرى»: ٨/١٤١-١٤٢.

(٢) في الطبقات الوسطى بعد هذا زيادة:

«ودرس بالمدرسة العزيزية.

ويقال: إنه كان يحفظ «الوسيط».

وعليه تفقه سلطان العلماء ابن عبدالسلام أولاً، ثم انتقل إلى الشيخ فخر الدين ابن عساكر، وكان سلطان العلماء يعظمه في الفقه.

[٢٥٢] وكان يجلس للحكم في المدرسة المجاهدية، وكان صارماً، عادلاً، عفيفاً، ورعاً، نزهاً، لم تفته صلاةٌ في جامع دمشق في جماعة إلا لمرض.

دهراً طويلاً، وتوفي في سنة ٦١٤هـ[١].

الدِيرِينيّ

عبدالعزيز بن أحمد بن سعيد الدَمِيريّ الديريني، الشيخ الزاهد، القدوة.

كان متردداً في الريف وبالنواحي من ديار مصر.

ولد سنة اثنتي عشرة وستمائة، وتوفي سنة أربع وتسعين وستمائة.

[٢٥٤] كان سليم الباطن، حسن الأخلاق، حكى أنه دخل إلى المحلة الغربية في بعض أسفاره، وعليه عمامةٌ متغيرة اللون، فظنها بعض من رآه زرقاء[٢]، فقال: قل أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله. فقالها، فنزع العمة من رأسه، وقال له: اذهب إلى القاضي لتسلم على يديه. فمضى معه وتبعهم صبيان وخلق كثير، على عادة من يسلم، فلما نظره القاضي عرفه، فقال له: ما هذا يا سيدي الشيخ! قال: قيل لي: قل الشهادتين. فقلتهما، فقيل: امض معنا إلى القاضي لتنطق بهما بين يديه،

---

[٢٥٣] وتداعى إليه خصمان، وجاء أحدهما بكتاب الملك العادل إلى القاضي يوصيه عليه، فلم يفتحه، وظهر الحق لخصم حامل الكتاب، فقضى له عليه، ثم فتح الكتاب وقرأه، ورمى به إلى حامله، وقال: كتاب الله قد حكم على هذا الكتاب. فبلغ العادل قوله، فقال: صدق، كتاب الله أولى من كتابي.

فرحمهما الله من إمامين عادلين، ورجلين بالحق حاكمين، ولعل السر في كونه لم يفتح الكتاب شدة احترازه على نفسه، وخوفه عليها من مداخلة وساوس الشيطان لو قرأه ورأى فيه مزيد التأكيد، وأنه لم يرد تأخير الحكم بين الخصمين لأجل قراءة الكتاب، رحمه الله.

(١) طبقات الشافعية الكبرى»: ٨/١٤١-١٤٢.

(٢) لأن العمامة الزرقاء كانت للنصارى.

فجئت.

[٢٥٥] ومن كلامه في «طهارة القلوب»:

إلهي:

عَرّفتنا بربوبيتك، وغرّقتنا في بحار نعمتك، ودعوتنا إلى دار قدسك، ونعّمتنا بذكرك وأنسك.

إلهي:

إن ظلمة ظلمنا لأنفسنا قد عمت، وبحار الغفلة على قلوبنا قد طمت، فالعجز شامل، والحصر حاصل، والتسليم أسلم، أنت بالحال أعلم.

إلهي:

ما عصيناك جهلاً بعقابك، ولا تعرضاً لعذابك، ولكن سولت لنا نفوسنا، وأعانتنا شقوتنا، وغرنا سترك علينا، وأطمعنا في عفوك برك بنا، فالآن من عذابك من يستنقذنا؟ وبحبل من نعتصم إن قطعت حبلك عنا؟ وَاخَجْلتَنَا من الوقوف غداً بين يديك، وَافَضيحتنا إذا عرضت أعمالنا القبيحة عليك.

اللهم اغفر ما علمت، ولا تهتك ما سترت.

إلهي:

إن كنا عصيناك بجهل فقد دعوناك بعقل، حيث علمنا أن لنا رباً يغفر الذنوب ولا يبالي.

وله مناجاة حسنة.

[٢٥٦] ومن شعره:

اقتـــصد في كـــل حـــال   واجتنــب شـــحاً وغرمـــاً
لا تكـــن حلـــواً فتؤكـــل   لا ولا مُـــــرا فترمــــى

[٢٥٧] ومن شعره:

إذا مـــات ذو علـــم وتقـــوى   فقـد ثُلِمت مـن الإسـلام ثُلْمـة
ومـوت العـادل الملـك المُرَجَّـى   حكـيمِ الحـق منقـصةٌ ووصـمة
ومـوت الـصالح المرضـيِّ نقـصٌ   ففـي مـرآه للإسـلام نَـسْمَة
وموت الفارس الضرغام ضعفٌ   فكم شهدت له في النصر عَزْمة
ومـوت فتـى كـثير الجـود مَحْـلٌ   فـإن بقـاءه خِـصبٌ ونعمـة
فحـسبك خمـسةٌ تبكـي علـيهم   ومـوت الغـير تخفيـفٌ ورحمـة

[٢٥٨] ومنه تخميس أبيات التهامي:

سـلم أمـورك للحكـيم البـاري   تـسلم مـن الأوصـاب والأوزار
وانظـر إلى الأخطـار في الأقطـار   حكــم المــشيئة في البريــة جــار
مـــا هـــذه الـــدنيا بـــدار قـــرار

لـذات دنيانـا كـأحلام الكـرى   وبلـوغ غايتهـا حـديثٌ مفـترى
وسـرورها بـشرورها قـد كُـدِّرا   بينـا يـرى الإنـسان فيهـا مخـبراً
ألفيتـــه خـــبراً مـــن الأخبـــار

ازهـد فكـل الـراغبين عبيـدها   والزاهـد الحـبر التقـي سـعيدها
ولقـد تـشابه وعـدها ووعيـدها   طبعت على كدر وأنـت تريـدها
صـفوا مـن الأقـذار والأكـدار

لا تغـتـرر بوميـضها وخـداعها   فـوراء مَبْسمها نيـوب سـباعها
إذ لم تُعَـرّف فَتْرهـا مـن باعهـا   ومكلـف الأيـام ضـد طباعهـا
متطلــب في المــاء جَــذْوة نــار
لا تَرْجُ من حرب المطالب مغنماً   ولربمــا جــر التخيــل مغرمــاً
وإذا رضيت الحكم عشت مكرماً   وإذا رجــوت المــستحيل فإنمــا
تــبني الرجــاء علــى شــفير هــار
الـدهر يمضي والحـوادث جمـةٌ   والرفـق هَـيْنٌ والتكالـب لحظـةٌ
والـصبر لَـيْنٌ والتـسخط غلظـة   والعــيش نــوم والمنيــة يَقْظَــةٌ
والمــرء بينهمــا خيــالٌ ســار
أعمـاركم تمـضي بسوف وربمـا   لا تغنمون سوى عسى ولعلّما
هَـمُّ المُـسَوِّف كـالتعلق بالـسما   أيــامكم تمــضي عجــالاً إنمــا
أعمــاركم ســفرٌ مــن الأســفار
وترقبوا قرب الرحيـل وحـاذروا   فـوت المـرام فللـورود مـصادر
ودعوا التعلل والفتور وصابروا   وترا كضواخيل الشباب وبـادروا
أن تُــسْتَرد فــإنهن عَــوَار
طمـس الزمـان معاهـداً ومعالمـاً   ومحـا بَغَيْهبـه البهـيم مكارمـاً
وأذال[1] مـا بـين الأنـام مراحمـاً   ليس الزمان وإن حرصت مسالماً
خُلُـق الزمـان عـداوة الأحـرار[2]

---

(١) أذال الشيء: امتهنه وابتذله.

(٢) «طبقات الشافعية الكبرى»: ٨/١٩٩-٢٠٨.

سلطان العلماء
العز بن عبدالسلام

عبدالعزيز بن عبدالسلام بن أبي القاسم السلمي.

ولد سنة ٥٧٧هـ، وتفقه وسمع الحديث وقرأ الأصول، درَّس بدمشق أيام مقامه بها بالزاوية الغزالية وغيرها، وولي الخطابة والإمامة بالجامع الأموي.

قال الشيخ شهاب الدين أبو شامة أحد تلامذة الشيخ:

[٢٥٩] وكان أحق الناس بالخطابة والإمامة، وأزال كثيراً من البدع التي كان الخطباء يفعلونها؛ من دق السيف على المنبر وغير ذلك، وأبطل صلاتي الرغائب ونصف شعبان، ومنع منهما.

[٢٦٠] قلت:

واستمر الشيخ عز الدين بدمشق إلى أثناء أيام الصالح إسماعيل المعروف بأبي الخَيْش، فاستعان أبو الخَيْش بالفرنج وأعطاهم مدينة صيداً وقلعة الشقيف، فأنكر عليه الشيخ عز الدين وترك الدعاء له في الخطبة، وساعده في ذلك الشيخ أبو عمرو ابن الحاجب المالكي، فغضب السلطان منهما، فخرجا إلى الديار المصرية في حدود سنة تسع وثلاثين وستمائة، فلما مر الشيخ عز الدين بالكرك تلقاه صاحبها وسأله الإقامة عنده، فقال له: بلدك صغيرٌ على علمي.

[٢٦١] ثم توجه إلى القاهرة، فتلقاه سلطانها الملك الصالح نجم الدين

أيوب بن الكامل، وأكرمه وولاه خطابة جامع عمرو بن العاص بمصر والقضاء بها وبالوجه القبلي مدة، فاتفق أن أستاذ داره[1] فخر الدين عثمان بن شيخ الشيوخ – وهو الذي كان إليه أمر المملكة – عمد إلى مسجد بمصر فعمل على ظهره بناء لطبل خانات، وبقيت تضرب هنالك، فلما ثبت هذا عند الشيخ عز الدين حكم بهدم ذلك البناء، وأسقط فخر الدين ابن الشيخ، وعزل نفسه من القضاء، ولم تسقط بذلك منزلة الشيخ عند السلطان، ولكنه لم يعده إلى الولاية، وظن فخر الدين وغيره أن هذا الحكم لا يتأثر به فخر الدين في الخارج، فاتفق أن جهز السلطان الملك الصالح رسولاً من عنده إلى الخليفة المستعصم ببغداد، فلما وصل الرسول إلى الديوان ووقف بين يدي الخليفة وأدى الرسالة خرج إليه وسأله: هل سمعت هذه الرسالة من السلطان؟ فقال: لا، ولكن حمّلنيها عن السلطان فخر الدين ابن شيخ الشيوخ أستاذ داره. فقال الخليفة: إن المذكور أسقطه ابن عبدالسلام، فنحن لا نقبل روايته. فرجع الرسول إلى السلطان حتى شافهه بالرسالة، ثم عاد إلى بغداد وأداها.

ثم بنى السلطان مدرسة الصالحية المعروفة بين القصرين بالقاهرة، وفوض تدريس الشافعية بها إلى الشيخ عز الدين، فباشره وتصدى لنفع الناس بعلومه.

[٢٦٢] ولما استقر مقامه بمصر أكرمه حافظ الديار المصرية وزاهدها عبدالعظيم المنذري وامتنع من الفتيا، وقال: كنا نفتي قبل حضور الشيخ عز الدين ، وأما بعد حضوره فمنصب الفتيا متعين فيه.

---

(١) الأستاذ دارية لقب مملوكي يكون صاحبه متصرفاً في شؤون المملكة تحت السلطان.

[٢٦٣] سمعت الشيخ الإمام[1] رحمه الله يقول:

سمعت شيخنا الباجي يقول: طلع شيخنا عز الدين مرة إلى السلطان في يوم عيد إلى القلعة، فشاهد العساكر مصطفين بين يديه ومجلس المملكة وما السلطان فيه يوم العيد من الأبهة، وقد خرج على قومه في زينته على عادة سلاطين الديار المصرية، وأخذت الأمراء تقبل الأرض بين يدي السلطان، فالتفت الشيخ إلى السلطان وناداه: يا أيوب، ما حجتك عند الله إذا قال لك: ألم أبوّئ لك ملك مصر ثم تبيح الخمور؟ فقال: هل جرى هذا؟ فقال: نعم، الحانة الفلانية يباع فيها الخمور وغيرها من المنكرات، وأنت تتقلب في نعمة هذه المملكة. يناديه كذلك بأعلى صوته، والعساكر واقفون.

فقال: يا سيدي، هذا أنا ما عملته، هذا من زمان أبي.

فقال: أنت من الذين يقولون: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾[2]. فرسم السلطان بإبطال تلك الحانة.

سمعت الشيخ الإمام يقول: سمعت الباجي يقول:

سألت الشيخ لما جاء من عند السلطان وقد شاع هذا الخبر: يا سيدي كيف الحال؟ فقال: يا بني رأيته في تلك العظمة فأردت أن أهينه لئلا تكبر نفسه فتؤذيه.

فقلت: يا سيدي أما خفته؟

فقال والله يا بني استحضرت هيبة الله تعالى، فصار السلطان

(١) أي والد المصنف تقي الدين السبكي.

(٢) سورة الزخرف: آية ٢٢.

قدامي كالقط.

[٢٦٤] سمعت الشيخ الإمام يقول:

كان الشيخ عز الدين في أول أمره فقيراً جداً، ولم يشتغل إلا على كبر، وسبب ذلك أنه كان يبيت في الكَلاّسة من جامع دمشق، فبات بها ليلة ذات برد شديد، فاحتلم فقام مسرعاً ونزل في بركة الكَلاّسة، فحصل له ألم شديد من البرد، وعاد فنام فاحتلم ثانياً، فعاد إلى البركة؛ لأن أبواب الجامع مغلقة وهو لا يمكنه الخروج، فطلع فأغمى عليه من شدة البرد، أنا أشك، هل كان الشيخ الإمام يحكي أن هذا اتفق له ثلاث مرات تلك الليلة أو مرتين فقط، ثم سمع النداء في المرة الأخيرة: يا ابن عبدالسلام، أتريد العلم أم العمل؟ فقال الشيخ عز الدين: العلم؛ لأنه يهدي إلى العمل. فأصبح وأخذ «التنبيه» فحفظه في مدة يسيرة، وأقبل على العلم، فكان أعلم أهل زمانه، ومن أعبد خلق الله تعالى.

سمعت الشيخ الإمام رحمه الله تعالى يقول: سمعت الشيخ صدر الدين أبا زكريا يحيى ابن علي السبكي يقول:

[٢٦٥] كان في الريف شخصٌ يقال له: عبدالله البلتاجي من أولياء الله تعالى، وكانت بينه وبين الشيخ عز الدين صداقةٌ، وكان يهدي له في كل عام، فأرسل إليه مرة حمل جمل هدية، ومن جملته وعاء فيه جبن، فلما وصل الرسول إلى باب القاهرة انكسر ذلك الوعاء وتبدد ما فيه، فتألم الرسول لذلك، فرآه شخص ذمي فقال له: لم تتألم؟ عندي ما هو خيرٌ منه. قال الرسول: فاشتريت منه بدله وجئت، فما كان إلا بقدر أن وصلت إلى باب الشيخ ولم يعلم بي ولا بما جرى لي غير الله تعالى، وإذا بشخص نزل من عند الشيخ

وقال : اصعد بما جئت ، فناولته شيئاً فشيئاً إلى أن سلمته ذلك الجبن ، فطلع ثم نزل ، فقلت : أعطيته للشيخ؟ فقال : أخذ الجميع إلا الجبن ووعاءه ، فإنه قال لي : ضعه على الباب. فلما طلعت أنا قال لي : يا ولدي ليش تفعل هذا؟ إن المرأة التي حلبت لبن هذا الجبن كانت يدها متنجسة بالخنزير. ورده وقال : سلم على أخي.

[٢٦٦] وحكى قاضي القضاة بدر الدين بن جماعة ، رحمه الله ، أن الشيخ لما كان بدمشق وقع مرة غلاء كبير حتى صارت البساتين تباع بالثمن القليل ، فأعطته زوجته مصاغاً لها وقالت : اشتر لنا به بستاناً نصيف به ، فأخذ ذلك المصاغ وباعه وتصدق بثمنه ، فقالت : يا سيدي اشتريت لنا؟ قال : نعم بستاناً في الجنة ، إني وجدت الناس في شدة فتصدقت بثمنه. فقالت له : جزاك الله خيراً.

[٢٦٧] وحكى أنه كان مع فقره كثير الصدقات ، وأنه ربما قطع من عمامته وأعطى فقيراً يسأله إذا لم يجد معه غير عمامته ، وفي هذه الحكاية ما يدل على أنه كان يلبس العمامة ، وبلغني أنه كان يلبس قبع لَبّاد ، وأنه كان يحضر المواكب السلطانية به ، فكأنه كان يلبس تارة هذا وتارة هذا ، على حسب ما يتفق من غير تكلف.

قال شيخ الإسلام ابن دقيق العيد :

كان ابن عبدالسلام أحد سلاطين العلماء.

وعن الشيخ جمال الدين ابن الحاجب أنه قال :

ابن عبدالسلام أفقه من الغزالي.

[٢٦٨] وحكى القاضي عز الدين الهكاري ابن خطيب الأشمونين في مصنف له، ذكر فيه سيرة الشيخ عز الدين، أن الشيخ عز الدين أفتى مرة بشيء ثم ظهر له أنه خطأ، فنادى في مصر والقاهرة على نفسه: من أفتى له فلان بكذا فلا يعمل به فإنه خطأ.

ذكر واقعة التتار وما كان من سلطان العلماء فيها

[٢٦٩] وحاصلها: أن التتار لما دهمت البلاد عقيب واقعة بغداد، وجبن أهل مصر عنهم، وضاقت بالسلطان وعساكره الأرض، استشاروا الشيخ عز الدين رحمه الله، فقال: اخرجوا وأنا أضمن لكم على الله النصر(١).

[٢٧٠] فقال السلطان له: إن المال في خزانتي قليلٌ، وأنا أريد أن أقترض من أموال التجار.

فقال له الشيخ عز الدين: إذا أحضرت ما عندك وعند حريمك، وأحضر الأمراء ما عندهم من الحلي الحرام، وضربته سكة ونقداً، وفرقته في الجيش ولم يقم بكفايتهم، ذلك الوقت اطلب القرض، وأما قبل ذلك فلا. فأحضر السلطان والعسكر كلهم ما عندهم من ذلك بين يدي الشيخ، وكان الشيخ له عظمةٌ عندهم وهيبة بحيث لا يستطيعون مخالفته، فامتثلوا أمره، فانتصروا.

[٢٧١] ومما يدل على منزلته الرفيعة عندهم أن الملك الظاهر بيبرس لم يبايع واحداً من الخليفة المستنصر والخليفة الحاكم إلا بعد أن تقدمه الشيخ عز

---

(١) وهذه مقولة عجيبة لا يقولها إلا من كان في مثل الشيخ في دينه ومعرفته بالله تعالى وسنته.

الدين للمبايعة، ثم بعده السلطان، ثم القضاة، ولما مرت جنازة الشيخ عز الدين تحت القلعة وشاهد الملك الظاهر كثرة الخلق الذين معها، قال لبعض خواصه: اليوم استقر أمري في الملك؛ لأن هذا الشيخ لو كان يقول للناس: اخرجوا عليه، لانتزع الملك مني.

[٢٧٢] ذكر واقعة الفرنج على دمياط

وكانت قبل ذلك وصلوا إلى المنصورة في المراكب، واستظهروا على المسلمين، وكان الشيخ مع العسكر، وقويت الريح، فلما رأى الشيخ حال المسلمين نادى بأعلى صوته مشيراً بيده إلى الريح: يا ريح خذيهم. عدة مرار، فعادت الريح على مراكب الفرنج فكسرتها، وكان الفتح، وغرق أكثر الفرنج، وصرخ من بين يدي المسلمين صارخ: الحمد لله الذي أرانا في أمة محمد ﷺ رجلاً سخر له الريح.

[٢٧٣] ذكر كائنة الشيخ مع أمراء الدولة مع الأتراك

وهم جماعة ذُكر أن الشيخ لم يثبت عنده أنهم أحرار، وأن حكم الرق مستصحب عليهم لبيت مال المسلمين، فبلغهم ذلك، فعظم الخطب عندهم فيه، وأضرم الأمر، والشيخ مصمم لا يصحح لهم بيعاً ولا شراء ولا نكاحاً، وتعطلت مصالحهم بذلك، وكان من جملتهم نائب السلطنة، فاستشاط غضباً، فاجتمعوا وأرسلوا إليه فقال: نعقد لكم مجلساً، وينادى عليكم لبيت مال المسلمين، ويحصل عتقكم بطريق شرعي، فرفعوا الأمر إلى السلطان، فبعث إليه

فلم يرجع، فجرت من السلطان كلمة فيها غلظة، حاصلها الإنكار على الشيخ في دخوله في هذا الأمر وأنه لا يتعلق به، فغضب الشيخ وحمل حوائجه على حمار، وأركب عائلته على حمار آخر، ومشى خلفهم خارجاً من القاهرة قاصداً نحو الشام، فلم يصل إلى نحو نصف بريد إلا وقد لحقه غالب المسلمين، لم تكد امرأة ولا صبي ولا رجل لا يؤبه إليه يتخلف، لا سيما العلماء والصلحاء والتجار وأنحاؤهم فبلغ السلطان الخبر، وقيل له: متى راح ذهب ملكك، فركب السلطان بنفسه ولحقه واسترضاه وطيب قلبه، فرجع، واتفقوا معهم على أنه ينادى على الأمراء، فأرسل إليه نائب السلطنة بالملاطفة فلم يفد فيه، فانزعج النائب، وقال: كيف ينادِي علينا هذا الشيخ ويبيعنا ونحن ملوك الأرض؟ والله لأضربنه بسيفي هذا. فركب بنفسه في جماعته وجاء إلى بيت الشيخ، والسيف مسلولٌ في يده، فطرق الباب، فخرج ولد الشيخ، أظنه عبداللطيف، فرأى من نائب السلطنة ما رأى، فعاد إلى أبيه وشرح له الحال، فما اكترث لذلك ولا تغير، وقال: يا ولدي، أبوك أقل من أن يقتل في سبيل الله. ثم خرج كأنه قضاء الله قد نزل على نائب السلطنة، فحين وقع بصره على النائب يبست يد النائب وسقط السيف منها وأُرْعِدت مفاصله، فبكى وسأل الشيخ أن يدعو له، وقال: يا سيدي، خبِّر أيش تعمل؟ قال: أنادي عليكم وأبيعكم. قال: ففيم تصرف ثمننا؟ قال: في مصالح المسلمين. قال: من يقبضه؟ قال: أنا. فتم له ما أراد، ونادى على الأمراء واحداً واحداً، وغالى في ثمنهم، وقبضه وصرفه في وجوه الخير، وهذا مالم يسمع بمثله عن أحد، رحمه الله تعالى ورضي عنه.

[٢٧٤] وكان قد استأجر بستاناً متطرفاً عن البساتين، وكان مخوفاً، واتفقت له فيه أعجوبة وهو أن جماعة من المفسدين قصدوه في ليلة مقمرة وهو

في جَوْسَق[١] عال، ودخلوا البستان واحتاطوا بالجوسق، فخاف أهله خوفاً شديداً، فعند ذلك نزل إليهم، وفتح باب الجوسق، وقال: أهلاً بضيوفنا. وأجلسهم في مقعد حسن، وكان مهيباً مقبول الصورة، فهابوه، وسخرهم الله له، وأخرجوا لهم من الجوسق ضيافة حسنة، فتناولوها وطلبوا منه الدعاء، وعصم الله أهله وجماعته منهم، بصدق نيته وكرم طويته، وانصرفوا عنه.

[٢٧٥] قال ابنه شرف الدين عبداللطيف:

ولم يزل والدي معظماً عند السلطان إلى أن مرض مرضة الموت، قال لأكبر أصحابه: اذهب إلى ابن عبدالسلام، وقل له: محبك موسى ابن الملك العادل أبي بكر يسلم عليك، ويسألك أن تعوده وتدعو له وتوصيه بما ينتفع به غداً عند الله.

فلما وصل الرسول إليه بهذه الرسالة، قال: نعم، إن هذه العيادة لمن أفضل العبادات، لما فيها من النفع المتعدي إن شاء الله تعالى.

فتوجه إليه وسلم عليه، فسر برؤيته سروراً عظيماً، وقبل يده، وقال: يا عز الدين، اجعلني في حل، وادع الله لي، وأوصني وانصحني، فقال له: أما محاللتك فإني كل ليلة أحالل الخلق وأبيت وليس لي عند أحد مظلمة، وأرى أن يكون أجري على الله، ولا يكون على الناس، وعملاً بقوله تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾[٢]، وأن يكون أجري على الله، ولا يكون على خلقه أحب إلي، وأما دعائي للسلطان، فإني أدعو له في كثير من الأحيان، لما في صلاحه

---

(١) الجوسق: قصر صغير، فارسي معرب.

(٢) سورة الشورى: آية ٤٠.

من صلاح المسلمين والإسلام، والله تعالى يبصر السلطان فيما يبيض به وجهه عنده يوم يلقاه، وأما وصيتي ونصيحتي للسلطان، فقد وجبت وتعينت لقبوله وتقاضيه.

وكان قبيل مرضه قد وقع بينه وبين أخيه السلطان الملك الكامل واقع ووحشة، وأمر وهو في ذلك المرض بنصب دهليزه إلى صوب مصر، وضرب منزلة تسمى الكسوة، وكان في ذلك الزمان قد ظهر التتر بالشرق، فقال الشيخ للسلطان الملك الكامل: أخوك الكبير ورحمك، وأنت مشهور بالفتوحات والنصر على الأعداء، والتتر قد خاضوا بلاد المسلمين، تترك ضرب دهليزك إلى أعداء الله وأعداء المسلمين، وتضربه إلى جهة أخيك! فينقل السلطان دهليزه إلى جهة التتار، ولا تقطع رحمك في هذه الحالة، وتنوى مع الله نصر دينه وإعزاز كلمته، فإن منّ الله بعافية السلطان رجونا من الله إدالته على الكفار، وكانت في ميزانه هذه الحسنة العظيمة، فإن قضى الله تعالى بانتقاله إليه كان السلطان في خفارة نيته.

فقال له: جزاك الله خيراً عن إرشادك ونصيحتك، وأمر والشيخ حاضر في الوقت بنقل دهليزه إلى الشرق، إلى منزلة يقال لها: القصير، فنقل في ذلك اليوم، ثم قال له: زدني من نصائحك ووصاياك.

فقال له: السلطان في مثل هذا المرض، وهو على خطر، ونوابه يبيحون فروج النساء، ويدمنون الخمور، ويرتكبون الفجور، ويتنوعون في تمكيس[1] المسلمين، ومن أفضل ما تلقى الله به أن تتقدم بإبطال هذه القاذورات، وبإبطال

---

(١) من المَكْس وهو الضريبة.

كل مَكْس، ودفع كل مظلمة. فتقدم رحمه الله للوقت بإبطال ذلك كله، وقال له: جزاك الله عن دينك وعن نصائحك وعن المسلمين خيراً، وجمع بيني وبينك في الجنة بمنه وكرمه، وأطلق له ألف دينار مصرية، فردها عليه، وقال: هذه اجتماعة لله لا أكدرها بشيء من الدنيا.

وودع الشيخ السلطان، ومضى إلى البلدن وقد شاع عند الناس صورة المجلس وتبطيل المنكرات، وباشر الشيخ بنفسه تبطيل بعضها، ثم لم يمض الصالح إسماعيل تبطيل المنكرات؛ لأنه كان المباشر لتدبير الملك والسلطنة يومئذ نيابة، والسلطان الملك الأشرف بعد في الحياة، ثم استقل بالملك بعده، ثم لم يلبث إلا يسيراً حتى قدم السلطان الملك الكامل من الديار المصرية بعساكره وجحافله وجيوشه إلى دمشق، وحاصر أخاه إسماعيل بدمشق يسيراً، ثم اصطلح معه، وحضر الشيخ عند السلطان الملك الكامل، فأكرمه غاية الإكرام، وأجلسه على تكرمته، والصالح إسماعيل يشاهد ذلك، وهو واقفٌ على رأسه، فقال الملك الكامل للشيخ: إن هذا له غرامٌ برمي البندق، فهل يجوز له ذلك؟

فقال الشيخ بل يحرم عليه، فإن رسول الله ﷺ نهى عنه، وقال: «إنه يُفْقِئ العين ويكسر العظم».

وأعطاه بعلبك، فتوجه إليها وملكها، وولى الملك الكامل رحمه الله الشيخ تدريس زاوية الغزالي بجامع دمشق، وذكّر بها الناس، ثم ولاه قضاء دمشق، بعد ما اشترط عليه الشيخ شروطاً كثيرة، ودخل في شروطه، ثم عينه للرسالة إلى الخلافة المعظمة، ثم اختلسته المنية، رحمه الله، فكان بين موت

الملك الأشرف وتملك الملك الصالح إسماعيل لدمشق، ثم تملك الملك الكامل لدمشق وموته، سنة وكسر.

ثم تملك الملك الجواد دمشق مدة، ثم كاتب الملك الجواد الملك الصالح نجم الدين أيوب رحمه الله، وكان بالشرق، على أن ينزل له عن دمشق، ويعوضه الرقة وما والاها، ففعل له ذلك، وقدم الملك الصالح نجم الدين رحمه الله دمشق وملكها، وعامل الشيخ بأحسن معاملة، ثم توجه بعسكره إلى نابلس، بعد اتفاقه مع الملك الصالح إسماعيل، على أنه يستخدم رجّالة من بعلبك وينجده على المصريين، فاستخدم الرجالة لنفسه، وخان السلطان، وكاتب النواب بدمشق، وقدم عليهم، فسلموها إليه، فلما اتصلت الأخبار بالملك الصالح نجم الدين تخلت عنه العساكر وتفرقوا عنه، وقصده جماعةٌ من المغتالين، فحمل عليهم، ونجاه الله منهم، فالتجأ إلى الملك الناصر داود، فأسره وأقام عنده مدة، ثم أخرجه واصطلح معه على المصريين.

وأما الصالح إسماعيل فإنه كان قد شاهد ما اتفق للشيخ مع الملك الأشرف، وما عامله به في آخر الأمر، من الإكرام والاحترام، ثم شاهد أيضاً ما عامله به السلطان الملك الكامل رحمه الله؛ فولاه الصالح إسماعيل خطابة دمشق، وبقي على ذلك مدة.

[٢٧٦] ثم إن المصريين حلفوا للملك الصالح نجم الدين أيوب، وكاتبوه بذلك، فوصل إليهم وملك الديار المصرية، وسار في أهلها السيرة المرضية، فخاف منه الصالح إسماعيل خوفاً منعه المنام والطعام والشراب، واصطلح مع الفرنج على أن ينجدوه على الملك الصالح نجم الدين أيوب، ويسلم إليهم صيداً

والشقيف، وغير ذلك من حصون المسلمين، ودخل الفرنج دمشق لشراء السلاح ليقاتلوا به عباد الله المؤمنين، فشق ذلك على الشيخ مشقة عظيمة في مبايعة الفرنج السلاح، وعلى المتدينين من المتعيشين من السلاح، فاستفتوا الشيخ في مبايعة الفرنج للسلاح، فقال: يحرم عليكم مبايعتهم؛ لأنكم تتحققون أنهم يشترونه ليقاتلوا به إخوانكم المسلمين. وجدد دعاءه على المنبر، وكان يدعو به إذا فرغ من الخطبتين قبل نزوله من المنبر، وهو: اللهم أبرم لهذه الأمة أمراً رشداً، تعز فيه وليك وتذل فيه عدوك، ويعمل فيه بطاعتك، وينهى فيه عن معصيتك. والناس يبتهلون بالتأمين والدعاء للمسلمين، والنصر على أعداء الله الملحدين.

فكاتب أعوان الشيطان السلطان بذلك، وحرفوا القول وزخرفوه، فجاء كتابه باعتقال الشيخ، فبقى مدة معتقلاً، ثم وصل الصالح إسماعيل وأخرج الشيخ بعد محاورات ومراجعات، فأقام مدة بدمشق، ثم انتزح عنها إلى بيت المقدس، فوافاه الملك الناصر داود في الفور، فقطع عليه الطريق وأخذه، وأقام عنده بنابلس مدة، وجرت له معه خطوبٌ، ثم انتقل إلى بيت المقدس وأقام به مدة.

[٢٧٧] ثم جاء الصالح إسماعيل والملك المنصور صاحب حمص، وملوك الفرنج بعساكرهم وجيوشهم إلى بيت المقدس، يقصدون الديار المصرية، فسير الصالح إسماعيل بعض خواصه إلى الشيخ بمنديله، وقال له: تدفع منديلي إلى الشيخ، وتتلطف به غاية التلطف وتستنزله وتعده بالعود إلى مناصبه على أحسن حال، فإن وافقك فتدخل به علي، وإن خالفك فاعتقله في خيمة إلى جانب خيمتي.

فلما اجتمع الرسول بالشيخ شرع في مسايسته وملاينته ، ثم قال له : بينك وبين أن تعود إلى مناصبك وما كنت عليه وزيادة ، أن تنكسر للسلطان وتقبل يده لا غير.

فقال له : والله يا مسكين ، ما أرضاه أن يقبل يدي فضلاً أن أقبِّل يده ، يا قوم ، أنتم في واد وأنا في واد ، و الحمد لله الذي عافاني مما ابتلاكم به.

فقال له : قد رسم لي إن لم توافق على ما يطلب منك وإلا اعتقلتك.

فقال : افعلوا ما بدا لكم.

فأخذوه واعتقله في خيمة إلى جانب خيمة السلطان.

[٢٧٨] وكان الشيخ يقرأ القرآن والسلطان يسمعه ، فقال يوماً لملوك الفرنج : تسمعون هذا الشيخ الذي يقرأ القرآن؟

قالوا : نعم.

قال : هذا أكبر قسوس المسلمين ، وقد حبسته لإنكاره عليّ تسليمي لكم حصون المسلمين ، وعزلته عن الخطابة بدمشق وعن مناصبه ، ثم أخرجته فجاء إلى القدس ، وقد جددت حبسه واعتقاله لأجلكم.

فقالت له ملوك الفرنج : لو كان هذا قسيسنا لغسلنا رجليه وشربنا مرقتها.

ثم جاءت العساكر المصرية ، ونصر الله تعالى الأمة المحمدية ، وقتلوا عساكر الفرنج ، ونجى الله سبحانه وتعالى الشيخ ، فجاء إلى الديار المصرية ، فأقبل عليه السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب رحمه الله ، وولاه خطابة مصر وقضاءها ، وفوض إليه عمارة المساجد المهجورة بمصر والقاهرة ، واتفق له في تلك الولايات

عجائب وغرائب، ثم عزل نفسه عن الحكم، فتلطف السلطان رحمه الله في رده إليه، فباشره مدة، ثم عزل نفسه منه مرة ثانية، وتلطف مع السلطان في إمضاء عزله لنفسه فأمضاه، وأبقى جميع نوابه من الحكام، وكتب لكل حاكم منه تقليداً، ثم ولاه تدريس المدرسة الصالحية بالقاهرة المُعِزِّية.

ثم مات الملك الصالح نجم الدين أيوب بالمنصورة، رحمه الله تعالى، وهو مجاهدٌ ناصرٌ للدين، ثم وصل ابنه المعظم توران شاه من الشرق إلى الديار المصرية بالمنصورة، فملكها، وانكسرت الفرنج في دولته، وعامل الشيخ بأحسن معاملة، ثم انتقل إلى الله سبحانه، فسبحان مالك الملك ومقدار الهُلك.

[٢٧٩] ثم انقضى ملك بني أيوب، وكان كأحلام القائل[1]، أو كظل زائل، لا يغتر به عاقل.

[٢٨٠] ثم سارت الدولة إلى الأتراك[2]، وكل منهم عامل الشيخ بأحسن معاملة، ولا سيما السلطان الملك الظاهر بيبرس رُكن الدين رحمه الله، فإنه كان يعظمه ويحترمه، ويعرف مقداره، ويقف عند أقواله وفتاويه، وأقام الخليفة[3] بحضرته وإشارته.

وكانت وفاة الشيخ في تاسع جمادى الأولى، في سنة ستين وستمائة، فحزن عليه كثيراً، حتى قال: لا إله إلا الله، ما اتفقت وفاة الشيخ إلا في دولتي، وشيع أمراءه وخاصته وأجناده لتشييع جنازته، وحمل نعشه وحضر دفنه.

---

(١) القائل هنا: من القيلولة، وهي نوم الظهيرة.

(٢) يعني المماليك.

(٣) يعني الخليفة العباسي، لما انتقلت الخلافة العباسية من بغداد إلى القاهرة.

[٢٨١] وحكى أن شخصاً جاء إليه، وقال له: رأيتك في النوم تنشد:

وكنت كذى رِجلين رجلٍ صحيحة   ورجلٍ رمى فيها الزمان فشلّتِ

فسكت ساعة ثم قال: أعيش من العمر ثلاثاً وثمانين سنة، فإن هذا الشعر لكُثيّر عَزة، ولا نسبة بيني وبينه غير السن، أنا سني وهو شيعي، وأنا لست بقصير وهو قصير، ولست بشاعر وهو شاعر، وأنا سُلَميّ وليس هو بسُلميّ، لكنه عاش هذا القدر.

قلت: فكان الأمر كما قاله رحمه الله.

ومن تصانيف الشيخ عز الدين «القواعد الكبرى» وكتاب «مجاز القرآن» وهذان الكتابان شاهدان بإمامته وعظيم منزلته في علوم الشريعة، واختصر «القواعد الكبرى» في «قواعد صغرى» والمجاز في آخر، وله كتاب «شجرة المعارف» حسن جداً، وغير ذلك.

[٢٨٢] ومن الفوائد عنه رحمه الله تعالى:

❖ ذكر الشيخ عز الدين في «أماليه» أن القاتل إذا ندم وعزم أن لا يعود، لكنه امتنع من تسليم نفسه للقصاص لم يقدح ذلك في توبته، قال: وهذا ذنب متجدد بعد الذي عصى به، مخالف لما وقع به العصيان من القتل، ونحن إنما نشترط الإقلاع في الحال عن أمثال الفعل الذي وقع به العصيان.

قلت: وهذه فائدة جليلة، والظاهر أن كل قاتل يندم على كونه قتل ويستغفر ويعزم أن لا يعود، والظاهر أيضاً أنه لا يسلم نفسه، فصحة توبته عن القتل والحالة هذه لطف ورحمة، فإن تسليم المرء نفسه إلى القتل مَشَقٌّ، وقد لا يوقف الشارع توبته على هذا المَشَقِّ العظيم، فلِما قاله الشيخ عز الدين اتجاهٌ،

لكن صرح الماوردي في «الحاوي» بخلافه، فقال: إن صحة توبته موقوفة على تسليم نفسه إلى مستحق القصاص، يقتص أو يعفو. وبه جزم الرافعي ومن بعده، قالوا: يأتي المستحق ويمكنه من الاستيفاء. فإما أن يحمل كلامهم على صحة التوبة مطلقاً، عن ذنب القتل وغيره، بمعنى أن القاتل إذا أراد التوبة عن كل ذنب، القتل وغيره، فهذا طريقه، وإما أن ينظر أي الكلامين أصح، وبالجملة ما قاله شيخ الإسلام عز الدين مستغرب، تنبو عنه ظواهر ما في كتب أصحابنا، وله اتجاه ظاهر، فلينظر فيه، فإني لم أشبعه نظراً، والأرجح عندي ما قاله الشيخ عز الدين، لكنه ترجيح من لم يستوف النظر، فلا يعتمد، ثم ننصرف ونقول هنا: لو صدقت توبة القاتل، وهاجت نيران المعصية في قلبه لسلم نفسه، ولو سلمها لسلمه الله تعالى، وقدر لولي الدم أن يعفو عنه، هذا هو المرجو الذي يقع في النفس.

[٢٨٣] شرح حال صلاة الرغائب وما اتفق فيها بين الشيخين

سلطان العلماء أبي محمد بن عبدالسلام والحافظ أبي عمرو بن الصلاح

وقد كان ابن الصلاح أفتى بالمنع منها، ثم صمم على خلافه، وأما سلطان العلماء فلم يبرح على المنع.

قال سلطان العلماء أبو محمد رضي الله عنه:

الحمد لله الأول الذي لا يحيط به وصف واصف، الآخر الذي لا تحويه معرفة عارف، جل ربنا عن التشبيه بخلقه، وكَلّ خلقه عن القيام بحقه، أحمده على نعمه وإحسانه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له في سلطانه،

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، المبعوث بحججه وبرهانه، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وإخوانه.

[٢٨٤] أما بعد؛ فإن البدعة ثلاثة أضرب:

أحدها:

ما كان مباحاً، كالتوسع في المآكل والمشارب والملابس والمناكح، فلا بأس بشيء من ذلك.

الضرب الثاني:

ما كان حسناً، وهو كل مبتدع موافق لقواعد الشريعة غير مخالف لشيء منها، كصلاة التراويح، وبناء الربط والخانات والمدارس، وغير ذلك من أنواع البر التي لم تعهد في الصدر الأول، فإنه موافق لما جاءت به الشريعة، من اصطناع المعروف، والمعاونة على البر والتقوى، وكذلك الاشتغال بالعربية فإنه مبتدع، ولكن لا يتأتى تدبر القرآن وفهم معانيه إلا بمعرفة ذلك، فكان ابتداعه موافقاً لما أُمرنا به من تدبر آيات القرآن وفهم معانيه، وكذلك الأحاديث وتدوينها، وتقسيمها إلى الحسن والصحيح والموضوع والضعيف، مبتدع حسن، لما فيه من حفظ كلام رسول الله ﷺ أن يدخله ما ليس فيه، أو يخرج منه ما هو فيه، وكذلك تأسيس قواعد الفقه وأصوله، وكل ذلك مبتدع حسن موافق لأصول الشرع، غير مخالف لشيء منها.

الضرب الثالث:

ما كان مخالفاً للشرع، أو ملتزماً لمخالفة الشرع، فمن ذلك صلاة

الرغائب، فإنها موضوعةٌ على النبي ﷺ، وكذب عليه، ذكر ذلك أبو الفرج ابن الجوزي، وكذلك قال أبو بكر محمد الطرطوشي إنها لم تحدث ببيت المقدس إلا بعد ثمانين وأربعمائة من الهجرة، وهي مع ذلك مخالفة للشرع من وجوه، يختص العلماء ببعضها، وبعضها يعم العالم والجاهل، فأما ما يختص به العلماء فضربان:

أحدهما:

أن العالم إذا صلاها كان موهماً للعامة أنها من السنن، فيكون كاذباً على رسول الله ﷺ بلسان الحال، ولسان الحال قد يقوم مقام لسان المقال.

الثاني:

أن العالم إذا فعلها كان متسبباً إلى أن تكذب العامة على رسول الله ﷺ، فيقولوا: هذه سنة من السنن. والتسبب إلى الكذب على رسول الله ﷺ لا يجوز.

وأما ما يعم العالم و الجاهل فهي وجوه:

أحدها: أن فعل المبتدع مما يقوى المبتدعين الواضعين على وضعها وافترائها، والإغراء بالباطل والإعانة عليه ممنوع في الشرع، واطراح البدع والموضوعات زاجر عن وضعها وابتداعها، والزجر عن المنكرات من أعلى ما جاءت به الشريعة.

الثاني:

أنها مخالفة لسنة السكون في الصلاة، من جهة أن فيها تعديد سورة

الإخلاص اثنتي عشرة مرة، وتعديد سورة القدر، ولا يتأتى عده في الغالب إلا بتحريك بعض أعضائه، فيخالف السنة في تسكين أعضائه.

الثالث:

أنها مخالفة لسنة خشوع القلب وخضوعه وحضوره في الصلاة وتفريغه لله وملاحظة جلاله وكبريائه، والوقوف على معاني القراءة والأذكار، فإنه إذا لاحظ عدد السور بقلبه كان ملتفتاً عن الله، معرضاً عنه بأمر لم يشرعه في الصلاة، والالتفات بالوجه قبيح شرعاً، فما الظن بالالتفات عنه بالقلب الذي هو المقصود الأعظم.

الرابع:

أنها مخالفة لسنة النوافل، فإن السنة فيها أن فعلها في البيوت أفضل من فعلها في المساجد، إلا ما استثناه الشرع، كصلاة الاستسقاء والكسوف، وقد قال رسول الله ﷺ: «صلاة الرجل في بيته أفضل من صلاته في المسجد إلا المكتوبة».

الخامس:

أنها مخالفة لسنة الانفراد بالنوافل، فإن السنة فيها الانفراد، إلا ما استثناه الشرع، وليست هذه البدعة المختلقة على رسول الله ﷺ منه.

السادس:

أنها مخالفة للسنة في تعجيل الفطر، إذ قال رسول الله ﷺ: «**لا تزال أمتي بخير ما عجلوا الفطر وأخروا السحور**».

السابع:

أنها مخالفة للسنة في تفريغ القلب عن الشواغل المقلقة قبل الدخول في الصلاة، فإن هذه الصلاة يدخل فيها وهو جوعان ظمآن، ولا سيما في أيام الحر الشديد، والصلوات المشروعات لا يدخل فيها مع وجود شاغل يمكن دفعه.

الثامن:

أن سجدتيها مكروهتان، فإن الشريعة لم ترد بالتقرب إلى الله سبحانه بسجدة منفردة لا سبب لها، فإن القُرَبَ لها أسباب وشرائط وأوقات وأركان، لا تصح بدونها، فكما لا يتقرب إلى الله بالوقوف بعرفة ومزدلفة ورمي الجمار والسعي بين الصفا والمروة من غير نسك واقع في وقته بأسبابه وشرائطه، فكذلك لا يُتقرب إلى الله عز وجل بسجدة منفردة وإن كانت قربة إلا إذا كان لها سبب صحيح، وكذلك لا يتقرب إلى الله عز وجل بالصلاة والصيام في كل وقت وأوان، وربما تقرب الجاهلون إلى الله بما هو مُبعدٌ عنه من حيث لا يشعرون.

التاسع:

لو كانت السجدتان مشروعتين لكان مخالفاً للسنة في خشوعهما وخضوعهما، لما يشتغل به من عدد التسبيح فيهما، بباطنه أو ظاهره، أو بهما.

العاشر:

أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تخصوا ليلة الجمعة بقيام من بين الليالي، ولا تخصوا يوم الجمعة بصيام من بين الأيام، إلا أن يكون في صوم يصومه أحدكم**» وهذا الحديث رواه مسلم بن الحجاج في «صحيحه».

الحادي عشر:

أن في ذلك مخالفة السنة، فيما اختاره النبي ﷺ في أذكار السجود، فإنه

لما نزل قول الله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾[1] قال: «اجعلوها في سجودكم»، وقوله: «سبوح قدوس» وإن صحت عن رسول الله ﷺ، فلم يصح أنه أفردها بدون «سبحان ربي الأعلى» ولا أنه وظفها على أمته، ومن المعلوم أنه لا يوظف إلا الأَوْلى من الذكرين، وفي قوله: «سبحان ربي الأعلى» من الثناء ما ليس في قوله: «سبوح قدوس».

ومما يدل على ابتداع هذه الصلاة أن العلماء الذين هم أعلام الدين، وأئمة المسلمين، من الصحابة والتابعين وتابعي التابعين وغيرهم، ومَن دوّن الكتب في الشريعة، مع شدة حرصهم على تعليم الناس الفرائض والسنن، لم ينقل عن أحد منهم أنه ذكر هذه الصلاة، ولا دونها في كتابه، ولا تعرض لها في مجالسه، والعادة تحيل أن يكون مثل هذه سنة وتغيب عن هؤلاء الذين هم أعلام الدين وقدوة المؤمنين، وهم الذين إليهم الرجوع في جميع الأحكام من الفرائض والسنن والحلال والحرام، وهذه الصلاة لا يصليها أهل المغرب الذين شهد رسول الله ﷺ لطائفة منهم أنهم لا يزالون على الحق حتى تقوم الساعة، وكذلك لا تفعل بالإسكندرية، لتمسكهم بالسنة، ولما صح عند السلطان الملك الكامل رحمه الله أنها من البدع المفتراة على رسول الله ﷺ أبطلها من الديار المصرية، فطوبى لمن تولى شيئاً من أمور المسلمين فأعان على إماتة البدع وإحياء السنن، وليس لأحد أن يستدل بما روى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الصلاة خير موضوع» فإن ذلك مختص بصلاة مشروعة[2].

---

(١) سورة الأعلى: آية ١.

(٢) «طبقات الشافعية الكبرى»: ٨/٢٠٩-٢٥٥.

الحافظ المنذريّ

عبدالعظيم بن عبدالقوي بن عبدالله ، المنذري.

الحافظ الكبير، الورع الزاهد ، ولد سنة ٥٨١هـ.

قال الذهبي : وما كان في زمانه أحفظ منه.

قلت : وأما ورعه فأشهر من أن يحكى.

[٢٨٥] وقد درس بالآخرة في دار الحديث الكاملية ، وكان لا يخرج منها إلا لصلاة الجمعة ، حتى إنه كان له ولدٌ نجيب محدثٌ فاضل ، توفاه الله تعالى في حياته ، ليضاعف له في حسناته ، فصلى عليه الشيخ داخل المدرسة ، وشيعه إلى بابها ثم دمعت عيناه ، وقال : أودعتك يا ولدي لله. وفارقه ، سمعت أبي رضي الله عنه يحكي ذلك.

[٢٨٦] وسمعته أيضاً يحكي عن الحافظ الدمياطي أن الشيخ مرة خرج من الحمام ، وقد أخذ منه حرها ، فما أمكنه المشي ، فاستلقى على الطريق إلى جانب حانوت ، فقال له الدمياطي : ياسيدي ، أما أقعدك على مصطبة الحانوت ، وكان الحانوت مغلقاً ، فقال في الحال وهو في تلك الشدة : بغير إذن صاحبه ، كيف يكون؟ وما رضيَ.

[٢٨٧] وسمعت أبي رضي الله عنه أيضاً يحكى أن شيخ الإسلام عز الدين بن عبدالسلام كان يُسمع الحديث قليلاً بدمشق ، فلما دخل القاهرة بطّل ذلك ، وصار يحضر مجلس الشيخ زكي الدين ، ويسمع عليه في جملة من يسمع ولا يُسْمِع ، وأن الشيخ زكي الدين أيضاً ترك الفتيا ، وقال : حيث دخل الشيخ

عز الدين لا حاجة بالناس إليّ.

[٢٨٨] ومن شعره:

اعمل لنفسك صالحاً لا تحتفل بظهور قيلٍ في الأنام وقال

فالخلق لا يرجى اجتماع قلوبهم لابد من مثن عليك وقَالِ[1]

توفى في الرابع من ذي القعدة، سنة ست وخمسين وستمائة، وهي السنة المصيبة بأعظم المصائب، المحيطة بما فعلت من المعائب، المقتحمة أعظم الجرائم، الواثبة على أقبح العظائم، الفاعلة بالمسلمين كل قبيح وعار، النازلة عليهم بالكفار المسمين بالتتار.

[٢٨٩] ولا بأس بشرح واقعة التتار على الاختصار، وحكاية كائنة بغداد، لتعتبر بها البصائر، وتشخص عندها الأبصار، وليجري المسلمون على ممر الزمان دموعهم دماً، وليدري المؤرخون بأنهم ما سمعوا بمثلها واقعة جعلت السماء أرضاً والأرض سما.

فنقول:

استهلت سنة أربع وخمسين وستمائة، وخليفة المسلمين إذ ذاك أمير المؤمنين المستعصم بالله الإمام أبو أحمد عبدالله الشهيد بن المستنصر بالله أمير المؤمنين.

[٢٩٠] وكان المستنصر والد المستعصم ذا همة عالية، وشجاعة وافرة، ونفس أبية، وعنده إقدام عظيم، واستخدم جيوشاً كثيرة، وعساكر عظيمة، وكان له أخ يعرف بالخفاجي، يزيد عليه في الشجاعة والشهامة، وكان يقول: إن ملكني

---

(١) أي مبغض.

الله الأرض لأعبرن بالجيوش نهر جيحون، وأنتزع البلاد من التتار، وأستأصلهم، فلما توفي المستنصر كان الدويدار والشرابي أكبر الأمراء وأعظمهم قدراً، فلم يريا تقليد الخفاجي الأمر خوفاً منه، وآثروا المستعصم، علماً منهما بلينه وانقياده وضعف رأيه، لتكون لهما الكبرياء، فأقاموه،

[٢٩١] واستوزر مؤيد الدين محمد بن محمد بن علي العلقمي، وكان فاضلاً أديباً، وكان شيعياً رافضياً، في قلبه غل على الإسلام وأهله، وحَبَّب إلى الخليفة جمع المال والتقليل من العساكر، فصار الجند يطلبون من يستخدمهم في حمل القاذورات، ومنهم من يكارى على فرسه، ليصلوا إلى ما يتقوتون به.

[٢٩٢] وكان ابن العلقمي معادياً للأمير أبي بكر بن الخليفة وللدويدار؛ لأنهما كانا من أهل السنة، ونهبا الكرخ ببغداد حين سمعا عن الروافض أنهم تعرضوا لأهل السنة، وفعلا بالروافض أموراً عظيمة، ولم يتمكن الوزير من مدافعتهما؛ لتمكنهما، فأضمر في نفسه الغل، وتحيل في مكاتبة التتار وتهوين أمر العراق عليهم، وتحريضهم على أخذها، ووصل من تحيله في المكاتبة إليه أنه حلق رأس شخص، وكتب عليه بالسواد، وعمل على ذلك دواء صار المكتوب فيه كل حرف كالحفرة في الرأس، ثم تركه عنده حتى طلع شعره، وأرسله إليهم، وكان مما كتبه على رأسه: إذا قرأتم الكتاب فاقطعوه، فوصل إليهم، فحلقوا رأسه وقرأوا ما كتبه، ثم قطعوا رأس الرسول.

وكتب الوزير إلى نائب الخليفة بإربل، وهو تاج الدين محمد بن صلايا، وهو أيضاً شيعي رسالة يقول فيها: نُهب الكرخ المكرم والعترة العلوية، وحسن التمثيل بقول الشاعر:

أمورٌ تضحك السفهاء منها ... ويبكي من عواقبها اللبيب

فلهم أسوة بالحسين، حيث نهب حريمه، وأريق دمه.

أمـرتهم أمـري بمنعَـرَج اللِّـوى ... فلم يستبينوا الرشد إلا ضحى الغد

وقد عزموا، لا أتم الله عزمهم ولا أنفذ أمرهم، على نهب الحِلة والنِّيل، بل سولت لهم أنفسهم أمراً فصبرٌ جميلٌ، والخادم قد أسلف الإنذار، وعجل لهم الإعذار:

[٢٩٣] أرى تحت الرماد وميض نار ... ويوشك أن يكون لها ضرام

وإن لم يُطفهـا عقـلاء قـوم ... يكـون وقودهـا جثـث وهـام

فقلـت مـن التعجـب ليـت شـعري ... أيقظـان أميـة أم نيـام

فـإن يـك قومنـا أضـحوا نيامـاً ... فقـل هُبـوا لقـد حـان الحِمـام

قلت: وهذه الأبيات كلها في غاية الحسن، خاطب بها علوان بن المقنع(١) أمير المؤمنين، وهي:

أمـيرَ المـؤمنين عليـك مـني ... سـلام الله مـا نـاح الحمـام

تحيـة حـافظ للعهـد راع ... كنـشر الـروض بـاكرهُ الغمـام

أرى خلـل الرمـاد وميض جمر ... ويوشـك أن يكـون لـه ضـرام

فـإن النـار بـالعودين تُـذْكَى ... وإن الحـرب أولـه كـلام

وإن لم يُطفهـا عقـلاء قـوم ... يكـون وقودهـا جثـث وهـام

فقـل لـبني أميـة ليـت شـعري ... أيقظـان أميـة أم نيـام

وقـد ظهـر الخراسـاني معـه ... بنـو العبـاس والجـيش اللُّهـام

---

(١) المحفوظ أنها لنصر بن سيار عامل الخليفة الأموي مروان بين محمد آخر خلفاء بني أمية على خراسان يستحثه فيها على القضاء على العباسيين لما ظهروا هناك.

فإن لم تجمعوا جيشاً يضيق الـ ـعراق بـه علـيهم والـشآم
فـلا قـوهم كمـا لاقـى علياً بـصفين معاويـة الهمـام
وكـان علـيٌّ أقـوى منـه عزمـاً وأعلـى رتبـة وهـو الإمـام
ولا يَأْخُـذْكُمُ حـذر وخـوف فمـا يغـني إذا حـام الحِمـام(١)
فـإن كانـت لكـم يومـاً علـيهم فـذاك القـصد وانقطـع الكـلام
وإن ظَفِـروا فمـا تُحمـى حـريمٌ لكـم عـنهمُ ولا البيـت الحـرام
ولا بمقـام إبـراهيم تُعْطَـوا أمانـاً مـنهمُ وهـو المقـام
فموتـوا في ظهـور الخيـل صـبراً كمـا قـد مـات قـبلكم الكـرام
ولا تتـدرعوا أثـواب ذل وعـار قـد تـدرعها اللئـام
فـإن الـضيم لا صـبرٌ عليـه لمـن شـهدت بـسؤدده الأنـام
وتلـك وصـية مـن ذي ولاء لـه في حفـظ عهـدكم ذِمـام
وإلا فهْـو يقـتلكم جميعـاً ويهلـك مـا لـديكم والـسلام

فكان جوابي بعد خطابي : لابد من الشنيعة بعد قتل جميع الشيعة ، ومن إحراق كتاب الوسيلة والذريعة ، فكن لما نقول سميعاً ، وإلا جرّعناك الحِمام(٢) تجريعاً ، إلى أن يقول : فلأفعلنّ بِلُبي كما قال المتنبي :

[٢٩٤]قوم إذا أخذوا الأقلام من غضب ثم استمروا بها ماء المنيات
نـالوا بهـا مـن أعـاديهم وإن بعـدوا ما لا ينال بحد المشرفيات(٣)

---

(١) الموت.

(٢) الموت.

(٣) السيوف.

﴿ ولآتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لاَّ قِبَلَ لَهُم بِهاَ ولأُخْرِجَنَّهُم مِنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾[٣]

ووديعـــة مـــن ســـر آل محمـــد أودعتهـــا إذ كنـــتَ مـــن أمنائهـــا
فـــإذا رأيـــت الكـــوكبين تقاربـــا في الجَدْي عند صباحها ومسائها
فهنـــاك يؤخـــذ ثـــار آل محمـــد لطِلابهـــا بـــالترك مـــن أعـــدائها

فكن لهذا الأمر بالمرصاد، وترقب أول النحل وآخر صاد[٤].

[ذكر أمور كانت مقدمات لهذه الواقعة]:

[٢٩٥] لما كان الخامس من جمادى الآخرة من هذه السنة، كان ظهور النار بالمدينة النبوية، وقبلها بليلتين ظهر دوي عظيم ثم زلزلة عظيمة، ثم ظهرت تلك النار في الحرة قريباً من قريظة، يبصرها أهل المدينة من الدور، وسالت أوديةٌ منها بالنار إلى وادي شظا سيل الماء، وسالت الجبال نيراناً، وسارت نحو طريق الحاج العراقي، فوقفت وأخذت تأكل الأرض أكلاً، ولها كل يوم صوتٌ عظيم من آخر الليل إلى ضحوة، واستغاث الناس، وأقلعوا عن المعاصي، واستمرت النار فوق الشهر، وهي مما أخبر بها المصطفى صلوات الله عليه، حيث يقول: **«لا تقوم الساعة حتى تخرج نارٌ من أرض الحجاز تضئ أعناق الإبل ببصرى»** وقد حكى غير واحد ممن كان ببصرى بالليل، ورأى أعناق الإبل في ضوئها.

---

(٣) مقتبسة من سورة النمل: آية ٣٧.

(٤) يعني أول سورة النحل، وهو قوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾. وآخر سورة صاد، وهو قوله تعالى: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ﴾

[غرق بغداد]

زاد الدجلة زيادة مهولة، فغرق خلق كثير من أهل بغداد، ومات خلق تحت الهدم، وركب الناس في المراكب، واستغاثوا بالله، وعاينوا التلف، ودخل الماء من أسوار البلد، وانهدمت دار الوزير وثلثمائة وثمانون داراً، وانهدم مخزن الخليفة، وهلك شيء كثيرٌ من خزانة السلاح.

[حريق المسجد النبوي الشريف]

وفي ليلة الجمعة مستهل شهر رمضان احترق مسجد النبي ﷺ، وكان ابتداء حريقه من زاويته الغربية، فأحرقت سقوفه كلها، وذاب رصاصها، ووقع بعض أساطينه، واحترق سقف الحجرة النبوية، على ساكنها أفضل الصلاة والسلام.

[ذكر خروج هولاكو بن قان تُولي بن جنكيز خان]

اجتمع هو وعساكره التي لا يحصى عددها، ولا يدرك مددها، ولا يُعَدّد عددها، ولا يدرك - وإن تأمل الطرف - أمدها، في مجلس المشورة، واتفقوا على الخروج في يوم معلوم، فسار في المغول من الأردو[1] على مهله، يقتلع القلاع ويملك الحصون، وأطاع الله له البلاد والعباد، وصار لا يصبح يوم إلا وسعده في ازدياد، حتى إنه حَلّق في يوم على صيد، فاصطاد ثمانية من السباع، فأنشد بعضهم إذ ذاك:

من كان يصطاد في يوم ثمانية ... من الضراغم هانت عنده البشر

---

(١) الأردو: كلمة تركية، معناها: المعسكر أو الجيش.

وملك قلاع الإسماعيلية[١] كلها، وجميع بلاد الروم، وصار لا يمر بمدينة إلا وصاحبها بين أمرين: إما مطيع فيقدم إلى مخيم هولاكو، وهو مخيم عظيم المنظر كبير الحشمة، معمول من الأطلس الأحمر، تحتوشه جنود القندس والقاقم، فيقبل الأرض، وينعم عليه بما يقتضيه رأيه، ثم يُخرب بلاده التي كان فيها ويصيرها قاعاً صفصفاً، على قاعدة جده جنكزخان، ويكون المتولّي لخرابها هو ذلك الملك، وإما عاصٍ، وقَلّ وجدان ذلك، فلا يعصى عليه غير ساعات معدودة، ثم يحيط به القضاء المقدور، ويحول بين رأسه وعنقه الصارم المشهور.

[٢٩٦] وتوجهت الملوك على اختلاف ندائها وامتناع سلطانها وعظم مكانها إلى عتباته، فمنهم من أمنه وأعطاه فرماناً، ورجعه إلى بلده، ومنهم من فعل به غير ذلك، على ما يقتضيه البأساء[٢] التي أخبر عنها شيطان جده، وابتدعها من عنده، كل ذلك والخليفة غافل عما يراد به.

ثم تواترت الأخبار بوصول هولاكو إلى أذربيجان، بقصد العراق، وكاتب صاحب الموصل لؤلؤ الخليفة، يستنهضه في الباطن، وما وسعه إلا مداراة هولاكو في الظاهر، وأرسل الخليفة نجم الدين البادرائي رسولاً إلى الملك الناصر صاحب دمشق، يأمره بمصالحة الملك المعز، وأن يتفقا على حرب التتار، فامتثلا أمر الخليفة، وفيما بين ذلك تأتي الكتب إلى الخليفة، فإن وصلت ابتداء إلى الوزير لم يوصلها إليه، وإن وصلت إلى الخليفة أطلع الوزير، فيثبطه ويغشه حين يستنصحه.

---

(١) أي الباطنية الحشاشين.

(٢) قلت: هكذا وردت، ولعل تحريفاً أصابها، وأظن أن الكلمة هي الياسق، وهو الكتاب الذي تحتكم إليه التتار.

ثم دخلت سنة خمس وخمسين وستمائة :

وفيها مات الملك المعز أيبك التركماني صاحب مصر ، وتسلطن بعده ولده الملك المنصور علي بن أيبك ، وترددت رسل هولاكو إلى بغداد ، وكانت القرابين منهم واصلة إلى ناس بعد ناس ، من غير تحاش منهم في ذلك ولا خفية ، والناس في غفلة عما يراد بهم ، ليقضي الله أمراً كان مفعولاً .

ثم دخلت سنة ست وخمسين وستمائة :

ذات الداهية الدهياء والمصيبة الصماء ، وكان القان الأعظم هولاكو قد قصد الأَلَموت ، وهو معقل الباطنية الأعظم ، وبها المقدم علاء الدين محمد بن جلال الدين حسن الباطني ، المنتسب في مذهبه إلى الفاطميين العبيديين ، فتوفى علاء الدين ، ونزل ولده إلى خدمة هولاكو ، وسلم قلاعه ، فأمّنه .

[٢٩٧] ثم وردت كتب هولاكو إلى صاحب الموصل لؤلؤ ، في تهيئة الإقامات والسلاح ، فأخذ يكاتب الخليفة سراً ، ويهيئ لهم ما يريدون جهراً ، والخليفة لا يتحرك ولا يستيقظ ، فلما أزف اليوم الموعود ، وتحقق أن العدم موجود ، جهز رسوله يعدهم بأموال عظيمة ، ثم سير مائة رجل إلى الدَرْبند ، يكونون فيه ويطالعونه بالأخبار ، فقتلهم التتار أجمعين ، وركب السلطان هولاكو إلى العراق ، وكان على مقدمته بايجونوين ، وأقبلوا من جهة البر الغربي عن دجلة ، فخرج عسكر بغداد ، وعليهم ركن الدين الدويدار ، فالتقوا على نحو مرحلتين من بغداد ، وانكسر البغداديون ، وأخذتهم السيوف ، وغرق بعضهم في الماء ، وهرب الباقون ، ثم ساق بايجونوين ، فنزل القرية مقابل دار الخلافة ، وبينه وبينها دجلة ، وقصد هولاكو بغداد من جهة البر الشرقي ، ثم إنه

ضرب سوراً على عسكره، وأحاط ببغداد، فأشار الوزير على الخليفة بمصانعتهم، وقال: أخرج أنا إليهم في تقرير الصلح، فخرج وتوثق لنفسه من التتار، ورد إلى المستعصم، وقال: إن السلطان يا مولانا أمير المؤمنين قد رغب في أن يزوج بنته بابنك الأمير أبي بكر، ويبقيك في منصب الخلافة، كما أبقى صاحب الروم في سلطنته، ولا يؤثر إلا أن تكون الطاعة له، كما كان أجدادك مع السلاطين السلجوقية، وينصرف عنك بجيوشه، فمولانا أمير المؤمنين يفعل هذا، فإن فيه حقن دماء المسلمين، وبعد ذلك يمكننا أن نفعل ما نريد، والرأي أن تخرج إليه.

فخرج أمير المؤمنين بنفسه في طوائف من الأعيان إلى باب الطاغية هولاكو، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، فأنزل الخليفة في خيمة، ثم دخل الوزير فاستدعى الفقهاء والأماثل ليحضروا العقد، فخرجوا من بغداد، فضربوا أعناقهم، وصار كذلك يخرج طائفة بعد طائفة فتضرب أعناقهم، ثم طلب حاشية الخليفة، فضرب أعناق الجميع، ثم طلب أولاده، فضرب أعناقهم؛ وأما الخليفة، فقيل: إنه طلبه ليلاً، وسأله عن أشياء، ثم أمر به ليقتل، فقيل لهولاكو: إن هذا إن أهريق دمه تظلم الدنيا، ويكون سبب خراب ديارك، فإنه ابن عم رسول الله ﷺ، وخليفة الله في أرضه، فقام الشيطان المبين الحكيم نصير الدين الطوسي، وقال: يقتل ولا يراق دمه. وكان النصير من أشد الناس على المسلمين، فقيل: إن الخليفة غم في بساط. وقيل: رفسوه حتى مات. ولما جاءوا ليقتلوه صاح صيحة عظيمة، وقتلوا أمراءه عن آخرهم، ثم مدوا الجسر، وبذلوا السيف ببغداد، واستمر القتل ببغداد بضعاً وثلاثين يوماً، ولم ينج إلا من اختفى.

وقيل:

إن هولاكو أمر بعد ذلك بعد القتلى، فكانوا ألف ألف وثمانمائة ألف، النصف من ذلك تسعمائة ألف، غير من لم يُعَدّ ومن غرق، ثم نودي بعد ذلك بالأمان، فخرج من كان مختبئاً، وقد مات الكثير منهم تحت الأرض، بأنواع من البلايا، والذين خرجوا ذاقوا أنواع الهوان والذل، ثم حفرت الدور، وأخذت الدفائن والأموال التي لا تعد ولا تحصى، وكانوا يدخلون الدار فيجدون الخبيئة فيها، وصاحب الدار يحلف أن له السنين العديدة فيها ما علم أن بها خبيئة.

[٢٩٨] ثم طلبت النصارى أن يقع الجهر بشرب الخمر وأكل لحم الخنزير، وأن يفعل معهم المسلمون ذلك في شهر رمضان، فألزم المسلمون بالفطر في رمضان، وأكل الخنزير، وشرب الخمر، ودخل هولاكو إلى دار الخليفة راكباً، لعنه الله، واستمر على فرسه، إلى أن جاء إلى سدة الخليفة، وهي التي تتضاءل عندها الأسود ويتناوله سعد السعود، كالمستهزئ بها، وانتهك الحرم من بيت الخليفة وغيره، وأعطى دار الخليفة لشخص من النصارى، وأريقت الخمور في المساجد والجوامع، ومنع المسلمون من الإعلان بالأذان، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

هذه بغداد، لم تكن دار كفر قط، جرى عليها هذا الذي لم يقع منذ قامت الدنيا مثله، وقتل الخليفة، وإن كان وقع في الدنيا أعظم منه إلا أنه أضيف له هوان الدين والبلاء الذي لم يختص بل عم سائر المسلمين، وهذا أمر قدره الله تعالى، فثبط له عزم هذا الخليفة، ليقضي الله ما قدره.

ولقد حُكي أن الخليفة كان قاعداً يقرأ القرآن وقت الإحاطة بسور بغداد،

فرمى شخص من التتار بسهم، فدخل من شرفات المكان الذي كان فيه، وكانت واحدة من بناته بين يديه، فأصابها السهم، فوقعت ميتة.

ويقال: كتب الدم على الأرض: إذا أرد الله أمراً سلب ذوي العقول عقولهم، وإن الخليفة قرأ ذلك وبكى، وإن هذا هو الحامل على أن أطاع الوزير في الخروج إليهم.

[٢٩٩] ولله ما فعلت زوجة أمير المؤمنين، قيل: إن هولاكو دعاها ليواقعها، فشرعت تقدم له تحف الجواهر وأصناف النفائس، تشغله عما يرومه، فلما عرفت تصميمه على ما عزم عليه، اتفقت مع جارية من جواريها على مكيدة تخيلتها وحيلة عقدتها، فقالت لها: إذا نزعتُ ثيابك وأردت أن أقدك نصفين بهذا السيف، فأظهري جزعاً عظيماً، فأنا إذ ذاك أقول لك: افعلي أنت هذا بي، فإن هذا سيفٌ من ذخائر أمير المؤمنين، وهو لا يؤثر إذا ضرب به ولا يجرح شيئاً. فإذا أنت ضربتيني فليكن الضرب بكل قواك على نفس المقتل.

ثم جاءت إلى هولاكو وقالت: هذا سيف الخليفة، وله خصوصية، وهي أنه يضرب به الرجل فلا يجرحه إلا إذا كان الضارب الخليفة، ثم دعت الجارية، وقالت: أجرب بين يدي السلطان فيها، فلما عاينت الجارية السيف مُصلتاً والضرب آتياً، صاحت صيحة عظيمة، وأظهرت الجزع شديداً، فقالت السيدة رضي الله عنها: ويلك، أما علمتِ أنه سيف أمير المؤمنين، مالك، أتخشينه، أما تعرفينه؟ خذيه واضربيني به، فأخذته فضربتها به، فقدتها نصفين، وماتت وما ألمت بعار، ولا جعلت فراش ابن عم رسول الله ﷺ فراشاً للكفار، فتحسر هولاكو، وعلم أنها مكيدة.

وقد رأيتُ مثل هذه الحكاية جرى في الزمن الماضي، لبعض الصالحات، راودها عن نفسها بعض الفاجرين، كما حكى ذلك الدبوسي من الحنفية، في كتابه «روضة العلماء».

[٣٠٠] ويحكى أن شخصاً من أهل مصر قال:

كنت نائماً حين بلغ خبر بغداد، وأنا متفكرٌ، كيف فعل الله ذلك، فرأيت في المنام قائلاً يقول: لا تعترض على الله، فهو أعلم بما يفعل، فاستيقظت واستغفرت الله تعالى.

[٣٠١] وأما الوزير، فإنه لم يحصل على ما أمّل، وصار عندهم أخس من الذباب، وندم حيث لا ينفعه الندم، ويُحكى أنه طُلب منه يوماً شعيرٌ فركب الفرس بنفسه ومضى ليحصله لهم، وهذا يشتمه وهذا يأخذه بيده، وهذا يصفعه، بعد أن كانت السلاطين تأتي فتقبل عتبة داره، والعساكر تمشي في خدمته حيث سار من ليله ونهاره، وأن امرأة رأته من طاق، فقالت له: يا ابن العلقمي، هكذا كنت تركب في أيام أمير المؤمنين؟ فخجل وسكت، وقد مات غبناً بعد أشهر يسيرة، ومضى إلى دار مَقْبَره ووجد ما عمل حاضراً.

وأما ابن صلايا نائب إربل فإن هولاكو ضرب عنقه.

ثم جاءت رسل هولاكو إلى الملك الناصر، صاحب الشام، وصورة كتابه إليه: «يعلم سلطان ملك ناصر أنه لما توجهنا إلى العراق وخرج إلينا جنودهم، فقتلناهم بسيف الله، ثم خرج إلينا رؤساء البلد ومقدموها، فأعدمناهم أجمعين، ذلك بما قدمت أيديهم وبما كانوا يكسبون، وأما ما كان من صاحب البلدة، فإنه خرج إلى خدمتنا ودخل تحت عبوديتنا، فسألناه عن أشياء كذب فيها، فاستحق الإعدام، أجب ملك البسيطة، ولا تقولن: قلاعي المانعات

ورجالي المقاتلات، فساعة وقوفك على كتابنا نجعل قلاع الشام سماءها أرضاً، وطولها عرضاً» وأرسل غير ما كتاب في هذا المعنى.

ثم في سنة سبع وخمسين وستمائة، نزل على آمِد، وبعث إلى صاحب ماردين، يطالبه، فجعل صاحبها يتعلل بالمرض، وأرسل أولاده وهداياه جهراً إلى هولاكو، وأرسل في الباطن يستحث الملك الناصر على محاربة التتار، ثم عبر له جيشٌ عظيم إلى الفرات، بعد أن استولى على حران والرُّها والجزيرة، فجاء الخبر إلى صاحب حلب، فجفل الناس بها، وعظم الخطب، وعم البلاء، ثم قاربوا حلب، فخرج إليهم جماعة من عسكرها، فهزموهم ونازلوا البلدة، وقتلوا خلقاً كثيراً، ثم رحلوا عنها طالبين أعزاز، وكان المقدم على هذا الجيش أسموط بن هولاكو، ثم عبر هولاكو الفرات بنفسه، في المحرم سنة ثمان وخمسين وستمائة، ونازلت عساكره حلب، وركبوا الأسوار من كل ناحية، بعد أن نقبوا وخندقوا، فهرب المسلمون إلى جهة القلعة، وبذلت التتار السيف في العالم، وامتلأت الطرقات بالقتلى، وبقي القتل والنهب والحريق إلى رابع عشر صفر، ثم نودي برفع السيف، وأذن المؤذنون يومئذ بالجامع، وأقيمت الخطبة والصلاة، ثم أحاطوا بالقلعة وحاصروها.

وأرسل صاحب حلب إلى الملك الناصر صاحب الشام يستحثه، ووصل الخبر إلى دمشق، بأخذهم حلب، فهرب الملك الناصر، بعد أن كان جبى الأموال، وجمع الجموع، ونزل على برزة[1] بعساكر عظيمة، ثم رأى العجز فهرب، ووصلت رسل التتار إلى دمشق، وقُرئ الفرمان بأمان أهل دمشق وما حواليها.

---

(١) برزة: قرية من غوطة دمشق.

وأما حماة، فإن صاحبها كان حضر إلى برزة ليتجهز مع الملك الناصر، فلما سمع أهل البلد في غيبته بأخذ حلب، أرسلوا إلى هولاكو، يسألون عطفه، وسلموا البلد، وهرب صاحب حماة مع الملك الناصر، فسارا نحو مصر، فلما وصلا قَطْيا[1]، تقدم صاحب حماة، وهو الملك المنصور، ودخل مصر، وبقي الناصر في عكسر قليل، فتوجهوا إلى تيه بني إسرائيل، خوفاً من المصريين.

وأما التتار فوصلوا إلى غزة، واستولوا على ما خلفهم، وتسلموا قلعة دمشق، وجعلوا بها نائباً، ثم تفرقوا في بلاد الشام، يفعلون ما يختارون، وطافوا في دمشق برأس الملك الكامل الشهيد، صاحب مَيّافارِقِين، وقد كانوا حاصروه سنة ونصفاً، وما زال ظاهراً عليهم، إلى أن فني أهل البلد لفناء الأقوات.

ثم سار الناصر وأخوه وحاشيته إلى هولاكو، وكان جاء كتاب هولاكو، قبل وصوله إلى دمشق، فقرئ بدمشق، وصورته:

أما بعد، فنحن جنود الله، بنا ينتقم ممن عتا وتجبر، وطغى وتكبر، ونحن قد أهلكنا البلاد، وأبدنا العباد، وقتلنا النساء والأولاد، فأيها الباقون، أنتم بمن مضى لاحقون، وأيها الغافلون، أنتم إليهم تساقون، ونحن جيوش المهلكة لا جيوش المملكة، مقصودنا الانتقام، وملكنا لا يرام، ونزيلنا لا يضام، وعدلنا في ملكنا قد اشتهر، ومن سيوفنا أين المفر:

أيـن المفـر ولا مفـر لهـارب ... ولنـا البـسيطان؛ الثـرى والمـاء
ذلت لهيبتنا الأسود، وأصبحت ... في قبـضنا الأمـراء والخلفـاء

ونحن إليكم صائرون، ولكم الهرب وعلينا الطلب.

---

(١) قطيا: قرية في طريق مصر.

ستعلم ليلى أيَّ دَيْن تداينت وأيَّ غريم بالتقاضي غريمها

[٣٠٢] وشمخت النصارى بدمشق، وصاروا يرفعون الصليب، ويمرون به في الأسواق، والخمر معهم يرشونه على المساجد والمصلين، ومن رأى الصليب ولا يقوم له عاقبوه.

وأما المصريون فإنهم سلطنوا الملك المظفر قطز، واجتمعوا وطلبوا شيخ الإسلام عز الدين عبدالسلام، وحضر إليهم بيبرس البندقداري، يستحثهم ويهون عليهم....[1].

الرافعي

عبدالكريم بن محمد بن عبدالكريم، أبو القاسم الرافعي.

صاحب الشرح الكبير المسمى الفتح العزيز في شرح الوجيز، والمحرر وغير ذلك.

قال النووي: الرافعي من الصالحين المتمكنين، كانت له كرامات كثيرة.

وقال أبو عبدالله محمد بن محمد الإسفرايني:

---

(١) كذا بياض بالأصول، وبقية الحديث على ما جاء في كتب التواريخ، أن سلطان العلماء الشيخ عز الدين بن عبدالسلام استنهض العزائم للجهاد ورغب الخاصة والعامة في البذل والفداء، ثم خرج المصريون في شعبان سنة ثمان وخمسين وستمائة متجهين إلى الشام لسحق التتار، وفي يوم الجمعة خامس عشر رمضان وعند عين جالوت بين بيسان ونابلس تقدم المصريون وعلى رأسهم قطز وبيبرس إلى صفوف =التتارفمزقوهم شر ممزق وقتلوا منهم مقتلة عظيمة، وعلى ثرى الشام اختلطت دماء التتار الغزاة بدماء أسلافهم الصليبيين البغاة، وكانت صفحة مضيئة في التاريخ الإسلامي مثل تلك التي نقشها صلاح الدين الأيوبي، وصدق أحكم الحاكمين: ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾.

هو شيخنا، إمام الدين، وناصر السنة. كان أوحد عصره في العلوم الدينية، أصولاً وفروعاً، مجتهد زمانه في المذهب، فريد وقته في التفسير، كان له مجلس بقزوين للتفسير ولتسميع الحديث.

[٣٠٣] ونقلت من خط الحافظ صلاح الدين خليل بن كيكلدي العلائي: نقلت من خط الحافظ علم الدين أبي محمد القاسم بن محمد البرزالي، نقلت من خط الشيخ الإمام تاج الدين ابن الفركاح، أن القاضي شمس الدين بن خلكان حدثه، أن الإمام الرافعي توفى في ذي القعدة سنة ثلاث وعشرين وستمائة، وأن خوارزم شاه، يعني جلال الدين، غزا الكَرْج بتفليس[1]، في هذه السنة، وقتل فيهم بنفسه حتى جمد الدم على يده، فلما مر بقزوين خرج إليه الرافعي، فلما دخل إليه أكرمه إكراماً عظيماً، فقال له الرافعي: سمعت أنك قاتلت الكفار حتى جمد الدم على يدك، فأحب أن تخرج إليّ يدك لأقبلها. فقال له السلطان: بل أنا أحب أن أقبل يدك. فقبل السلطان يده، وتحادثا، ثم خرج الشيخ وركب دابته، وسار قليلاً، فعثرت به الدابة، فوقع فتأذت يده التي قبلها السلطان، فقال الشيخ: سبحان الله، لقد قبل هذا السلطان يدي، فحصل في نفسي شيء من العظمة، فعوقبت في الوقت بهذه العقوبة.

[٣٠٤] سمعت شيخنا شمس الدين محمد بن أبي بكر بن النقيب، يحكى أن الرافعي فقد في بعض الليالي ما يسرجه عليه وقت التصنيف، فأضاءت له شجرة في بيته.

---

(١) وهي تبليس عاصمة جورجيا اليوم.

[وهذه فوائد من أمالي الرافعي]

[٣٠٥] قال في قوله ﷺ: «**إن لله تسعة وتسعين اسماً، مائة إلا واحدة، من أحصاها دخل الجنة**»:

إنما قال «**مائة إلا واحداً**» لئلا يتوهم أنه على التقريب، وفيه فائدة رفع الاشتباه، فقد يشتبه في الخط تسعة وتسعون بسبعة وسبعين.

[٣٠٦] وأنشد لنفسه أيضاً:

إن كنت في اليسر فاحمد من حباك به ... فليس حقاً قضى لكنه الجود

أو كنت في العسر فاحمد كذلك إذ ... ما فوق ذلك مصروف ومردود

وكيفما دارت الأيام مقبلة ... وغير مقبلة فالحمد محمود

[٣٠٧] وقال:

اعلم أن الناس في الرضا ثلاثة أقسام:

قوم يحسون بالبلاء ويكرهونه، ولكن يصبرون على حكمه، ويتركون تدبيرهم ونظرهم حباً لله تعالى؛ لأن تدبير العقل لا ينطبق على رسوم المحبة والهوى، قال قائلهم:

لن يضبط النقل إلا ما يدبره ... ولا ترى في الهوى للعقل تدبيرا

كن محسناً أو مسيئاً وابق لي أبداً ... وكن لدي على الحالين مشكوراً

وقوم يضمون إلى سكون الظاهر سكون القلب، بالاجتهاد و**الرياضة**، وإن أتى البلاء على أنفسهم، بل:

يستعذبون بلاياهم كأنهمُ ... لا ييأسون من الدنيا إذا قتلوا

ولذلك قال ذو النون المصري: الرجاء سرور القلب بمرور القضاء، وقالت رابعة: إنما يكون العبد راضياً إذا سرته البلية كما سرته النعمة.

وقوم يتركون الاختيار، ويوافقون الأقدار، فلا يبقى لهم تلذذ ولا استعذاب، ولا راحة ولا عذاب، قال أبو الشِّيص، وأحسن:

وقف الهوى بي حيث أنت فليس لي متأخر عنه ولا متقدم
أجد الملامة في هواك لذيذة حبا لذكرك فليلمني اللُّوَّم
أشبهتِ أعدائي فصرت أحبهم إذ كان حظي منك حظي منهم
وأهنتني فأهنت نفسي عامداً ما مَن يهون عليك ممن يُكرم

[٣٠٨] قال في الإملاء، على حديث عائشة: «كان رسول الله ﷺ يستفتح الصلاة بالتكبير، والقراءة بالحمد لله رب العالمين»:

حمل الشافعي ذلك فيما نقله أبو عيسى الترمذي وغيره، على التعبير عن السورة، يذكر أولها بعد آية التسمية المشتركة، كما يقال قرأت طه ويس، قال: ثم هذا الاستدلال، يعني استدلال الخصوم، على أنها ليست من القرآن بهذا الحديث، لا يتضح على قول من يذهب إلى أن التسمية في أوائل السور ليست من القرآن، لأن المراد من قوله «يستفتح القراءة» قراءة القرآن، لا مطلق القراءة، وحينئذ فالافتتاح بالحمد لله رب العالمين لا ينافي قراءة البسملة أولاً، كما لا ينافي قراءة التعوذ ودعاء الاستفتاح.

[٣٠٩] قال الرافعي:

سبيل من أشرف قلبه ونور بصيرته على الضياع أن يستغيث بالرحمن، رجاء أن يتدارك أمره بالرحمة والاصطناع، ويتضرع بما أنشد عبدالله بن الحسن الفقير:

لو شئت داويت قلباً أنت مسقمه   وفي يديك من البلوى سلامته
إن كان يُجهل ما في القلب من حُرَق   فدمع عيني على خدي علامته

ثم روى بسنده أن سمنون كان جالساً على الشط، وبيده قضيب يضرب به فخذه وساقه حتى تبدد لحمه، وهو يقول:

كان لي قلب أعيش به   ضاع مني في تقلبه
رب فاردده عليّ فقد   ضاق صدري في تطلبه
وأغث ما دام بي رمق   ياغياث المستغيث به

[٣١٠] وروى عن مسرور الخادم، قال: لما احتضر هارون أمير المؤمنين، أمرني أن آتيه بأكفانه، فأتيته بها، ثم أمرني فحفرت له قبره، ثم أمر فحمل إليه، وجعل يتأمله ويقول: ﴿ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ۜ (٢٨) هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ ﴾(١) ثم أنشد الرافعي لنفسه:

الملك لله الذي عنت الوجو   ه له وذلت عنده الأرباب
متفرد بالملك والسلطان قد   خسر الذين تجاذبوه وخابوا
دعهم وزَعْمَ الملك يوم غروهم   فسيعلمون غداً من الكذاب(٢)

---

(١) سورة الحاقة: آية ٢٨، ٢٩.

[٣١٢] (٢) هذا وقد زاد المصنف في الطبقات الوسطى من شعر الرافعي هذه الأبيات:

أقيما على باب الرحيم أقيما   ولا تنيا في ذكره فتهيما
هو الرب من يقرع على الصدق بابه   يجده رؤوفاً بالعباد رحيما

ومنه، وبه ختم «الأمالي»:

عبدالكريم المرتجي نعمة   بليغةً من كل أرجائهِ
ليس يزكيها ولكنَّهُ   يقول قول الحائر التائهِ

[٣١١] وقال في قوله ﷺ : «**إنه ليغان على قلبي فأستغفر الله في كل يوم مائة مرة**» :

مم كان يتوب النبي ﷺ ؟ وعلام يُحملُ الغين[1] في قلبه؟ افترق الناس فيه فرقتين: فرقة أنكرت الحديث، واستعظمت أن يغان قلب رسول الله ﷺ حتى يستغفر مما أصابه، وعلى ذلك جرى أبو نصر السراج، صاحب كتاب «اللمع» في التصوف، فروى الحديث، وقال عَقِيبَه: هذا حديث منكر. وأنكر علماء الحديث استنكار السراج، وقالوا: الحديث صحيح، وكان من حقه أن لا يتكلم فيما لا يعلم. والمصححون له تحزبوا، فتحرج من تفسيره متحرجون.

عن شعبة: سألت الأصمعي: ما معنى «ليغان على قلبي» فقال: عمن يروى ذلك؟ قلت: عن النبي ﷺ. قال: لو كان عن غير قلب النبي ﷺ فسرته لك، وأما قلب النبي ﷺ فلا أدري، فكان شعبة يتعجب منه.

وعن الجنيد: لولا أنه حال النبي ﷺ لتكلمت فيه، ولا يتكلم على حال إلا من كان مشرفاً عليها، وجلّت حاله أن يشرف على نهايتها أحد من الخلق، وتمنى الصديق رضي الله عنه مع عُلّو مرتبته أن يشرف عليها، فعنه: ليتني شهدت ما استغفر منه رسول الله ﷺ.

فهذه طريقة المصححين، وتكلم فيه آخرون على حسب ما انتهى إليه فهمهم، ولهم منهاجان: أحدهما: حمل الغين على حالة جميلة ومرتبة عالية، اختص بها النبي ﷺ، والمراد من استغفاره خضوعه وإظهار حاجته إلى ربه أو

فاز أبو القاسم يارب لو قبلت حرفين من إملائه

(١) الغين والغيم: ما يتغشى القلب. وانظر مزيد شرح في شرح النووي على صحيح مسلم. (كتاب الذكر والدعاء).: ١٧/ ٢٣

ملازمته للعبودية، ومن هؤلاء من نزل الغين على السكينة والاطمئنان.

وعن أبي سعيد الخراز: الغين: شيء لا يجده إلا الأنبياء وأكابر الأولياء، لصفاء الأسرار وهو كالغين الرقيق الذي لا يدوم.

والثاني: حمل الغين على عارض يطرأ، غيره أكمل منه، فيبادر إلى الاستغفار إعراضاً، وعلى هذا كثرت التنزيلات والتأويلات، فقد كان سبب الغين النظر في حال الأمة وإطلاعه على ما يكون منهم، فكان يستغفر لهم، وقيل: سببه ما يحتاج إليه من التبليغ ومشاهدة الخلق، فيستغفر منه ليصل إلى صفاء وقته مع الله، وقيل: ما كان يشغله من تمادي قريش وطغيانهم، وقيل: ما كان يجد في نفسه من محبة إسلام أبي طالب، وقيل: لم يزل رسول الله ﷺ مترقياً من رتبة إلى رتبة، فكلما رقي درجة والتفت إلى ما خلفها وجد منها وحشة لقصورها بالإضافة إلى التي انتهى إليها، وذلك هو الغين، فيستغفر الله منها[1].

ابن بنت الأعز

عبدالوهاب بن خلف بن بدر العلامي.

قاضي القضاة تاج الدين، ابن بنت الأعز، ولد في مستهل رجب، سنة أربع وستمائة، وسمع من جعفر الهمداني، وقرأ «سنن أبي داود» على الحافظ زكي الدين، وحدث.

وكان رجلاً فاضلاً، ذكي الفطرة، حاد القريحة، صحيح الذهن، رئيساً

(١) «طبقات الشافعية الكبرى»: ٨/٢٨١-٢٩٣.

عفيفاً نزهاً، جميل الطريقة، حسن السيرة، مقدماً عند الملوك، ذا رأي سديد، وذهن ثاقب، وعلم جم.

ولي قضاء القضاة بالديار المصرية، والوزارة والنظر، وتدريس قبة الشافعي رضي الله عنه، والصالحية، والخطابة والمشيخة، واجتمع له من المناصب مالم يجتمع لغيره، وكان يقال: إنه آخر قضاة العدل. واتفق الناس على عدله وخيره، وكان الشيخ علاء الدين الباجي يصفه بصحة الذهن.

وعن شيخ الإسلام تقي الدين بن دقيق العيد، أنه قال:

لو تفرغ ابن بنت الأعز للعلم فاق ابن عبدالسلام.

وعن بعض الكبار في عصره، أنه قال:

قاضيان حجة الله على القضاة: ابن بنت الأعز، وابن البارزي قاضي حماة. يعني جد قاضي القضاة شرف الدين هبة الله.

[٣١٣] وفي أيامه جدد الملك الظاهر(١) القضاة الثلاثة في القاهرة، ثم في دمشق، وكان سبب ذلك أنه سأل القاضي تاج الدين في أمر، فامتنع من الدخول فيه، فقيل له: مر نائبك الحنفي، وكان القاضي وهو الشافعي يستنيب من شاء من المذاهب الثلاثة، فامتنع من ذلك أيضاً، فجرى ما جرى، وكان الأمر متمحضاً للشافعية، فلا يعرف أن غيرهم حكم في الديار المصرية منذ وليها أبو زرعة محمد بن عثمان الدمشقي، في سنة أربع وثمانين ومائتين، إلى زمان الظاهر، إلا أن يكون نائب يستنيبه بعض قضاة الشافعية في جزئية خاصة، وكذا

---

(١) أي الظاهر بيبرس.

دمشق، لم يلها بعد أبي زرعة المشار إليه، فإنه وليها أيضاً ولم يلها بعده إلا شافعي، غير التلاشاعوني التركي الذي وليها يُوَيْمَات[1]، وأراد أن يجدد في جامع بني أمية إماماً حنفياً، فأغلق أهل دمشق الجامع، وعزل القاضي واستمر جامع بني أمية في يد الشافعية، كما كان في زمن الشافعي، رضي الله عنه، ولم يكن يلي قضاء الشام والخطابة والإمامة بجامع بني أمية إلا من يكون على مذهب الأوزاعي، إلى أن انتشر مذهب الشافعي، فصار لا يلي ذلك إلا الشافعية.

[٣١٤] وقال أهل التجربة:

إن هذه الأقاليم المصرية والشامية والحجازية، متى كانت البلد فيها لغير الشافعية خربت، ومتى قدم سلطانها غير أصحاب الشافعي زالت دولته سريعاً، وكأن هذا السر جعله الله في هذه البلاد، كما جعل مثله لمالك في بلاد المغرب، ولأبي حنيفة فيما وراء النهر.

[٣١٥] وسمعت الشيخ الإمام الوالد يقول:

سمعت صدر الدين ابن المرحل رحمه الله، يقول: ما جلس على كرسي ملك مصر غير شافعي إلا وقتل سريعاً، وهذا الأمر يظهر بالتجربة، فلا يعرف غير شافعي إلا قطز، رحمه الله، كان حنفياً، ومكث يسيراً وقتل، وأما الظاهر، فقلد الشافعي يوم ولاية السلطنة، ثم لما ضم القضاة إلى الشافعية استثنى للشافعية الأوقاف وبيت المال والنواب وقضاة البر والأيتام، وجعلهم الأرفعين، ومع ذلك قيل: إنه ندم، وقال: أندم على ثلاث: ضم غير الشافعية

---

(١) أي أيام قليلة.

إليهم، والعبور بالجيوش إلى الفرات، وعمارة القصر الأبلق بدمشق.

[٣١٦] وحُكى أن الظاهر رأى الشافعي في النوم لما ضم إلى مذهبه بقية المذاهب، وهو يقول: تهين مذهبي؟ البلاد لي أو لك؟ أنا قد عزلتك وعزلت ذريتك إلى يوم الدين. فلم يمكث إلا يسيراً ومات، ولم يمكث ولده السعيد إلا يسيراً، وزالت دولته، وذريته إلى الآن فقراء، وجاء بعده قلاوون، وكان دونه تمكناً ومعرفة، ومع ذلك مكث الأمر فيه وفي ذريته إلى هذا الوقت، ولله تعالى أسرارٌ لا يدركها إلا خواص عباده، وللأئمة رضي الله عنهم عنده مقامات لا ينتهي إليها عقول أمثالنا، فكان الرأي السديد لمن رأى قواعد البلاد مستمرة على شيئ غير باطل أن يجري الناس على ما يعهدون، ولكن إذا أرد الله أمراً هيأ أسبابه، ولعل سبب زوال دولة المذكور بهذا السبب.

[٣١٧] وقد حكى أنه رئى في النوم، فقيل: ما فعل الله بك؟ قال: عذبني عذاباً شديداً بجعل القضاة أربعة، وقال: فرقت كلمة المسلمين. ولا يخفي علي ذي بصيرة ما حصل من تفرق الكلمة وتعدد الأمراء، واضطراب الآراء.

[٣١٨] وقد قال أبو شامة لما حكى ضم القضاة الثلاثة: إنه ما يعتقد أن هذا وقع قط. وصدق، فلم يقع هذا في وقت من الأوقات، وبه حصلت تعصبات المذاهب، والفتن بين الفقهاء.

[٣١٩] ويحكى أن القاضي تاج الدين، ركب وتوجه إلى القرافة، ودخل على الفقيه مفضل، حتى تولى عنه الشرقية، فقيل له: تروح إلى شخص حتى توليه! فقال: لولم يفعل لقبلت رجله حتى يقبل؛ فإنه يسد عني ثلمة من جهنم.

[٣٢٠] وكان الأمراء الكبار يشهدون عنده فلا يقبل شهادتهم، فيقال: إن ذلك أيضاً من جملة الحوامل على ضم القضاة الثلاثة إليه.

توفي رحمه الله سنة ٦٦٥هـ بالقاهرة.(١)

البوشنجي

محمد بن إبراهيم، أبو عبدالله، شيخ أهل الحديث في زمانه في نيسابور، وكان إماماً في اللغة وكلام العرب، وكان جواداً سخياً، ومولده سنة ٢٠٤هـ، وتوفي عام ٢٩١هـ، وصلى عليه إمام الأئمة ابن خزيمة.

وهذه فوائد ونخب عن أبي عبدالله البوشنجي رحمه الله:

[٣٢١] ❖ ورووا أن رجلاً قال لأبي حنيفة: ما تقول في رجل قال: إني لا أرجو الجنة، ولا أخاف النار، وآكل الميتة والدم، وأصدق اليهود والنصارى، وأبغض الحق، وأهرب من رحمة الله، وأشرب الخمر، وأشهد بما لم أر، وأحب الفتنة، وأصلي بغير وضوء، وأترك الغسل من الجنابة، وأقتل الناس؟

فقال أبو حنيفة لمن حضره: ما تقول فيه؟

فقال: هذا كافر.

فتبسم، وقال: هذا مؤمن، أما قوله: لا أرجو الجنة، ولا أخاف النار، فأراد: إنما أرجو وأخاف خالقهما.

---

(١) «طبقات الشافعية الكبرى»: ٨/٣١٨-٣٢٣.

وأراد بأكل الميتة والدم، السمك والجراد، والكبد والطحال.

وبقوله: أصدق اليهود والنصارى، قول كل منهم: إن أصحابه ليسوا على شيء، كما قال تعالى حكاية عنهم.

ويقول أهرب من رحمه الله: الهروب من المطر.

وبقوله: أبغض الحق، يعني الموت، لأن الموت حق لابد منه.

ويشرب الخمر، شربه في حال الاضطرار..

ويحب الفتنة: الأموال والأولاد، على ما قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾[1].

وبالشهادة على مالم ير: الشهادة بالله وملائكته وأنبيائه.

والصلاة بغير وضوء ولا تيمم: الصلاة على النبي ﷺ.

وترك الغسل من الجنابة: إذا فقد الماء.

وبالناس الذين يقتلهم الكفار، وهم الذين سماهم الله (الناس) في قوله ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ﴾[2].

[٣٢٢] ❖ وروى أن محمد بن الحسن سأل الشافعي عن: خمسة زنوا بامرأة، فوجب على واحد القتل؛ والآخر الرجم، والثالث الحد، والرابع نصف الحد، ولم يجب على الخامس شيء.

---

(١) سورة التغابن: آية ١٥.

(٢) سورة آل عمران: آية ١٧٣.

فقال الشافعي : الأول ذمي زنى بمسلمة ، فانتقض عهده ، فيقتل.

والثاني زان محصن ، والثالث بكر حر ، والرابع عبد ، والخامس مجنون.

[٣٢٣] ❖ وروى أن الشافعي رضي الله عنه سئل عن : امرأة في فيها لقمة ؛ قال زوجها : إن بلعتيها فأنت طالق ، وإن أخرجتيها فأنت طالق. ما الحيلة؟

قال : تبلع نصفها ، وتخرج نصفها.

[٣٢٤] وأنه جاء رجل إلى أبي حنيفة رضي الله عنه ، فقال : حلفت بالطلاق لا أكلم امرأتي قبل أن تكلمني. فقالت : والعتاق لازم لي لا أكلمك قبل أن تكلمني. فكيف أصنع ؟

فقال : اذهب فكلمها ، ولا حِنث عليكما.

فذهب إلى سفيان الثوري ، فجاء سفيان إلى أبي حنيفة مغضباً ، فقال : أتبيحُ الفروج !

قال أبو حنيفة : وما ذاك؟ فقص له القصة ، فقال أبو حنيفة : هو كذا ؛ إنها لما قالت له : إن كلمتك فعلي العتاق شافهته بالكلام ، فانحلت يمينه ، فإذا كلمها بعد لم يقع الطلاق. فقال سفيان : إنك لتكشف ما كنا عنه غافلين.

[٣٢٥] ❖ وعن أبي يوسف القاضي : قال : طلبني هارون الرشيد ليلاً ، فلما دخلت عليه إذا هو جالس ، وعن يمينه عيسى بن جعفر ، فقال لي : إن عند عيسى جارية ، وسألته أن يهبها لي فامتنع ، وسألته أن يبيعها فامتنع.

فقلت : وما منعك من بيعها ، أو هبتها لأمير المؤمنين؟

فقال: إن علي يميناً أن لا أبيعها ولا أهبها.

فقال الرشيد: فهل له في ذلك مخرج؟

قلت: نعم، يهب لك نصفها، ويبيعك نصفها؛ فيكون لم يهبها ولم يبعها.

قال عيسى: فأشهدك أني قد وهبتك نصفها، وبعتك نصفها.

فقال الرشيد بعد ذلك: أيها القاضي، بقيت واحدة.

فقلت: وما هي؟

فقال: إنها أمة، ولابد من استبرائها، ولابد أن أطلبها في هذه الليلة.

فقلت له: أعتقها، وتزوجها؛ فإن الحرة لا تستبرأ. ففعل ذلك، فعقدت عقده عليها، وأمر لي بمال جزيل.

[٣٢٦] ❖ وحضرت امرأة إلى أمير المؤمنين المأمون، فقالت:

يا أمير المؤمنين، إن أخي مات وترك ستمائة دينار، فلم أعط إلا ديناراً واحداً.

فقال: كأني بك قد ترك أخوك زوجة، وأما، وبنتين، واثني عشر أخاً، وأنت.

فقالت: نعم، كأنك حاضر.

فقال: أعطوك حقك، للزوجة ثمن الستمائة، وذلك خمسة وسبعون دينارا، وللأم السدس، وذلك مائة دينار، وللبنتين الثلثان، وذلك أربعمائة دينار، وللاثني عشر أخا أربعة وعشرون ديناراً، ولك دينار واحد.

[٣٢٧] ❖ وسئل القفال عن:

بالغ عاقل مسلم، هتك حرزا، فجاء صاحب الدار بمال ووضعه، فخرج السارق وأخذه وخرج، فلا يقطع؛ لأن المال حصل بعد هتك الحرز.

[٣٢٨] ❖ وسئل بعض المشايخ عن:

رجل خرج إلى السوق، وترك امرأته في البيت، ثم رجع فوجد عندها رجلاً، فقال: ما هذا؟ قالت: هذا زوجي، وأنت عبدي، وقد بعتك.

فقال الشيخ: هو عبد زوجه سيده بابنته، ودخل العبد بها، ثم مات سيده، ووقعت الفرقة؛ لأنها ملكت زوجها بالإرث، ثم إنها كانت حاملاً، فوضعت، فانقضت العدة، فتزوجت، وباعت ذلك الزوج؛ لأنه صار عبدها.

[٣٢٩] ❖ وسئل آخر عن: رجل نظر إلى امرأة أول النهار وهي حرام عليه، ثم حلت ضحوة، وحرمت الظهر، وحلت العصر، وحرمت المغرب، وحلت العشاء، وحرمت الفجر، وحلت الضحى، وحرمت الظهر!

فقال: هذا رجل نظر إلى أمة غيره بُكرة، واشتراها ضحوة، وأسقط الاستبراء بحيلة فحلت له، وأعتقها الظهر فحرمت عليه، فتزوجها العصر فحلت، فظاهر منها المغرب فحرمت، فكفر عن يمينه العشاء فحلت، فطلقها عند الفجر فحرمت، فراجعها ضحوة فحلت، فارتدت الظهر فحرمت.

ولك أن تزيد، فتقول: ثم حلت العصر، ثم حرمت المغرب حرمةً مؤبدة؛ وذلك بأن تكون أسلمت العصر فبقيت على الزوجية، ثم لاعنها المغرب.

[٣٣٠] ❖ وسئل آخر عن: امرأة لها زوجان، ويجوز أن يتزوجها ثالث ويطأها!

فقال: هذه امرأة لها عبد وأمة، زوجت أحدهما بالآخر، فيصدق أنها امرأة لها زوجان. واللام في (لها) للملك، وإذا جاء ثالث حر أراد نكاحها فله ذلك.

[٣٣١] ❖ وسئل آخر عن: رجل قال لامرأته، وهي في ماءٍ جارٍ: إن خرجت من هذا الماء فأنت طالق، وإن لم تخرجي فأنت طالق.

فقال: لا تطلق، خرجت أو لم تخرج؛ لأنه جرى وانفصل. نقله الرافعي في «فروع الطلاق»

الإمام البخاري

محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بَرْدِزْبه، إمام المسلمين، صاحب «الجامع الصحيح» ولد سنة ١٩٤هـ، ونشأ يتيماً، وحبب إليه العلم من الصغر، وأعانه عليه ذكاؤه المفرط.

[٣٣٢] قال الفَرَبْرِي: قال لي محمد بن إسماعيل البخاري: ما وضعت في الصحيح حديثاً إلا اغتسلت قبل ذلك، وصليت ركعتين.

[٣٣٣] وكان البخاري يختم القرآن كل يوم نهاراً، ويقرأ في الليل عند السحر ثلثاً من القرآن، فمجموع ورده ختمة وثلث ختمة.

[٣٣٤] وكان يقول: أرجو أن ألقى الله ولا يحاسبني باغتياب أحد.

[٣٣٥] وكان يصلي ذات يوم، فلسعه الزنبور سبع عشر مرة، ولم يقطع صلاته، ولا تغير حاله.

[٣٣٦] وكان إذا كان أول ليلة من شهر رمضان، تجتمع إليه أصحابه،

فيصلي بهم، ويقرأ في كل ركعة عشرين آية، وكذلك إلى أن يختم القرآن، وكان يقرأ في السحر ما بين النصف إلى الثلث من القرآن، فيختم عند السحر في كل ثلاث ليال، وكان يختم بالنهار في كل يوم ختمة، ويكون خمته عند الإفطار كل ليلة، ويقول: عند كل ختم دعوة مستجابة.

وقال محمد بن أبي حاتم:

[٣٣٧] رأيت أبا عبدالله البخاري استلقى على قفاه يوماً، ونحن بفَرَبْر، في تصنيف «كتاب التفسير» وأتعب نفسه يومئذ، فقلت: إني أراك تقول: إني ما أتيت شيئاً بغير علم قط منذ عقلت، فما الفائدة في الاستلقاء؟ قال: أتعبنا أنفسنا اليوم، وهذا ثغر من الثغور، خشيت أن يحدث حدث من أمر العدو، فأحببت أن أستريح، وآخذ أهبة، فإن غافصنا[1] العدو كان بنا حراك.

[٣٣٨] وكان يركب إلى الرمي، فما أعلم أني رأيته في طول صحبته أخطأ سهمه الهدف إلا مرتين، وكان لا يسبق.

[٣٣٩] وسمعته يقول: ما أردت أن أتكلم بكلام، فيه ذكر الدنيا، إلا بدأت بحمد الله والثناء عليه.

[٣٤٠] وذكر بكر بن منير: أنه حمل إلى البخاري بضاعة، أنفذها إليه ابنه أحمد، فاجتمع به بعض التجار، فطلبوها منه بربح خمسة آلاف درهم. فقال: انصرفوا الليلة. فجاءه من الغد تجار آخرون، فطلبوها منه بربح عشرة آلاف درهم، فقال: إني نويت البارحة بيعها للذين أتوا البارحة.

---

(١) غافصه أي فاجأه وأخذه على غرة، انظر "المعجم الوسيط": ٢/٦٥٧.

[٣٤١] ❖ استدل البخاري على جواز النظر إلى المخطوبة، بقول النبي ﷺ لعائشة رضي الله عنها: «رأيتك في المنام يجيء بك الملك في سَرَقَة من حرير[١]، فقال لي: هذه امرأتك، فكشفت عن وجهك الثوب؛ فإذا أنت هي».

قال الوالد رحمه الله في «شرح المنهاج»: وهذا استدلال حسن، لأن فعل النبي ﷺ في النوم واليقظة سواء، وقد كشف عن وجهها.

[٣٤٢] عن الشافعي أنه قال: يكره أن يقول الرجل: قال الرسول. بل يقول: قال رسول الله ﷺ؛ ليكون معظماً. انتهى.

توفي رحمه الله بخَرْتنك، قرية من قرى سمر قند، على فرسخين منها سنة ٢٥٦هـ.

[٣٤٣] قال محمد بن أبي حاتم: فلما دفناه فاح من تراب قبره رائحة عالية، فدام على ذلك أياماً، فثم علت سواري بيض في السماء مستطيلة، بحذاء قبره، فجعل الناس يختلفون ويتعجبون.

[٣٤٤] وأما التراب فإنهم كانوا يرفعون عن القبر، حتى ظهر القبر، ولم يكن يُقْدَر على حفظ القبر بالحرّاس، وغُلبنا على أنفسنا، فنصبنا على القبر خشباً مشبكاً، لم يكن أحد يقدر على الوصول إلى القبر، وأما ريح الطيب فإنه تداوم أياماً كثيرة، حتى تحدث أهل البلدة، وتعجبوا من ذلك[٢].

---

(١) أي قطعة من حرير.

(٢) «طبقات الشافعية الكبرى»: ٢/٢١٢- ٢٤١.

محمد بن نصر المروزي

محمد بن نصر المروزي ، أبو عبدالله ، أحد أعلام الأمة ، ولد سنة ٢٠٢هـ ببغداد.

حُكي أن محمد بن نصر كان يتمنى على كبر سنه أن يولد له ابن ، قال الحاكي :

[٣٤٥] فكنا عنده يوماً وإذا برجل من أصحابه قد جاء وسارّه في أذنه ، فرفع يديه وقال : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ ﴾ (١) ثم مسح وجهه بباطن كفه ورجع إلى ما كان فيه.

[٣٤٦] قال الحاكي : فرأينا أنه استعمل في تلك الكلمة الواحدة ثلاث سنن : تسمية الولد ، وحمد الله على الموهبة ، وتسمية إسماعيل ؛ لأنه ولد على كبر سنه ، وقال الله عز وجل ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾ (٢).

قلت : كذا أسند الحكاية الحاكم أبو عبدالله وإن كان محمد بن نصر قصد الثلاث فنستفيد من هذا أنه يستحب لمن ولد له ابن على الكبر أن يسميه إسماعيل ، وهي مسألة حسنة.

[٣٤٧] نقل محمد بن نصر المروزي في كتابه «تعظيم قدر الصلاة» عن بعض أهل العلم ، أن علة النهي عن السمر بعد العشاء الآخرة لأن مصلي العشاء قد كفرت عنه ذنوبه بصلاته ، فيخشى أن يكون منه الزلة ، فيتدنس بالذنب بعد الطهارة.

---

(١) سورة إبراهيم : آية ٣٩.

(٢) سورة الأنعام : آية ٩٠.

قلت: وعلله آخرون بوقوع الصلاة، التي هي أفضل الأعمال خاتمة عمله، وهو قريب من ذلك.

وآخرون بأن الله قد جعل الليل سكناً، والحديث يخرجه عن ذلك.

وآخرون بأن نومه يتأخر، فيخاف فوات الصبح عن وقتها، أو عن أوله.

وآخرون بخشية مَن له تهجد فواته.

قلت: ويمكن أن يُتعلق بكل من هذه المعاني؛ بجواز اجتماعها، ولا يمكن أن يقتصر على واحد من التعليلين الأخيرين؛ لئلا يلزم اختصاص الكراهة بمن يخشى فوات الصبح، واختصاصهما بمن له تهجد يخشى فواته.

توفي محمد بن نصر بسمرقند سنة أربع وتسعين ومائتين(١).

ابن عبدالحكم

محمد بن عبدالله، أبو عبد الله، ولد سنة ١٨٢هـ.

[٣٤٨]قال محمد بن عبدالله بن عبدالحكم: حدثنا الشافعي قال:

ذكرت لمحمد بن الحسن الدعاء في الصلاة، فقال لي: لا يجوز أن يدعى في الصلاة إلا بما في القرآن، وما أشبهه.

قلت له: فإن قال رجل: اللهم أطعمني قثاء وبصلا وعدساً؛ أو ارزقني ذلك أو أخرجه لي من أرض، أيجوز ذلك؟

---

(١) «طبقات الشافعية الكبرى»: ٢/٢٤٦-٢٥٥.

قال: لا.

قلت: فهذا في القرآن، فإن كنت إنما تجيز ما في القرآن خاصة فهذا فيه، وإن كنت تجيز غير ذلك، فلم حظرت شيئاً وأبحت شيئاً؟

قال: فما تقول أنت؟

قلت: كل ما جاز للمرء أن يدعو الله به في غير صلاة فجائز أن يدعو به في الصلاة، بل أستحب ذلك؛ لأنه موضع يرجى سرعة الإجابة فيه، والصلاة: القراءة والدعاء. والنهي عن الكلام في الصلاة هو كلام الآدميين بعضهم لبعض في غير أمر الصلاة.

[٣٤٩] قال ابن عبدالحكم: سمعت الشافعي يقول:

لم يثبت عن ابن عباس في التفسير إلا شبيه بمائة.

[٣٥٠] وقال: سمعت الشافعي يقول:

ثلاثة أشياء ليس لطبيب فيها حيلة: الحماقة والطاعون والهرم(١).

المُزَنيّ

إسماعيل بن يحيى بن إبراهيم، ولد سنة ١٧٥هـ.

من الفوائد عن المزني رحمه الله تعالى:

قال الطحاوي: حدثنا المزني، قال: سمعت الشافعي، يقول:

---

(١) «طبقات الشافعية الكبرى»: ٢/٦٧-٧١.

[٣٥١] دخل ابن عباس على عمرو بن العاص، وهو مريض، فقال: كيف أصبحت؟

فقال: أصبحت، وقد أفسدت من دنياي كثيراً، وأصلحت من ديني قليلاً؛ فلو كان ما أصلحت هو ما أفسدت لفزت، ولو كان ينفعني أن أطلب طلبت، ولو كان ينجيني أن أهرب هربت، فعظني بموعظة أنتفع بها يا ابن أخي.

فقال: هيهات يا أبا عبدالله.

فقال: اللهم إن ابن عباس يقنطني من رحمتك فخذ مني حتى ترضى.

قال المزني: سمعت الشافعي، يقول:

[٣٥٢] رأيت بالمدينة أربع عجائب: رأيت جدة بنت واحدة وعشرين سنة، ورأيت رجلاً فلسّه القاضي في مُدَّين نوى، ورأيت شيخاً قد أتى عليه تسعون سنة، يدور نهاره أجمع حافياً راجلاً على القينات يعلمهن الغناء، فإذا أتى الصلاة صلى قاعداً، ونسيت الرابعة.

[٣٥٣] قال: وسمعته يقول:

أظلم الظالمين لنفسه من تواضع لمن لا يكرمه، ورغب في مودة من لا ينفعه.

[٣٥٤] وعن المزني: سمعت الشافعي يقول:

لا يحلُّ لأحد سمع حديث رسول الله ﷺ، في رفع اليدين، في افتتاح الصلاة، وعند الركوع، والرفع من الركوع أن يترك الاقتداء بفعله ﷺ.

قلت: هذا صريح في أنه يوجب ذلك[١].

---

(١) «طبقات الشافعية الكبرى»: ٢/٩٣- ١٠٩.

ابن المنذر

محمد بن إبراهيم بن المنذر، أبو بكر النيسابوري، نزيل مكة، أحد أعلام هذه الأمة وأحبارها، كان مجتهداً حافظاً ورعاً.

[٣٥٥] قال أبو بكر ابن المنذر: في كتاب «الإشراف» مانصه:

«ذكر الإمام يخص نفسه بالدعاء دون القوم»: ثبت أن رسول الله ﷺ. كان يقول إذا كبَّر في الصلاة، قبل القراءة: «اللهم باعد بيني وبين خطيئتي كما باعدت بين المشرق والمغرب، اللهم نقني من خطاياي كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس، اللهم اغسلني من خطاياي بالثلج والماء والبرد» قال أبو بكر: وبهذا نقول.

وقد روينا عن مجاهد، وطاوس أنهما قالا: لا ينبغي للإمام أن يخص نفسه بشيء من الدعوات دون القوم، وكره ذلك النووي، والأوزاعي، وقال الشافعي: لا أحب ذلك. انتهى.

وإنما نقلته بحروفه؛ لأن بعض الناس نقل عنه، أنه نقل في هذا الفصل، عن الشافعي، أنه لا يحب تخصيص الإمام نفسه بالدعاء، بل يأتي بصيغة الجمع، في نحو: «اللهم باعد بيني وبين خطيئتي» الحديث، وهذا لا يقوله أحد، بل الأدعية المأثورة يؤتى بها كما وردت، فإذا كانت صيغة إفراد لم يُستحب للإمام أن يأتي بصيغة الجمع، ولا ينبغي له ذلك، وإنما الخير كل الخير في الإتيان بلفظ رسول الله ﷺ.

وأما أنه يُستحب للإمام ألا يخص نفسه بالدعاء، فهو أثرٌ ذكره أصحابنا،

لكن معناه في غير الأدعية المأثورة، وذلك بأن يستفتح لنفسه دعاء، فيُفرد نفسه بالذكر. وأبو بكر إنما صدّر بالحديث استشهاداً لما يقوله، من جواز التخصيص، فقال: قد خصص النبي ﷺ نفسه بهذه الكلمات التي ذكرها في موضع لا تأمين فيه للمأمومين، وليس مراده أن مَن ذكره يخالف رسول الله ﷺ في ذلك، معاذ الله، وإنما حاصل كلامه أن التخصيص جائز في غير المأثور، بدليل ما وقع في المأثور، وإن كُره التخصيص أن يجيب بأنه إنما خصص نفسه، حيث يُسر بالدعاء، ولا تأمين للقوم فيه[١].

القفّال الشاشي

محمد بن علي بن إسماعيل، الإمام الجليل، ذو الباع الواسع في العلوم، ولد سنة ٢٩١هـ.

[٣٥٦] قال الشيخ الإمام أبو عبدالله الحسين بن الحسن الحليمي:

أخبرني عبدالملك بن محمد الشاعر أنه كان فيمن غزا الروم من أهل خراسان وما وراء النهر، عام النفير، وفيهم يومئذ أبو بكر محمد بن علي بن إسماعيل القفال، إمام المسلمين، فوردت من نقفور عظيم الروم على المسلمين قصيدة ساءتهم، وشقت عليهم، لما كان اللعين أجرى إليهم فيها من التثريب، والتعيير، وضروب الوعيد والتهديد، وكان في ذلك الجمع غير واحد من الأدباء، والفصحاء، والشعراء، من كُور خُراسان، وبلاد الشام، ومدائن

---

(١) «طبقات الشافعية الكبرى»: ٣/١٠٢-١٠٨.

العراق، فلم يكمل لجوابها من بينهم إلا الشيخ أبو بكر القفال، وأخبر عبدالملك هذا أنه أُسِر بعد وصول جواب الشيخ إليهم، فلما بلغ قسطنطينية اجتمع أحبارهم عليه، يسألونه عن الشيخ، من هو؟ ومن أي بلد هو؟ ويتعجبون من قصيدته، ويقولون: ما علمنا أن في الإسلام رجلاً مثله، وأن الواردة من نقفور، عليه لعائن الله تعالى كانت باسم الفضل، الإمام المطيع لله، أمير المؤمنين رحمه الله، وهي:

من الملك الطُهْر المسيحي رسالة ... إلى قائم بالملك من آل هاشم
أما سمعتْ أذناك ما أنا صانع ... بلى فعداك العجز عن فعلِ حازم
فإن تك عما قد تقلدت نائماً ... فإني عما همني غير نائم
ثغوركمُ لم يبق فيها لوهنكم ... وضعفكم إلا رسوم المعالم
فتحنا ثغور الإرمنية كلها ... بفتيان صدق كالليوث الضراغم(١)
ونحن جلبنا الخيل تَعْلِك لُجْمَها ... ويلعب منها بعضها بالشكائم
إلى كل ثغر بالجزيرة آهل ... إلى جند قِنَّسْرِينُكم والعواصم(٢)
ومَلْطى مع سُمَيْساط من بعد كرْكر ... وفي البحر أصناف الفتوح القواصم(٣)

---

(١) إرمينية: اسم لصقع واسع عظيم في الشمال، وحدها من برذعة إلى باب الأبواب، ومن الجهة الأخرى إلى بلاد الروم وجبال القبق، قلت: وهي اليوم بلاد الأرمن المعروفة.

(٢) قنسرين: مدينة بينها وبين حلب مرحلة، تفرق عنها أهلها حين غلب الروم على حلب سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة.

(٣) مَلَطْية: مدينة من بلاد الروم، تتاخم الشام. وسميساط: مدينة إلى شاطئ الفرات في طرف الروم، على غربي الفرات، وكركر، حصن قرب ملطية، وهو أيضاً حصن بين سميساط وحصن زياد، وهو قلعة خرت برت.

وبالحدث البيضاء جالت عساكري وكيسوم بعد الجعفري المعالم(١)
ومَرْعش أذللنا أعزة أهلها فصارت لنا من بين عبد وخادم(٢)
وسَلْ بسَروجٍ إذ خرجنا بجمعه تميد به تعلو على كل قائم(٣)
وأهل الرها لاذوا بنا وتحزموا بمنديل مولى جل عن وصف آدم(٤)
وصَبّح رأسَ العين منا بطارقٌ ببيض عدوناها بضرب الجماجم(٥)
ودارا ومَيّافارِقين وأُرْدُناً صبحناهم بالخير مثل الضراغم(٦)
وملنا على طَرَسوس مِيلةَ غابن أذقناهم فيها بحزِّ الحلاقم(٧)
وإقريطِش مالت إليها مراكبي على ظهر بحر مُزْبِد متلاطم(٨)

---

(١) الحدث: قلعة حصينة بين ملطية وسمياط ومرعش.

وكيسوم: قرية من أعمال سميساط، فيها حصن كبير على تلعة.

والجعفري: اسم قصر بناه المتوكل قرب سر من رأى، بموضع يسمى الماحوزة، واستحدث عنده مدينة وانتقل إليها، وأقطع قواده بها قطائع، فصارت أكبر من سر من رأى.

(٢) مرعش: مدينة بالثغور، بين الشام وبلاد الروم، أحدثها الرشيد، لها سوران، وفي وسطها حصن، يسمى المرواني ولها ربض يعرف بالهارونية. قلت: وهي اليوم في تركيا.

(٣) سروج: بلدة قريبة من حران. وقد ورد البيت هكذا في الأصول، وورد في البداية والنهاية ٢٤٥/١١= =هكذا:

وسد بسَرُوج إذْ خرجنا بجمعنا لنا رتبة تعلو على كل قائم

(٤) الرها: مدينة بالجزيرة فوق حران. وهي اليوم مدينة أورفة في تركيا.

(٥) رأس العين: مدينة كبيرة من مدن الجزيرة بين حران ودنيسر. والبطريق: القائد من قواد الروم، تحت يده عشرة آلاف رجل.

(٦) دارا: بلد بالجزيرة في لحف جبل مادين، بينها وبين نصيبين.

وميا فارقين: أشهر مدينة بديار بكر. والأردن: كورة واسعة منها الغور، وطبرية، وصور، وعكا، وما بين ذلك.

(٧) طرسوس: مدينة بثغور الشام، بين أنطاكية وحلب وبلاد الروم، بينها وبين أذنه ستة فراسخ.

(٨) أقريطش (بالفتح ويكسر): جزيرة في بحر المغرب – أي البحر الأبيض المتوسط اليوم –، يقابلها من بر=

فحزناهم أسراً وسيقت نساؤهم ذوات الشعور المسبلات الفواحم

هناك فتحنا عين(١) زربة عنوة بهم فأبدنا كل طاغ وظالم

نعم وفتحنا كل حصن مُمَنّعٍ فكأنه نهب النسور القشاعم(٢)

إلى حلب حتى استبحنا حريمها وهدم منها سورها كل هادم

وكم ذات خدر حرة علوية منعمة الأطراف غرثى المعاصم(٣)

سبينا وسقنا خاضعات حواسرا بغير مهور لا ولا حكم حاكم

وكم من قتيل قد تركنا مجندلاً يصب دما بين اللها واللهازم(٤)

وكم وقعة في الدرب ذاقت كُماتُكم فسقناكمُ سوقاً كسوق البهائم(٥)

وملنا إلى أرتاحكم وحريمها بمعجزة تحت العجاج السوالم(٦)

فأهوت أعاليها وبدل رسمها من الأُنس وحشا بعد بيضٍ نواعم

إذا صاح فيها البوم جاوبه الصدى وأسعده في النوح نوح الحمائم(٧)

= إفريقية لوبيا، وهي كبيرة فيها مدن وقرى.

(١) عين زربى: بلد بالثغر، من نواحي المصِّيصة.

(٢) نسر قشعم: مسن ضخم. القاموس (ق ش ع م).

(٣) جارية غرثى المعصم: دقيقته.

(٤) اللهاة: اللحمة المشرفة على الحلق، أو ما بين منقطع أصل اللسان إلى منقطع القلب من أعلى الفم، واللهازم: جمع لهزمة، وهما لهزمتان ناتئتان تحت الأذنين. القاموس (ل هـ و)، (ل هـ ز م).

(٥) الدرب: يراد به ما بين طرسوس وبلاد الروم.

(٦) أرتاح: حصن منيع كان من أعمال حلب. وفي الأصول: «أريا حكم» وهو خطأ. وفي البداية ١١/٢٤٥:

وملنا إلى أرياحكم وحريمها مدوخة تحت العجاج السوالم

(٧) الصدى: طائر يصر بالليل؛ وأسعده: أعانه.

وأنطـاكَ لم تبعـد علـي وإنـني سـألحقها يومـاً بنـزوة حـازم(١)
ومـسكن آبـائي دمـشق وإنـه سيرجع فيهـا ملكهـا تحت خـاتمي
أياقاطني الرَمْلات ويحكم ارجعوا إلى أرض صناعكم وأرض التهائـم(٢)
ومـصر سـأفتحها بـسيفي عنـوة وأحـرز أمـولاً بهـا في غنـائمي
وكـافور أغـزوه بمـا يـستحقه بمـشط ومقـراض ومـص المحـاجم
ألا شمـروا يـا آل حـران ويلكـم أتـتكم جيـوش الـروم مثـل الغمـائم
فـإن تهربـوا تنجـوا كرامـاً أعفـة مـن الملـك المُغْـرى بـترك المُـسالم
ألا شمـروا يـا آل بغـداد ويلكـم فملككـم مستـضعف غـير دائـم
رضـيتم بـأن الـديلمي خليفـة فـصرتم عبيـداً للعبيـد الـديالم
فعـودوا إلى أرض الحجـاز أذلـة وخلـوا بـلاد الـروم أهـل المكـارم
سـألقى بجيشي نحو بغـداد سـالماً إلى بـاب طـاق ثـم كـرخ القمـاقم(٣)
فـأحرق أعلاهـا وأهـدم سـورها وأسـبي ذراريهـا علـى رغـم راغـم
ومنها إلى شيراز والري فـاعلَموا خراسـان قـصدي بـالجيوش الـصوارم
فأسـرع منهـا نحـو مكـة سـائراً أجـر جيوشـاً كالليـالي الـسواجم
فأملكهـا دهـراً سـليماً مـسلّماً وأنـصب كرسـيا لأفـضل عـالم

(١)أنطاكية: مدينة هي قصبة العواصم من الثغور الشامية. قلت: وهي اليوم في تركيا.
(٢) صنعاء: عاصمة بلاد اليمن.
(٣) باب الطاق: محلة كبيرة كانت ببغداد بالجانب الشرقي يعرف بطاق أسماء. والكرخ هنا: كرخ بغداد، وبه سوق المدينة، خارج أسوارها بين الصراة ونهر عيسى. والقماقم من الرجال: السيد الكثير الخير، الواسع الفضل. اللسان (ق م م) ١٢/٤٩٤.

وأغـزو يمانـاً أو بـلاد يمامـة | وصنعاءها مع صعدة والتهائم[(١)]
وأتركها قفراً يَباباً بلاقعاً | عزيزاً مكيناً ثابتاً للدعائم
ملكنا عليكم حين جار قويكم | وعاملتم بالمنكرات العظائم
قضاتكم باعوا جهاراً قضاءهم | كبيع ابن يعقوب ببخس دراهم
شيوخكم بالزور طُراً تشاهدوا | وبالبز والبرطيل في كل عالم[(٢)]
سأفتح أرض الشرق طُراً ومغربا | وأنشر دين الصُّلْب نشر العمائم

ثم ذكر ثلاثة أبيات لم أستجز حكايتها[(٣)].

فأجاب الشيخ الإمام القفال الشاشي رحمه الله قائلاً:

أتاني مقال لامرئ غير عالم | بطُرْق مجاري القول عند التخاصم
تَخَرّص ألقاباً له جِدّ كاذبٍ | وعدد آثاراً له جِد واهمٍ
وأفرط إرعاداً بما لا يطيقه | وأدلى ببرهان له غير لازمٍ
تسمى بطهر وهو أنجس مشرك | مدنسة أثوابه بالمداسم[(٤)]
وقال مسيحي وليس كذاكم | أخو قسوة لا يحتذي فعل راحم
وليس مسيحياً جهولاً مثلثاً | يقول لعيسى جَلّ عن وصف آدم

---

(١) صعدة: مخلاف باليمن، وهي أيضاً مدينة عامرة آهلة يقصدها التجار من كل بلد، منها إلى خيوان أربعة وعشرون ميلاً. قلت: وهي اليوم شمال اليمن قريبة من حدود السعودية.

(٢) والبرطيل: الرشوة. وطراً: أي كلهم.

(٣) أورد ابن كثير في البداية والنهاية ١١/٢٤٧ هذه الأبيات الثلاثة، وهي:

فعيسى علا فوق السماوات عرشه | يفوز الذي والاه يوم التخاصم=
=وصاحبكم بالترب أودى به الثرى | فصار رفاتاً بين تلك الرمائم
تناولتم أصحابه بعد موته | بسبٍ وقذفٍ وانتهاك المحارم

(٤) الدسم بالتحريك: الوضر والدنس. اللسان «دسم»: ١٢/١٩٩.

وما الملك الطهر المسيحي غادراً ولا فاجراً ركاّنة للمظالم
تثبت هداك الله إن كنت طالباً لحق فليس الخبط فعل المُقاسم
ولا تتكبر بالذي أنت لم تنل كلابس ثوب الزور وسط المَقاوم
تُعدد أياماً أتت لوقوعها سنون مضت من دهرنا المتقادم
سُبقت بها دهراً وأنت تعدها لنفسك لا ترضى بشِرْك المساهم
وما قدر أرتاحٍ ودارا فيذكرا فخاراً إذا عدت مساعي القُماقم
وما الفخر في ركض على أهل غِرة وهل ذاك إلا من مخافة هازم
وهل نلت إلا صُقع طَرْسوس بعد أن تسلمتها من أهلها كالمسالم
ومِصِّيصة بالغدر قتّلت أهلها وذلك في الأديان إحدى العظائم[(١)]
ترى نحن لم نوقع بكم وبلادكم وقائع يُثنى ذكرها في المواسم
مئين ثلاثاً من سنينٍ تتابعت ندوس الذُرى من هامكم بالمناسم
ولم تفتح الأقطار شرقاً ومغرباً فتوحاً تناهت في جميع الأقالم
أتذكر هذا أم فؤادك هائم فليس بناس كل ذا غير هائم
ومن شر يوم للفتى هَيَمانه فيا هائماً بل نائماً شر نائم
ولو كان حقاً كل ما قلت لم يكن علينا لكم فضل وفخر مكارم
فمنكم أخذنا كل ما قد أخذتم وأضعاف أضعاف له بالصماصم[(٢)]
طردناكمُ قهراً إلى أرض رومكم فطرتم من الشامات طرد النعائم
لجأتم إليها كالقنافذ جُثّماً أدلاهمُ عن حتفه كل حاطم

---

(١) مصيصة: مدينة على شاطئ جيحان، من ثغور الشام، بين أنطاكية وبلاد الروم، كانت من الأماكن التي يرابط بها المسلمون قديماً. المراصد ١٢٨٠.

(٢) جمع صمصامة، وهي السيف.

ولـــولا وصـــايا للـنبي محمـــد ... بكـم لم تنـالوا أمـن تلـك المجـاثم
فأنتم على خسر وإن عـاد برهـة ... إلـيكم حواشــيها لغفلــة قــائم
ونحـن علـى فـضل بمـا في أكفنـا ... وفخرٍ عليكم بالأصول الجسائم
ونرجـو وشـيكاً أن يـسهل ربنـا ... لـرد خـوافي الـريش تحت القـوادم
وعظمت من أمر النساء وعندنا ... لكـم ألـف ألـف مـن إماءٍ وخـادم
ولكـن كَرَمنـا إذ ظفرنـا وأنـتمُ ... ظفــرتم فكنــتم قــدوة للألائــم
وقلت ملكناكم بجوْر قضاتكم ... وبــيعهم أحكــامهم بالــدراهم
وفي ذاك إقــرار بــصحة ديننـا ... وأنـــا ظلمنـــا فابتلينـــا بظــالم
وعـددت بلـداناً تريـد افتتاحهـا ... وتلـك أمـانٍ سـاقها حلـم حـالم
ومن رام فتح الشرق والغرب ناشراً ... لـدين صـليب فهـو أخبـث رائـم
ومن دان للصلبان يبغي به الهدى ... فـذاك حمـار وسمـه في الخـراطم
ولـيس وليـا للمـسيح مثلـث ... فيرجـــوه نقفـــور لمحـــو المـــآثم
وعيسى رسول الله مولـود مـريم ... غذتـه كمـا قـد غُـذِّيَتْ بالمطـاعم
وأما الذي فوق السموات عرشه ... فخـالق عيسى وهـو محي الرمـائم
ومـا يوسـف النجـار بعـلا لمـريم ... كما زعموا أَكْذِبْ به قول زاعـم
وإنجلــيهم فيــه بيــان لقولنـــا ... وبـشرى بـآت بَعْدُ للرُسْل خـاتم
وسماه بارقليط يأتى بكـشف مـا ... أتـاهم بـه مـن حمله غير كـاتم[١]
وكـان يـسمى بـابن داود فـيهم ... بحيث إذا يدعى به في التكـــالم

(١) هكذا في الأصول «بارقليط» بالباء، وهو في النهاية ٤٣٩/٣ «فارق ليطا» قال ابن الأثير: أي يفرق بين الحق والباطل.

وهل أمسك المنديل إلا لحاجة   وهل حاجة إلا لعبد وخادم
وإن كان قد مات النبي محمد   فأسوة كل الأنبياء الأعاظم
وعيسى له في الموت وقت مؤجل   يموت له كالرُسْل من آل آدم
فإن دفعوا هذا فقد عجّلوا له   وفاة بصلب وارتكاب صيالم(١)
صيالم من إكليل شوك وأحبل   يجر بها نحو الصليب ولاطم
وإن يك أولادٌ لأحمد جُرِّعوا   شدائد من أسر وجز جماجم
فعيسى على ما تزعمون مُجَرّعٌ   من القتل طعماً مثل طعم العلاقم
ويحيى وزكريا وخلق سواهما   أكارم عند الله نجلُ أكارمِ
تولتهم أيدى الطغاة فلم تنل   قضاياهم من ذاك وصمة واصم
فمَن مبلغٌ نقفور عني مقالتي   جواباً لما أبداه من نظم ناظم
لئن كان بعض العُرْبِ طارت قلوبهم   أو ارتد منهم حشوة كالبهائم
لقد أسلمت بالشرق هند وسندها   وصين وأتراك الرجال الأعاجِم
بتدبير منصور بن نوحٍ وجنده   وأشياخه أهل النهى والعزائم
وإن تك بغداد أصيبت بمُلْكِها   وصارت عبيداً للعبيد الديالم
فللحق أنصار ولله صفوة   يذودون عنه بالسيوف الصوارم
فمن عَرَبٍ غُلْب ملوك بغالب   ومن عجم صِيدٍ ملوك بهازم
فبالدين منهم قائم أيُّ قائم   وللملك منهم هاشم أي هاشم
جزى الله سيف الدولة الخير باقيا   وأكرمه بالفاضلات الكرائم
وألبس منصور بن نوح سلامة   تدوم له ما عاش أدوم دائم

---

(١) الصيلم: الأمر الشديد والداهية. القاموس (ص ل م).

هما أمّنا الإسلام من كل هاضم … وصَانَا بناء الدين عن كل هادم
ومن مبلغ نِقْفورَ عني نصيحة … بتقدمة قدام عَضّ الأباهم
أتتك خراسان تجر خيولها … مسومة مثل الجراد السوائم
كهول وشبان حماة أحامس[1] … ميامن في الهيجاء غير مشائم

غزاة شروا أرواحهم من إلاههم … بجناته والله أوفى مساوم
فإن تُعرضوا فالحق أبلج واضح … معالمه مشهورة كالمعالم
تعالوا نحاكمْكم ليحكم بيننا … إلى السيف إنّ السيف أعدل حاكم
سيجرى بنا والله كاف وعاصم … لنا خير واف للعباد وعاصم
ونرجو بفضل الله فتحاً معجلاً … ننال بقسطنطين ذاتِ المحارم
هناك ترى نِقْفور واللهُ قادرٌ … ينادى عليه قائماً في المقاسم
ويجرى لنا في الروم طُراً وأهلها … وأموالها جمعاً سهام المغانم
فيضحك منا سِنٌّ جَذلانَ باسم … ويقرع منه سن خزيان نادم
وإن تُسلموا فالسلم فيه سلامة … وأهنأ عيش للفتى عيش سالم

وقول القفال في جوابه: «إن نقفور تشبع بما لم يعط» صحيح؛ فإنه افتخر بأخذهم سروج، والآخذ لها غيره من الروم، وكذلك جزيرة إقريطش، إنما أخذها ملك الروم أرمانوس بن قسطنطين، وكل ذلك قبل سنة اثنتين وخمسين وثلاثمائة، وإنما تملك نقفور اللعين سنة اثنتين وخمسين وثلاثمائة.

ونقفور هو الدمستق، فتح المِصِّيصة بالسيف، ثم سار إلى طرسوس،

---

(١) الحمس (بالكسر) والأحمس: الشديد الصلب في الدين والقتال. وانظر القاموس (ح م س).

فطلب أهلها الأمان، ودخلها، وجعل الجامع اصطبلا لدوابه، وصارت بأيديهم فيما أحسب إلى سنة إحدى وستين وسبعمائة، فتحها الأمير سيف الدين بيدمر الخوارزمي، حال نيابته بحلب، أحسن الله جزاه.

وأما سيف الدولة بن حمدان، فقد كانت له الآثار الجميلة إذ ذاك، وغزا الروم في سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة، في ثلاثين ألفاً، وفتح حصوناً عديدة، وقتل وسبى وغنم، ثم أخذ الروم عليه الدرب، واستولوا على عسكره قتلاً وأسراً، وله معهم حروب يطول شرحها.

والمنديل المشار إليه، كان من آثار عيسى بن مريم عليه السلام عند أهل الرُّها، يتبركون به، فحاصرها إلى أن صالحوه، وسلموه إليه.

توفي الإمام القفال الكبير الشاشي في آخر سنة خمس وستين وثلاثمائة بالشاش رحمه الله تعالى[١].

أبو الحسين الصوفي

بندار بن الحسين بن محمد الشيرازي، أبو الحسين الصوفي.

خادم الشيخ أبي الحسن الأشعري، سكن أرجان[٢].

من كلامه:

[٣٥٧] من مشى في الظلمة إلى ذي النعم أجلسه على بساط الكرم.

[٣٥٨] ومن قطع لسانه بشفرة السكوت بُنى له بيت في الملكوت.

---

(١) «طبقات الشافعية الكبرى»: ٣/٢٠٠-٢٢٢.

(٢) مدينة كبيرة كثيرة الخير، من كورة فارس.

[٣٥٩] ومن واصل أهل الجهالة أُلبس ثوب البطالة.

[٣٦٠] ومن أكثر ذكر الله شغله عن ذكر الناس.

[٣٦١] ومن هرب من الذنوب هُرِب به من النار.

[٣٦٢] ومن رجا شيئاً طلبه.

مات سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة(١).

القشيري

عبدالكريم بن هوازن بن عبدالملك، أبو القاسم القُشيري، صاحب «الرسالة» التي سارت مغرباً ومشرقاً، ولد سنة ٣٧٦هـ.

[٣٦٣] قال ابن السمعاني: سمعت أبا بشر مصعب بن عبدالرزاق بن مصعب المصعبي بمرو يقول:

حضر الأستاذ أبو القاسم القشيري. مجلس بعض الأئمة الكبار، وكان قاضياً بمرو، وأظنه قال: القاضي علي الدهقان، وقت قدومه علينا، فلما دخل الأستاذ قام القاضي على رأس السرير، وأخذ مخدة كان يستند عليها على السرير، وقال لبعض من كان قاعداً على درجة المنبر: أحملها إلى الأستاذ الإمام ليقعد عليها، ثم قال:

أيها الناس حججت سنة من السنين، وكان قد اتفق أن حج تلك السنة

---

(١) «طبقات الشافعية الكبرى»: ٣/٢٢٤-٢٢٥.

هذا الإمام الكبير، وأشار إلى الأستاذ، وكان يقال لتلك السنة سنة القضاة، وكان حج تلك السنة أربعمائة نفس من قضاة المسلمين وأئمتهم من أقطار البلدان وأقاصي الأرض، وأرادوا أن يتكلم واحد منهم في حرم الله سبحانه وتعالى فاتفق الكل على الأستاذ أبي القاسم، فتكلم هو باتفاق منهم.

قلت: من سمع هذه الحكاية لم يستنكر ما ذكره الغزالي في «باب الولاء» في مسألة أربعمائة قاض.

[٣٦٤] وبلغنا أنه مرض للأستاذ أبي القاسم القشيري ولد مرضاً شديداً، بحيث أيس منه، فشق ذلك على الأستاذ، فرأى الحق سبحانه وتعالى في المنام، فشكى إليه؟ فقال له الحق سبحانه وتعالى: اجمع آيات الشفاء واقرأها عليه، واكتبها في إناء واجعل فيه مشروباً واسقه إياه، ففعل ذلك، فعوفي الولد.

وآيات الشفاء في القرآن ست:

﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾(١).

﴿وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾(٢).

﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾(٣).

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾(٤).

---

(١) سورة التوبة: آية ١٤.

(٢) سورة يونس: آية ٥٧.

(٣) سورة النحل: آية ٦٩.

(٤) سورة الإسراء: آية ٨٢.

﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾[(١)].

﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَآءٌ ﴾[(٢)].

ورأيت كثيراً من المشايخ يكتبون هذه الآيات للمريض، ويسقاها في الإناء، طلباً للعافية.

وخلف من البنين ستة، عبادلة، كلهم من السيدة الجليلة فاطمة بنت الأستاذ أبي علي الدقاق.

[٣٦٥] قال النقلة: ولما مرض لم تفته ولا ركعة قائماً، بل كان يصلي قائماً إلى أن توفي رحمه الله في صبيحة يوم الأحد، السادس عشر من شهر ربيع الآخر، سنة خمس وستين وأربعمائة، ودفن في المدرسة إلى جانب أستاذه أبي علي الدقاق[(٣)].

أبو حيان التوحيدي

علي بن محمد بن العباس، أبو حيان التوحيدي، المتكلم الصوفي، صاحب المصنفات، شيرازي الأصل، صنف «البصائر[(٤)]» و«الإشارات»

---

(١) سورة الشعراء: آية ٨٠.

(٢) سورة فصلت: آية ٤٤.

(٣) طبقات الشافعية الكبرى: ١٥٣/٥- ١٦٢.

(٤) قال في الطبقات الوسطى:

وهذه طرف حضرتني من «البصائر» للتوحيدي:

وغيرهما[1].

= • [٣٦٧] الإلظاظ: اللزوم. ومنه قوله عليه السلام:
«ألظوا بياذا الجلال والإكرام». كذا فسره أبو عبيد القاسم بن سلام.

• [٣٦٨] إياك أن تقيس اللغة، فلقد رأيت نبيهاً من الناس وقد سئل عن قوم فقال: هم خروج فقيل: ما تريد بهذا؟ فقال: قد خرجوا، لكأنه أراد: خارجون، قيل: هذا ما سُمع. قال: كما قال الله تعالى: ﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ﴾ [البروج: ٦] أي قاعدون. فَضُحِك به.

• [٣٦٩] كان القاضي أبو حامد إذا رأى تراجع المتكلمين في مسائلهم، ورأى ثباتهم على مذاهبهم بعد طول جدلهم ينشد:

ومَهْمَهٍ دليله مطوَّح ... يدأب فيه القوم حتى يَطْلَحوا
ثم يظلون كأن لم يبرحوا ... كأنما أمسوا بحيث أصبحوا

(١) «طبقات الشافعية الكبرى»: ٥/٢٨٦- ٢٨٩.

أبو الطيب الطبري

طاهر بن عبدالله بن طاهر، أبو الطيب الطبري.

الإمام الجليل القاضي، عظيم العلم، كبير المحل، ولد سنة ٣٤٨هـ.

[٣٦٦] وكان حسن الخلق، مليح المزاح والفكاهة، قيل إنه دفع خفه إلى من يصلحه، فأبطأ به عليه، وصار القاضي كلما أتاه يتقاضاه فيه يغمسه الصانع في الماء حين يرى القاضي ويقول: الساعة أصلحه، فلما طال على القاضي ذلك قال: إنما دفعته إليك لتصلحه لا لتعلمه السباحة.

• [٣٧٢] قال القاضي أبو الطيب رحمه الله: سمعت القاضي أبا الفرج المعافى بن زكريا رحمه الله يقول:

كنت أحضر مجلس أبي الحسن بن أبي عمر يوم النظر، فحضرت يوماً أنا وجماعة بالباب ننتظره ليخرج، فدخل أعرابي فجلس بالقرب منا، وإذا بغراب سقط على نخلة في الدار وصاح ثم طار، فقال الأعرابي: إن هذا الغراب يقول: إن صاحب هذه الدار يموت بعد سبعة أيام، قال، فصحنا

• [٣٧٠] دخل سفيان بن عيينة على الرشيد وهو يأكل في صحفة بملعقة، فقال: يا أمير المؤمنين، حدثني عبيد الله بن زيد عن جدك ابن عباس في قوله تعالى: ((ولقد كرمنا بني آدم))[الإسراء: ٧٠] قال: جعلنا لهم أيدياً يأكلون بها. فكسر الملعقة.

• [٣٧١] سمعت أبا حفص الأشعري يقول: لا معنى للحال، إنما هو الماضي والمستقبل، وتحصيل الحال محال، وتوهمها باطل، لأنك لا تفرغ من الماضي إلا إلى المستقبل

عليه وزبرناه[١]، فقام وانصرف، ثم دخلنا إلى أبي الحسن، فإذا به متغير اللون، فقال: أحدثكم بأمر شغل بالي، إني رأيت البارحة في المنام شخصاً وهو يقول:

منازلَ آل حماد بن زيد ... على أهليك والنَعَمِ السلام

وقد ضاق صدري لذلك، فدعونا له وانصرفنا، فلما كان اليوم السابع توفي إلى رحمة الله تعالى سنة ٤٥٠هـ. والله أعلم[٢].

الفاروثي

أحمد بن إبراهيم بن عمر، أبو العباس الواسطي، عز الدين الفاروثي، ولد سنة ٦١٤هـ وقرأ القرآن على والده.

توفي في مستهل ذي الحجة، سنة أربع وتسعين وستمائة.

- [٣٧٣] أخبرنا أبو عبدالله الحافظ بقراءتي عليه، قال: حكى لنا صاحبنا ابن يونس الواسطي المقري، أن الشيخ عز الدين أظهر أنه يريد سفراً، وطلب الأصحاب، وبقي يقول: قد عرض لنا سفر

(١) زبرناه: الزبر بفتح فسكون: الانتهار والمنع.
(٢) «طبقات الشافعية الكبرى»: ٥/١٢-٥٠.

فاجعلونا في حل، فيتعجبون، وقال لهم: أريد السفر إلى شيراز يوم الثلاثاء، وأظنني أموت ذلك اليوم. فمات يومئذ.

● [٣٧٤] أخبرنا أبو عبدالله الحافظ إذناً خاصاً، أن علاء الدين الكندي، ذكر له أن الشيخ عز الدين الفاروثي شاهد بالعراق رجلاً مكث سنين لا يأكل ولا يشرب.

[٣٧٥] قال شيخنا أبو عبدالله: وقد حدثني عدد أثق بهم، أن امرأة كانت بالأندلس بقيت نحواً من عشرين سنة لا تأكل شيئاً، وأمرها مشهور.

ذكر شيخنا ذلك في ترجمة أبي العباس عيسى بن محمد بن عيسى الطهماني اللغوي، وقد أورد ما ذكره الحاكم أبو عبدالله الحافظ في «تاريخ نيسابور» من أنه سمع أبا زكريا العنبري يقول: سمعت أبا العباس، فذكر قصة المرأة التي لا تأكل ولا تشرب.

[٣٧٦] قلت: وأنا مورد هذه القصة لغرابتها من «تاريخ الحاكم»، وآتٍ بها على الصورة التي ذكرها، فأقول: قال الحاكم: سمعت أبا زكرياء يحيى بن محمد العنبري، يقول: سمعت أبا العباس عيسى بن محمد بن عيسى الطهماني المروزي، يقول:

إن الله سبحانه وتعالى يظهر إذا شاء ما شاء من الآيات والعبر في بريته، فيزيد الإسلام بها عزاً وقوة، ويؤيد ما أنزل من الهدى والبينات، وينشر أعلام النبوة، ويوضح دلائل الرسالة، ويوثق عرى الإسلام، ويثبت حقائق الإيمان، مَناً منه على أوليائه، وزيادة في البرهان بهم، وحجة على من عَنِد عن طاعته،

وألحد في دينه ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾[(١)] فله الحمد، لا إله إلا هو، ذو الحجة البالغة، والعز القاهر، والطَول الباهر، وصلى الله على سيدنا محمد، نبي الرحمة، ورسول الهدى، وعليه وعلى آله الطاهرين السلام ورحمة الله وبركاته.

وإن مما أدركناه عيناً، وشاهدناه في زماننا، وأحطنا علماً به، فزادنا يقيناً في ديننا، وتصديقاً لما جاء به نبينا محمد ﷺ، ودعا إليه من الحق فرغب فيه من الجهاد من فضيلة الشهداء، وبلغ عن الله عز وجل فيهم، إذ يقول جل ثناؤه: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾﴾[(٢)]، أني وردتُ في سنة ثمان وثلاثين ومائتين مدينة من مدائن خوارزم، تدعى هِزاراسب، وهي في غربي وادي جيحون، ومنها إلى المدينة العظمى مسافة نصف يوم، فخبرت أن بها امرأة من نساء الشهداء، رأت رؤيا كأنها أُطعمت في منامها شيئاً، فهي لا تأكل شيئاً، ولا تشرب شيئاً، منذ عهد أبي العباس بن طاهر والي خراسان، وكان توفي قبل ذلك بثمان سنين، رضي الله عنه، ثم مررت بتلك المدينة سنة اثنتين وأربعين ومائتين، فرأيتها، وحدثتني بحديثها، فلم أستقص عليها لحداثة سني، ثم إني عدت إلى خوارزم في آخر سنة اثنتين وخمسين ومائتين، فرأيتها باقية، ووجدت حديثها شائعاً مستفيضاً، وهذه المدينة على مدرجة القوافل، وكان الكثير ممن نزلها إذا بلغهم قصتها أحبوا أن ينظروا إليها، فلا يسألون عنها رجلاً ولا امرأة ولا غلاماً إلا

(١) سورة الأنفال: آية ٤٢.

(٢) سورة آل عمران: آية ١٦٩، ١٧٠.

عرفها ودل عليها ، فلما وافيت الناحية طلبتها ، فوجدتها غائبة على عدة فراسخ ، فمضيت في أثرها من قرية إلى قرية ، فأدركتها بين قريتين ، تمشي مشية قوية ، وإذا هي امرأة نَصَف ، جيدة القامة ، حسنة البدن ، ظاهرة الدم ، متوردة الخدين ، ذكية الفؤاد ، فسايرتني وأنا راكب ، عرضت عليها مركباً فلم تركبه ، وأقبلت تمشي معي بقوة ، وحضر مجلسي قوم من التجار والدهاقين ، وفيهم فقيه يسمى محمد بن حمدويه الحارثي ، وقد كتب عنه موسى بن هارون البزار بمكة ، وَكَمُلَ له عبادةٌ ورواية للحديث ، وشاب حسن يسمى عبدالله بن عبدالرحمن ، وكان يخلف أصحاب المظالم بناحيته ، فسألتهم عنها ، فأحسنوا الثناء عليها ، وقالوا عنها خيراً ، وقالوا : إن أمرها ظاهر عندنا ، فليس فيها[1] من يختلف فيها.

قال المسمى عبدالله بن عبدالرحمن :

أنا أسمع حديثها منذ أيام الحداثة ، ونشأت والناس يتفاوضون في خبرها ، وقد فرّغت بالي لها ، وشغلت نفسي للاستقصاء عليها ، فلم أر إلا ستراً وعفافاً ، ولم أعثر منها على كذب في دعواها ، ولا حيلة في التلبيس. وذكر أن من كان يلي خوارزم من العمال ، كانوا فيما خلا يَسْتَخِصُّونها ، ويُحْضِرونها الشهر والشهرين والأكثر في بيت يغلقونه عليها ، ويوكلون بها من يراعيها ، فلا يرونها تأكل ولا تشرب ، ولا يجدون لها أثر بول ولا غائط ، فيبرونها ويكسونها ويخلون سبيلها.

فلما تواطأ أهل الناحية على تصديقها ، استقصصتها عن حديثها ، وسألتها عن اسمها وشأنها كله ، فذكرت أن اسمها رحمة بنت إبراهيم ، وأنه

---

(١) أي في المدينة.

كان لها زوج نجار فقير، معيشته من عمل يده، يأتيه رزقه يوماً ويوماً، لا فضل في كسبه عن قوت أهله، وأنها ولدت منه عدة أولاد، وجاء الأقطع ملك الترك إلى القرية، فعبر الوادي عند جموده إلينا في زهاء ثلاثة آلاف فارس، وأهل خوارزم يدعونه كسرة[1].

وقال أبو العباس: والأقطع هذا كان كافراً عاتياً، شديد العداوة للمسلمين، قد أثر على أهل الثغور، وألح على أهل خوارزم بالسبي والقتل والغارات، وكانت ولاة خراسان يتألفونه، وأنسابه من عظماء الأعاجم؛ ليكفوا غارتهم عن الرعية، ويحقنوا دماء المسلمين، فيبعثون إلى كل واحد منهم بأموال، وألطاف كثيرة، وأنواع من فاخر الثياب، وأن هذا الكافر انساب في بعض السنين على السلطان، ولا أدري لم ذاك! آستبطأ المَبارّ عن وقتها، أم استقل ما بعث إليه في جنب ما بُعِث إلى نظرائه؟

فأقبل في جنوده وتورد الثغر، واستعرض الطرق، فعاث وأفسد، وقتل ومثّل، فعجزت عنه خيول خوارزم، وبلغ خبره أبا العباس عبدالله بن طاهر، رحمه الله، فأنهض إليهم أربعة من القواد؛ طاهر بن إبراهيم بن مدرك، ويعقوب بن منصور بن طلحة، وميكال مولى طاهر، وهارون القباض، وشحن البلد بالعساكر والأسلحة، ورتبهم في أرباع البلد، كل في ربع، فحموا الحريمَ بإذن الله تعالى.

ثم إن وادي جيحون، وهو الذي في نهر بلخ، جمد لما اشتد البرد، وهو واد عظيم، شديد الطغيان، كثير الآفات، وإذا امتد كان عرضه نحواً من فرسخ،

---

(١) أي: وأهل خوارزم يدعون هذا الحادث كسرة، بمعنى هزيمة.

وإذا جمد انطبق فلم يوصل منه إلى شيء حتى يحفر فيه كما تحفر الآبار في الصخور، وقد رأيت كثيف الجَمَد[١] عشرة أشبار، وأخبرت أنه كان فيما مضى يزيد على عشرين شبراً، وإذا هو انطبق صار الجَمَد جسراً لأهل البلد، تسير عليه العساكر والعَجَل، والقوافل، فينطم ما بين الشاطئين، وربما دام الجَمَد مائة وعشرين يوماً، وإذا قَلّ البرد في عام بقي سبعين يوماً إلى نحو ثلاثة أشهر.

قالت المرأة: فعبر الكافر في خيله إلى باب الحصن، وقد تحصن الناس، وضموا أمتعتهم، فضجوا بالمسلمين وخربوهم، فحُصِر من ذلك أهل الناحية، وأرادوا الخروج فمنعهم العامل دون أن تتوافى عساكر السلطان، وتتلاحق المطوعة، فشد طائفة من شبان الناس وأحداثهم، فتقاربوا من السور بما أطاقوا حمله من السلاح، وحملوا على الكفرة، فتهارج الكفرة، واستجرّوهم من بين الأبنية والحيطان، فلما أصحروا[٢] كر الترك عليه، وصار المسلمون في مثل الحَرَجة[٣]، فتخلصوا واتخذوا دارة يحاربون من ورائها، وانقطع ما بينهم وبين الخصم، وبعدت المؤنة عنهم، فحاربوا كأشد حرب، وثبتوا حتى تقطعت الأوتار والقِسِيّ، وأدركهم التعب، ومسهم الجوع والعطش، وقتل عامتهم، وأُثخن الباقون بالجراحات، ولما جن عليهم الليل تحاجز الفريقان.

قالت المرأة: ورفعت النار على المناظر ساعة عبور الكافر، فاتصلت بالجرجانية، وهي مدينة عظيمة في قاصية خوارزم، وكان ميكال مولى طاهر من أبياتها في عسكر، فحث في الطلب، هيبة للأمير أبي العباس عبدالله بن طاهر،

---

(١) أي الثلج.

(٢) أصحروا: خرجوا إلى الصحراء.

(٣) الحرجة: موضع من الغيضة تلتف فيه شجرات، يوصف بالضيق.

رحمه الله، وركض إلى هزاراسب في يوم وليلة أربعين فرسخاً بفراسخ خوارزم، وفيها فضلٌ كثير على فراسخ خراسان، وعد الترك الفراغ من أمر أولئك النفر، فبينما هم كذلك إذ ارتفعت لهم الأعلام السود، وسمعوا أصوات الطبول، فأفرجوا عن القوم، ووافى ميكال موضع المعركة فوارى القتلى، وحمل الجرحى.

قالت المرأة: وأدخل الحصن علينا عشية ذلك أربعمائة جنازة، فلم تبق دار إلا حمل إليها قتيل، وعمت المصيبة، وارتجت الناحية بالبكاء.

قالت: ووضع زوجي بين يدي قتيلاً، فأدركني من الجزع والهلع عليه ما يدرك المرأة الشابة على زوجٍ أبي الأولاد، وكانت لنا عيال.

قالت: فاجتمع النساء من قراباتي، والجيران، يُسْعِدنني على البكاء، وجاء الصبيان، وهم أطفال لا يعقلون من الأمر شيئاً، يطلبون الخبز، وليس عندي ما أعطيهم، فضقت صدراً بأمري، ثم إني سمعت أذان المغرب، ففزعت إلى الصلاة، فصليت ما قضى لي ربي ثم سجدت أدعو وأتضرع إلى الله، وأسأله الصبر بأن يجبر يتم صبياني.

[٣٧٧] قلت: فذهب بي النوم في سجودي، فرأيت في منامي كأني في أرض حسناء، ذات حجارة، وأنا أطلب زوجي، فناداني رجلٌ: إلى أين أيتها الحرة؟ قلت: أطلب زوجي. فقال: خذي ذات اليمين. قالت: فأخذت ذات اليمين، فرفع لي أرض سهلة، طيبة الري، ظاهرة العشب، وإذا قصورٌ وأبنية لا أحفظ أن أصفها، أولم أر مثلها، وإذا أنهار تجري على وجه الأرض من غير أخاديد ليست لها حافات، فانتهيت إلى قوم جلوس حلقاً حلقاً، عليهم ثياب

خضر، قد علاهم النور، فإذاهم الذين قتلوا في المعركة، يأكلون على موائد بين أيديهم، فجعلت أتخللهم، وأتصفح وجوههم، أبغي زوجي لكي ينظرني، فناداني: يا رحمة، يا رحمة. فيممت الصوت، فإذا أنا به في مثل حال من رأيت من الشهداء، وجهه مثل القمر ليلة البدر، وهو يأكل مع رفقة له قتلوا يومئذ معه، فقال لأصحابه: إن هذه البائسة جائعة منذ اليوم، أفتأذنون لي أن أناولها شيئاً تأكله؟ فأذنوا له، فناولني كسرة خبز. قالت: وأنا أعلم حينئذ أنه خبز، ولكن لا أدري كيف يخبز، هو أشد بياضاً من الثلج واللبن، وأحلى من العسل والسكر، وألين من الزبد والسمن، فأكلته، فلما استقر في جوفي، قال: اذهبي، كفاك الله مؤنة الطعام والشراب ما حييت في الدنيا. فانتبهت من نومي شَبْعَى رياً، لا أحتاج إلى طعام ولا شراب، وما ذقتهما منذ ذلك اليوم إلى يومي هذا، ولا شيئاً يأكله الناس.

قال أبو العباس: وكانت تحضرنا، وكنا نأكل فتتنحى، وتأخذ على أنفها، تزعم أنها تتأذى من رائحة الطعام، فسألتها، هل تتغذى بشيء، أو تشرب شيئاً غير الماء؟ قالت: لا.

فسألتها: هل يخرج منها ريحٌ أو أذى، كما يخرج من الناس؟

فقالت: لا عهد لي بالأذى منذ ذلك الزمان.

قلت: والحيض؟ أظنها قالت: انقطع بانقطاع الطعم.

قلت: فهل تحتاج حاجة النساء إلى الرجال؟

قالت: أما تستحي مني، تسألني عن مثل هذا.

قلت : إني لَعَلِّي أحدث الناس عنك ، ولابد أن أستقصي.

قالت : لا أحتاج.

قلت : فتنامين؟

قالت : نعم ، أطيب نوم.

قلت : فما ترين في منامك؟

قالت : مثل ما ترون.

قلت : فتجدين لفقد الطعام وهناً في نفسك؟

قالت : ما أحسست بجوع منذ طعمت ذلك الطعام.

وكانت تقبل الصدقة ، فقلت لها : ما تصنعين بها؟

قالت : أكتسي وأكسو ولدي.

قلت : فهل تجدين البرد ، وتتأذين بالحر؟

قالت : نعم.

قلت : فهل تدرين كلل اللغوب والإعياء إذا مشيت؟

قالت : نعم ، ألستُ من البشر!

قلت : فتتوضئين للصلاة؟

قالت : نعم.

قلت : لم؟

قالت : أمرني بذلك الفقهاء ؛ فقلت : إنهم أفتوها على حديث «لا وضوء إلا من حدث أو نوم».

وذكرت لي أن بطنها لاصق بظهرها ، فأمرت امرأة من نسائنا فنظرت فإذا بطنها كما وصفت ، وإذا قد اتخذت كيساً فضمت القطن وشدته على بطنها ؛ كي لا ينقصف ظهرها إذا مشت.

ثم لم أزل اختلف إلى هِزَاراسب بين السنتين والثلاث فتحضرني فأعيد مسألتها ، فلا تزيد ولا تنقص ، وعرضت كلامها على عبدالله بن عبدالرحمن الفقيه ، فقال : أنا أسمع هذا الكلام منذ نشأت فلا أجد من يدفعه ، أو يزعم أنه سمع أنها تأكل أو تشرب أو تتغوط[1].

ابن جماعة

محمد بن إبراهيم بن سعد الله ، بدر الدين ابن جماعة.

قاضي القضاة بدر الدين ، مولده سنة ٦٣٩هـ بحماة.

[٣٧٨] من شعره :

قالوا شروط الدعاء المستجاب لنا   عشرٌ بها بُشِّرَ الداعي بإفلاح
طهارة وصلاة معهما ندم   وقت خشوع وحسن الظن يا صاح

---

(١) «طبقات الشافعية الكبرى» : ٨/٦-١٥.

وحِل قوت ولا يُدْعى بمعصية   واسم يناسب مقرون بإلحاح[١]

• [٣٧٩] من كتاب «كشف المعاني» لابن جماعة، ذكر في الجمع بين الرحمن والرحيم، في البسملة: أن أحسن ما يقال فيه، ولم نجده لغيره، أن فعلان مبالغة في كثرة الشيء، ولا يلزم منه الدوام كغضبان، وفعيل لدوام الصفة، كظريف، فكأنه قيل: العظيم الرحمة الدائمها.

قال: وإنما قدم الرحمن على الرحيم؛ لأن رحمته في الدنيا تعم المؤمنين والكافرين، وفي الآخرة دائمة لأهل الجنة، ولذلك يقال: رحمن الدنيا ورحيم الآخرة.

• [٣٨٠] وفي البقرة ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾[٢] وفي إبراهيم: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنًا﴾[٣] لأن آية البقرة دعا بها إبراهيم عند نزول إسماعيل وهاجر في الوادي، قبل بناء مكة، وآية سورة إبراهيم بعد عوده إليها وبنائها.

• [٣٨١] وفي البقرة: ﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ﴾[٤] وفي المائدة والأنعام والنحل: ﴿لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾[٥] لأن آية البقرة وردت في سياق المأكول وحله

---

(١) أي إذا كان مريضاً – مثلاً – ودعا بالشفاء فليتذكر اسم الله تعالى الشافي، وإذا دعا بالرزق فليقل: يا رزاق، وهكذا.

(٢) سورة البقرة: آية ١٢٦.

(٣) سورة إبراهيم: آية ٣٥.

(٤) سورة البقرة: ١٧٣.

(٥) سورة المائدة: آية ٣، والأنعام: آية ١٤٥، والنحل: ١١٥.

وحرمته، فكان تقدم ضمير قد تعلق الفعل به أهم، وآية المائدة وردت بعد تعظيم شعائر الله وأوامره، وكذلك آية النحل بعد قوله: ﴿وَٱشۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ﴾[١] فكان تقدم اسمه أهم.

وأيضاً فآية النحل والأنعام نزلتا بمكة، فكان تقديم ذكر الله بترك ذكر الأصنام على ذبائحهم أهم، لما يجب من توحيده وإفراده بالتسمية على الذبائح، وآية البقرة نزلت بالمدينة على المؤمنين لبيان ما يحل وما يحرم، فقدم الأهم فيه.

- [٣٨٢] قوله تعالى: ﴿تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقۡرَبُوهَا﴾[٢] وقال بعد: ﴿فَلَا تَعۡتَدُوهَا﴾[٣] لأنه أشار بالحدود في الأول إلى نفس المحرمات في الصيام والاعتكاف؛ من الأكل والشرب والوطء والمباشرة، فناسب: ﴿فَلَا تَقۡرَبُوهَا﴾.

وفي الثانية إلى المأمورات في أحكام الحل والحرمة في نكاح المشركات وأحكام الطلاق والعدد والإيلاء والرجعة وحصر الطلاق في الثلاث والخُلع، فناسب: ﴿فَلَا تَعۡتَدُوهَا﴾ أي قفوا عندها، ولذلك قال بعد ذلك ﴿وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾[٤].

- [٣٨٣] قوله: ﴿مَتَٰعَۢا بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾[٥] وقال بعد ذلك:

---

(١) سورة النحل: ١١٤.

(٢) سورة البقرة: آية ١٨٧.

(٣) سورة البقرة: ٢٢٩.

(٤) سورة البقرة: ٢٣٠.

(٥) سورة البقرة: آية ٢٣٦.

﴿ وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعُۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴾[(١)] فأتى بالإحسان في الأولى وبالتقوى في الثانية، لأن الأولى في مطلقة قبل الفرض والدخول، فالإعطاء في حقها إحسان، وإن أوجبه قوم، لأنه لا في مقابلة شيء، فناسب المحسنين.

والثانية في الرجعية، والمراد بالمتاع عند المحققين النفقة، ونفقه الرجعية واجبةٌ، فناسب حق المتقين.

ورجح أن المراد به النفقة أنه ورد عقب قوله: ﴿مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ﴾[(٢)] والمراد به النفقة، وكانت واجبة قبل النسخ، ثم قال: ﴿ وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ ﴾ فظهر أنه النفقة في عدة الرجعية، بخلاف البائن بخلع، فإن الطلاق من جهتها، فكيف تعطى المتعة التي شرعت جبراً للكسر بالطلاق، وهي الراغبة فيه؟ فظهر أن المراد بالمتاع هنا النفقة زمن العدة، لا المتعة.

وللعلماء في هاتين الآيتين اضطراب كثير، وما ذكرته أظهر؛ لأنه تقدم حكم الخلع، وحكم عدة الموت، وحكم المطلقة بعد التسمية، وبقى حكم المطلقة الرجعية، فيحمل عليه.

- [٣٨٤] في ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾[(٣)] أفرد ﴿ٱلنُّورِ ﴾ لأن دين الحق واحد، وجمع ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ ﴾ لأن الكفر أنواع.
- [٣٨٥] في البقرة: ﴿لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ﴾[(٤)] لأن المثل

(١) سورة البقرة: آية ٢٤١.

(٢) سورة البقرة: آية ٢٤٠.

(٣) سورة البقرة: آية ٢٥٧، والمائدة: آية ١٦.

(٤) سورة البقرة: آية ٢٦٤.

للعامل، فكان تقديم نفي قدرته، وصلتها وهي: ﴿عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ أنسب.

وفي سورة إبراهيم: ﴿مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ﴾[1] لأن المثل للعمل، لقوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ﴾[2] تقديره: مثل أعمال الذين كفروا، فكان تقديم ﴿مِمَّا كَسَبُوا﴾ أنسب؛ لأنه صلة ﴿شَيْءٍ﴾ وهو الكسب.

- [٣٨٦] وفي البقرة: ﴿فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ﴾[3] قدم المغفرة، وفي المائدة قدم ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾[4] لأن آية البقرة جاءت ترغيباً في المسارعة إلى طلب المغفرة، وإشارة إلى سعة رحمة الله، وآية المائدة جاءت عقب ذكر السارق والسارقة[5]، فناسب ذكر العذاب.

- [٣٨٧] قوله في آل عمران ومريم: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾[6] وفي الزخرف: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾[7] لأنه تقدم في السورتين من الآيات الدالة على توحيد الرب وقدرته، وعبودية المسيح له، ما أغنى عن التأكيد، بخلاف الزخرف.

- [٣٨٨] في يونس: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾[8]

---

(١) سورة إبراهيم: آية ١٨.

(٢) سورة إبراهيم: آية ١٨.

(٣) سورة البقرة: آية ٢٨٤.

(٤) سورة المائدة: آية ٤٠.

(٥) في الآية ٣٨ من سورة المائدة.

(٦) سورة آل عمران: آية ٥١، ومريم: ٣٦، وآية آل عمران من غير الواو.

(٧) سورة الزخرف: آية ٦٤.

(٨) سورة يونس: آية ١٨.

قدم الضرر لتقدم ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾[١] وفي الفرقان: ﴿مَا لَا يَنفَعُهُمۡ وَلَا يَضُرُّهُمۡ﴾[٢] لتقدم ذكر النعم.

- [٣٨٩] ونظيره تقديم «الأرض» في يونس في قوله: ﴿وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾[٣] ولأنه تقدم: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٖ﴾ الآية، فناسب تقديم الأرض؛ لأن الشئون والعمل في الأرض، وفي سبأ: ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾[٤].
- مات رحمه الله تعالى بمصر سنة ٧٤٤هـ، ودفن بالقرافة[٥].

ابن دقيق العيد

محمد بن علي بن وهب، تقي الدين ابن دقيق العيد، الشيخ الإمام، الحافظ الزاهد الورع الناسك، ولد سنة ٦٢٥هـ.

كان حسن الاستنباط للأحكام والمعاني؛ من السنة والكتاب، بلب يسحر الألباب، وفكر يستفتح له ما يستغلق على غيره من الأبواب، مستعيناً على ذلك بما رواه من العلوم، مستبيناً ما هنالك بما حواه من مدارك الفهوم، مبرزاً في العلوم النقلية والعقلية، والمسالك الأثرية والمدارك النظرية.

---

(١) سورة يونس: آية ١٥.

(٢) سورة الفرقان: آية ٥٥.

(٣) سورة يونس: آية ٦١.

(٤) سورة سبأ: آية ٣، وهكذا وقف الكلام دون ذكر لفائدة تقديم «السموات» في سورة سبأ.

(٥) «طبقات الشافعية الكبرى»: ٩/١٣٩-١٤٦.

وكان من العلوم بحيث يقضى   له من كل علم بالجميع

وسمع بمصر والشام والحجاز، على تحرٍ في ذلك واحتراز.

ولم يزل حافظاً للسانه، مقبلاً على شانه، وقف نفسه على العلوم وقصرها، ولو شاء العاد أن يحصر كلماته لحصرها، ومع ذلك فله بالتجريد تخلق، وبكرامات الصالحين تحقق، وله مع ذلك في الأدب باع وَساع[(١)]، وكرم طباع، لم يخل في بعضها من حسن انطباع، حتى لقد كان الشهاب محمود الكاتب المحمود في تلك المذاهب، يقول: لم تر عيني آدب منه. انتهى.

[٣٩٠] قلت: ولم ندرك أحداً من مشايخنا يختلف في أن ابن دقيق العيد هو العالم المبعوث على رأس السبعمائة، المشار إليه في الحديث المصطفوي النبوي[(٢)]، صلى الله على قائله وسلم، وأنه أستاذ زمانه، علماً وديناً.

سمع الحديث من والده وجماعة.

[٣٩١] ولد في البحر المالح[(٣)]، وكان والده متوجها من قوص إلى مكة للحج في البحر، فولد له الشيخ تقي الدين، في يوم السبت الخامس العشرين من شعبان، سنة خمس وعشرين وستمائة، ولذلك ربما كتب بخطه: الثبجي[(٤)]، ثم أخذه والده على يده وطاف به بالكعبة، وجعل يدعو الله أن يجعله عالماً عاملاً.

---

(١) وَساع، بفتح الواو: وهو الممتد الطويل.

(٢) وهو «يبعث الله على رأس كل مائة سنة لهذه الأمة من يجدد لها أمر دينها» وهو حديث صحيح.

(٣) أي البحر الأحمر.

(٤) قال الإسنوي: «والثبج، بالثاء المثلثة والباء الموحدة، والجيم: هو الوسط» ويعني أنه ولد في وسط البحر، ثم ذكر الإدفوي والإسنوي أن الشيخ تقي الدين ولد بساحل «ينبع».

[٣٩٢] ويحكي أنه قرأ على والده الحديث المسلسل، يقول: وأنا دعوت فاستجيب لي، فسئل: ما الذي دعوتَ به؟ فقال: أن ينشئ الله ولدي محمداً عالماً عاملاً، فنشأ الشيخ بقوص، على أزكى قدم من العفاف والمواظبة على الاشتغال، والتحرز في الأقوال والأفعال، والتشدد في البعد عن النجاسة، حتى حكت زوجة والده، قالت: لما بنى عليّ أبوه كان ابن عشر سنين، فرأيته ومعه هاون ويغسله مرات زمناً طويلاً، فقلت لأبيه: ما هذا الصغير يفعل؟ فقال له: يا محمد ما تفعل؟ فقال: أريد أن أركب حبراً وأنا أغسل هذا الهاون.

وكانت والدته بنت الشيخ المقترح[١]، ووالده الشيخ البركة مجد الدين، فأصلاه كريمان.

[٣٩٣]تفقه بقوص على والده، وكان والده مالكي المذهب، ثم تفقه على شيخ الإسلام عز الدين بن عبدالسلام، فحقق المذهبين، ولذلك يقول فيه الإمام العلامة النظار، ركن الدين محمد بن محمد بن عبدالرحمن التونسي المعروف بابن القَوْبع من قصيدة:

صبا للعلم صَبّاً في صباه فأَعْلِ[٢] بهمة الصَبّ الصبي
وأتقن والشباب له لباس أدلةَ مالكٍ والشافعي

[٣٩٤]ومن كراماته: أنه لما جاءت التتار، ورد مرسوم السلطان[٣] إلى القاهرة بعد خروجه منها للقائهم على أهل مصر: أن يجتمع العلماء ويقرأوا «البخاري»، قال الحاكي: فقرأنا البخاري إلى أن بقي ميعاد، وأخرناه لنختمه

---

(١) الشيخ المقترح: هو مظفر بن عبدالله بن علي المصري.

(٢) قال الإسنوي: «قوله: فأعل: هو التعجب: أي ما أعلاها»، والصَب هو المحب.

(٣) أي الملك المنصور.

يوم الجمعة، فلما كان يوم الجمعة رأينا الشيخ تقي الدين في الجامع، فقال: ما فعلتم ببخاريكم؟ فقلنا: بقي ميعاد أخرناه لنختمه اليوم، قال: انفصل الحال من أمس العصر، وبات المسلمون على كذا، فقلنا: نخبر عنك؟ فقال: نعم، فجاء الخبر بعد أيام بذلك، وذلك في سنة ثمانين عند دخول التتار البلاد.

[٣٩٥] وقال عن بعض الأمراء[١] وقد خرج من القاهرة: إنه لا يرجع، فلم يرجع.

[٣٩٦] وأساء شخص[٢] عليه الأدب، فقال له الشيخ: نعيت لي في هذا المجلس، ثلاث مرات، فمات بعد ثلاثة أيام.

[٣٩٧] وتوجه في شخص آذى أخاه[٣]، فسمع الخطاب أنه يهلك، وكان كذلك وكراماته كثيرة.

[٣٩٨] وأما دأبه في الليل علماً وعبادة، فأمر عجاب، ربما استوعب الليلة فطالع فيها المجلد أو المجلدين، وربما تلا آية واحدة، فكررها إلى مطلع الفجر، استمع له بعض أصحابه ليلة وهو يقرأ، فوصل إلى قوله: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾[٤] قال: فمازال يكررها إلى طلوع الفجر.

[٣٩٩] وكان يقول: ما تكلمت كلمة، ولا فعلت فعلاً إلا وأعددت له جواباً بين يدي الله عز وجل.

---

(١) هو الأمير علم الدين الدواداري.

(٢) هو ابن القصري.

(٣) المراد: أخو تقي الدين بن دقيق العيد. صاحب الترجمة، والشخص الوارد في الحكاية هو: تقي الدين ابن بنت الأعز، وقد سبقت ترجمته.

(٤) سورة المؤمنين: آية ١٠١.

وكان يخاطب عامة الناس، السلطان فمن دونه بقوله: يا إنسان، وإن كان المخاطب فقيهاً كبيراً قال: يا فقيه، وتلك كلمة لا يسمح بها إلا لابن الرفعة ونحوه، وكان يقول للشيخ علاء الدين الباجي: يا إمام، ويخصه بها.

توفي سنة اثنتين وسبعمائة.

[٤٠٠] ومن مصنفاته: كتاب «الإمام» في الحديث، وهو جليل حافل، لم يصنف مثله.

وكتاب «الإلمام»، وشرحه، ولم يكمل شرحه.

وأملى «شرحاً» على «عمدة» عبدالغني المقدسي في الحديث، وعلى «العنوان» في أصول الفقه.

وله «تصنيف في أصول الدين».

وشرح مختصر ابن الحاجب في فقه المالكية، ولم يكمله.

وعلق «شرحاً» على «مختصر التبريزي» في فقه الشافعية.

وولي قضاء القضاة على مذهب الشافعي، بعد إباء شديد، وعزل نفسه غير مرة، ثم يعاد.

[٤٠١] وكان حافظاً مكثراً، إلا أن الرواية عسرت عليه، لقلة تحديثه، فإنه كان شديد التحري في ذلك.

فصل في شيء من نثره وهو كثير

[٤٠٢] له ديوان خطب مفرد معروف، ونحن نذكر هنا ما هو بالغ في

الإجادة، مما خرج عن ديوانه، فمن ذلك قوله في خطبة شرح الإلمام:

أما بعد حمد الله فإن الفقه في الدين منزلة لا يخفى شرفها وعلاؤها، ولا تحتجب عن العقول طوالعها وأضواؤها، وأرفعها بعد فهم كتاب الله المنزل: البحث عن معاني حديث نبيه المرسل؛ إذ بذلك تثبت القواعد ويستقر الأساس، وعنه يقوم الإجماع ويصدر القياس، وما تعين شرعاً تعين تقديمه شروعاً، وما يكون محمولاً على الرأس لا يحسن أن يجعل موضوعاً، لكن شرط ذلك عندنا أن يحفظ هذا النظام، ويجعل الرأي هو المأموم والنص هو الإمام، وترد المذاهب إليه، وترد الآراء المنتشرة حتى تقف بين يديه، وأما أن يجعل الفرع أصلاً، ويرد النص إليه بالتكلف والتحيل، ويحمل على أبعد المحامل بلطافة الوهم وسعة التخيل، ويركب في تقرير الآراء الصعب والذلول، ويحتمل من التأويلات ما تنفر منه النفوس وتستنكره العقول، فذلك عندنا من أردئ مذهب، وأسوأ طريقة، ولا نعتقد أنه يحصل معه النصيحة للدين على الحقيقة، وكيف يقع أمر مع رجحان منافيه؟ وأنى يصح الوزن بميزان مال أحد الجانبين فيه؟ ومتى ينصف حاكم ملكته غضبة العصبية؟ وأين يقع الحق من خاطر أخذته العزة بالحمية؟

ثم أخذ في ذلك إلى منتهى الخطبة[1].

ابن المرحّل

محمد بن عمر بن مكي، صدر الدين ابن المرحل.

---

(١) «طبقات الشافعية الكبرى»: ٩/٢٠٧- ٢٤٩.

تفقه على والده، كان إماماً كبيراً، ولد بدمشق ونشأ بها، كانت له مع ابن تيمية مناظرات.

[٤٠٣] وكانت للشيخ صدر الدين صدقات دارة، ومكارم حاتمية ما أشك أنها كانت دافعة لكثير من السوء عنه، فلطالما دخل في مضايق ونجا منها.

[٤٠٤] ومن أحسن ما بلغني عنه من صدقاته: ما حكاه الحافظ شهاب الدين المسجدي، قال:

كنت معه ليلة عيد، فوقف له فقير استجداه، فقال لي: أيش معك؟ فقلت: مائتا درهم، فقال: ادفعها إلى هذا الفقير، فقلت له: يا سيدي، الليلة العيد، وما معنا ما ننفقه غداً، فقال لي: امض إلى القاضي كريم الدين الكبير، وقل له: الشيخ يهنئك بهذا العيد.

فلما رآني كريم الدين قلت له ما قاله لي الشيخ، قال: كأن الشيخ يعوز نفقةً في هذا العيد، ودفع إليّ ألفي درهم، وقال: هذه للشيخ، ولك أنت ثلاثمائة درهم.

فلما حضرت بالدراهم إلى الشيخ، قال: صدق رسول الله ﷺ: «الحسنة بعشر أمثالها»[1] هذه مائتان بألفين.

ولد الشيخ صدر الدين سنة خمس وستين وستمائة.

وتوفى بالقاهرة في سنة ست عشرة وسبعمائة[2].

---

(١) جزء من حديث في صحيح البخاري (باب حسن إسلام المرء) من كتاب الإيمان: ١/١٧.

(٢) «طبقات الشافعية الكبرى»: ٩/٢٥٣-٢٦٧.

ابن الفِركاح

برهان الدين، إبراهيم بن عبدالرحمن بن إبراهيم، فقيه الشام، ولد سنة ٦٦٠هـ.

[٤٠٥] رجح – تبعاً لوالده – : أن المراد بالساعات في حديث التبكير إلى الجمعة: من الزوال.

[٤٠٦] وعن معن ابن عيسى، قال: جاء ابن سرحون السلمي إلى مالك بن أنس وأنا عنده، فقال:

يا أبا عبدالله، إني قد قلت أبياتاً من شعر وذكرتك فيها، فأنا أسألك أن تجعلني في سعة، فقال له مالك: أنت في حل مما ذكرتني، وتغير وجهه وظن أنه هجاه، قال: إني أحب أن تسمعها، فقال له مالك: أنشدني، فقال:

سلوا مالك المفتي عن اللهو والصبا ... وحب الحسان المعجبات الفوارك

يُنَبِّيكمُ أني مصيب وإنما ... أُسْلي هموم النفس عني بذلك

فهل في محب يكتم الحب والهوى ... أثامٌ وهل في ضمة المتهالك

قال: قال لي معن؛ فسُري عن مالك وضحك.

قلت: في هذا من مالك دليل على جواز الإبراء عن الكلام في العرض وإن كان مجهولاً، وأنه كان يرى التحليل من هذا أولى من عدمه.

ونقل أبو الوليد بن رشد في «شرح العتبية» أن مذهب الشافعي أن ترك التحليل من الظلامات والتبعات أولى، لأن صاحبها يستوفيها يوم القيامة

بحسنات مَن هي عنده، وبوضع سيئاته على من هي عنده، كما شهد به الحديث. وهو لا يدري هل يكون أجره على التحليل موازياً ماله من الحسنات في الظلامات، أو يزيد أو ينقص، وهو محتاج إلى زيادة حسناته ونقصان سيئاته.

قال: ومذهب غيره أن التحليل أفضل مطلقاً.

قال: ومذهب مالك: التفرقة بين الظلامات، فلا يحلل منها، والتبعات فيحلل منها عقوبة لفاعل الظلامات. وهو تفصيل عجيب.

[٤٠٧] عن محمد بن مقاتل الماسقوري[1]، قاضي الري، قال:

كان محمد بن الحسين يكثر الإدلاج إلى بساتينه فيصلي الصبح، ثم يعود إلى منزله إذا ارتفعت الشمس وعلا النهار. قال محمد بن مقاتل: فسألته عن ذلك، قال: بلغني في حديث عن النبي ﷺ أنه قال: «حبب إلي الصلاة في الحيطان» وذلك أن أهل اليمن يسمون البستان الحائط.

قال محمد بن الحسين: فخرجت إلى حائط لي لأصلي فيه الفجر، رغبة في الثواب والأجر، فعارضني لص جرئ القلب خفيف الوثب، في يده خنجر كلسان الكلب، ماء المنايا يجول على فِرِنده، والآجال تلوح في حده، فضرب بيده إلى صدري، ومكن الخنجر من نحري، وقال لي بفصاحة لسان وجراءة جنان: انزع ثيابك واحفظ إهابك، ولا تكثر كلامك تلاقِ حِمامك[1]، ودع عنك التلوم وكثرة الخطاب فلابد لك من نزع الثياب.

---

(١) هذه القصة وما قبلها وما بعدها من كلام ورسائل متبادلة بين المصنف وبين برهان الدين القيراطي لا صلة لها بترجمة ابن الفركاح كما ذكر ذلك المحققان، انظر طبقات الشافعية للسبكي: ٣١٤/٩- ٣٣٥ وما بعدها.

(١) أي موتك.

فقلت له: يا سبحان الله، أنا شيخ من شيوخ البلد، وقاضي من قضاة المسلمين، يسمع كلامي ولا ترد أحكامي، ومع ذلك فإني من نقلة حديث رسول الله ﷺ منذ أربعين سنة، أما تستحي من الله أن يراك حيث نهاك؟

فقال لي: يا سبحان الله، أنت أيضاً أما تراني شاباً ملء بدني، أروق الناظر وأملأ الخاطر، وآوي الكهوف والغيران، وأشرب ماء القيعان والغدران، وأسلك مخوف المسالك، وألقى بيدي في المهالك، ومع ذلك فإني وجل من السلطان، مشرد عن الأهل والأوطان، وحاشا أن أعثر بواحد مثلك وأتركه يمشي إلى منزل رحب وعيش رطب، وأبقى أنا هنا أكابد التعب وأناصب النصب، وأنشأ اللص يقول:

تُري عينيك مالم ترياه كلانا عالم بالتُرهّات

قال القاضي: أراك شاباً فاضلاً ولصاً عاقلاً، ذا وجه صبيح، ولسان فصيح، ومنظر وشارة، وبراعةٍ وعبارة.

قال اللص: هو كما تذكر وفوق ما تنشر.

قال القاضي: فهل لك إلى خَصْلة تعقبك أجراً وتكسبك شكراً، ولا تهتك مني ستراً، ومع ذلك فإني مسلّم الثياب إليك، ومتوفر بعدها عليك.

قال اللص: وما هذه الخصلة؟

قال القاضي: تمضي إلى البستان معي فأتوارى بالجدران وأسلم إليك الثياب، وتمضي على المسارّ والمحاب.

قال اللص: سبحان الله، تشهد لي بالعقل وتخاطبني بالجهل! ويحك من

يؤمنني منك أن يكون لك في البستان غلامان جلدان علجان ذوا سواعد شديدة، وقلوب غير رعديدة، يشداني وثاقاً، ويسلماني إلى السلطان فيحكم فيّ آراءه، ويقضي علي بما شاءه.

قال له القاضي: لعمري إنه من لم يفكر في العواقب، فليس له الدهر بصاحب، وخليق بالوجل من كان السلطان له مراصداً، وحقيق بإعمال الحيل من كان للسيئات قاصداً، وسبيل العاقل أن لا يغتر بعدوه، بل يكون منه على حذر، ولكن لا حذر من قدر، ولكن أحلف لك أَلِيّةَ مسلم وجهد مُقْسم: أني لا أوقع بك مكراً، ولا أضمر لك غدراً.

قال له اللص: لعمري، لقد حسنت عبارتك ونمقتها، وحسنت إشارتك وطبقتها، ونثرت خيرك على فخ ضيرك، وقد قيل في المثل السائر على ألسنة العرب: أنجزَ حرٌّ ما وعد، أدرِك الأسد قبل أن يلتقي على الفريسة لحياه، ولا يعجبك من عدو حسن مُحَيّاه، وأنشد:

لا تخدش وجه الحبيب فإنا قد كشفناه قبل كشفك عنه
واطلعنا عليه والمتولي قطعَ أُذن العَيّار أعير منه

ألم يزعم القاضي أنه كتب الحديث زماناً، ولقي فيه كهولاً وشباناً، حتى فاز ببَكره وعونه، وحاز منه معنى متونه وعيونه؟

قال القاضي: أجل.

قال اللص: فأي شيء كتبت في هذا المثل الذي ضربت لك فيه المثل وأعملت الحيل؟

قال القاضي: ما يحضرني في هذا المقام الحرج حديث أسنده ولا خبر

أورده، فقد قطعت هيبتك كلامي، وصَدَّعت قبضتك عظامي، فلساني كليل، وجَناني عليل، وخاطري نافر، ولبي طائر.

قال اللص: فليسكن لبك، وليطمئن قلبك، اسمع ما أقول وتكون بثيابك حتى لا تذهب ثيابك إلا بالفوائد.

قال القاضي: هات.

قال اللص: حدثني أبي عن جدي، عن ثابت البناني، عن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله ﷺ:

«يمين المكره لا تلزمه فإن حلف وحنث فلا شيء عليه[(1)]» وأنت إن حلفت حلفت مكرهاً، وإن حَنَثْتَ فلا شيء عليك، انزع ثيابك.

قال القاضي: يا هذا، قد أعيتني مضاءة جنانك وذرابة لسانك، وأخذك عليّ الحجج من كل وجه، وأتيت بألفاظ كأنها لسع العقارب، أقم هاهنا حتى أمضي إلى البستان وأتوارى بالجدران، وأنزع ثيابي هذه وأدفعها إلى صبي غير بالغ، تنتفع بها أنت، ولا أنهتك أنا، ولا تجري على الصبي حكومة لصغر سنه وضعف مُنّته[(2)].

قال اللص: يا إنسان قد أطلت المناظرة، وأكثرت المحاورة، ونحن على طريق ذي غَرر، ومكان صعب وَعِر، وهذه المراوغة لا تنتج لك نفعاً، وأنت لا تستطيع لما أرومه منك دفعاً، ومع هذا فتزعم أنك من أهل العلم والرواية والفهم والدراية، ثم تبتدع، وقد روى عن النبي ﷺ أنه قال: «الشريعة

---

(١) لا يصح هذا الحديث.

(٢) أي قوّته.

شريعتي والسنة سنتي فمن ابتدع في شريعتي وسنتي فعليه لعنة الله»[١].

قال القاضي: يا رجل وما هذا من البدع؟

قال اللص: اللصوصية بنسيئة[٢] بدعة، انزع ثيابك، فقد أوسعت من ساعة مِحالك[٣]، ولم أشدد عقالك حياء من حسن عبارتك وفقه بلاغتك وتقلبك في المناظرة، وصبرك تحت المخاطرة.

فنزع القاضي ثيابه، ودفعها إليه، وأبقى السراويل.

فقال اللص: انزع السراويل كي تتم الخلعة.

قال القاضي: يا هذا دع عنك هذا الاغتنام، وامض بسلام، ففيما أخذت كفاية، وخل السراويل، فإنه لي ستر ووقاية، لا سيما وهذه صلاة الفجر قد أزف حضورها، وأخاف تفوتني فأصليها في غير وقتها، وقد قصدت أن أفوز بها في مكان يحبط وزري ويضاعف أجري، ومتى منعتني من ذلك كنت كما قال الشاعر:

إن الغراب وكان يمشي مِشية ... فيما مضى من سالف الأحوال
حسد القَطاة فرام يمشي مشيها ... فأصابه ضرب من العُقّال
فأضلّ مِشيته وأخطأ مشيها ... فلذاك كنوه أبا المِرْقال

قال اللص: القاضي أيده الله تعالى يرجع إلى خلعة غير هذه أحسن منها منظراً وأجود خطراً، وأنا لا أملك سواها، ومتى لم تكن السراويل في جملتها

---

(١) لا يصح هذا الحديث.

(٢) أي بأجل.

(٣) أي مكرك وخديعتك.

ذهب حسنها، وقل ثمنها، لاسيما والتكّة مليحة وسيمة، ولها مقدار وقيمة، فدع ضرب الأمثال، وأقلع عن ترداد المقال، فلست ممن يُرد بالمحال، مادامت الحاجة ماسة إلى السروال، ثم أنشد:

دع عنك ضربك سائر الأمثال   واسمع إذا ماشئت فصل مقال
لا تَطْلُبَنْ مني الخلاص فإنني   أفتي متى ما جئتني بسؤال
ولأنت إن أبصرتني أبصرت ذا   قول وعلم كامل وفعال
جارت عليه يد الليالي فانثنى   يبغي المعاش بصارم ونصال
فالموت في ضنك المواقف دون أن   ألقى الرجال بذِلّة التَسآل
والعلم ليس بنافعٍ أربابَه   أوْلا فقومه على البقّال

ثم قال: ألم يقل القاضي إنه يتفقه في الدين ويتصرف في فتاوى المسلمين؟

قال القاضي: أجل.

قال اللص، فمن صاحبك من أئمة الفقهاء؟

قال القاضي: صاحبي محمد بن إدريس الشافعي.

قال اللص: اسمع هذا، وتكون بالسراويل حتى لا تذهب عنك السراويل إلا بالفوائد.

قال القاضي: أجل، يالها من نادرة ما أغربها، وحكاية ما أعجبها.

قال: أي شيء قال صاحبك في صلاة الفجر وغيرها وأنت عريان؟

قال القاضي: لا أدري.

قال اللص: حدثني أبي عن جدي، عن محمد بن إدريس، يرفعه، قال:

قال رسول الله ﷺ : «صلاة العريان جائزة ولا إعادة عليه»[1] تأول في ذلك غرقى البحر إذا سلموا إلى الساحل.

فنزع القاضي السراويل، وقال: خذه وأنت أشبه بالقضاء مني، وأنا أشبه باللصوصية منك، يامن درس على أخذ ثيابي موطأ مالك وكتاب المزني، ومد يده ليدفعه إليه، فرأى الخاتم في إصبعه اليمنى، فقال: انزع الخاتم.

فقال القاضي: إن هذا اليوم ما رأيت أنحس منه صباحاً ولا أقل نجاحاً، ويحك ما أشرهك وأرغبك وأشد طلبك وكَلَبَك! دع هذا الخاتم فإنه عارية معي، وأنا خرجت ونسيته في إصبعي، فلا تلزمني غرامته.

قال اللص: العارية غير مضمونة ما لم يقع فيها شرط عندي، ومع ذلك أفلم يزعم القاضي أنه شافعي؟

قال: نعم.

قال اللص: فلم تختمت في اليمين؟

قال القاضي: هو مذهبنا.

قال اللص: صدقت إلا أنه صار من شعار المضادين[2].

قال القاضي: فأنا أعتقد ولاء أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، كرم الله وجهه، وتفضيله على كل المسلمين، من غير طعن على السلف الراشدين، وهذا في الأصول اعتقادي، وعلى مذهب الشافعي في الفروع اعتمادي.

---

(١) لا يصح هذا الحديث.

(٢) أي الرافضة.

فأخذ اللص في رد مذهب الرفض ، وجرت بينهما في ذلك مناظرة طويلة رويناها بهذا الإسناد ، انقطع فيها القاضي ، وقال بعد أن نزع الخاتم ليسلمه إليه : خذ يافقيه يا متكلم يا أصولي يا شاعر يا لص(١) .

الشيرازي البالي

إسماعيل بن يحيى بن إسماعيل بن تيكروز ، قاضي القضاة مجد الدين أبو إبراهيم التميمي الشيرازي البالي.

وبال ، بالباء الموحدة : بليدة من عمل شيراز.

تفقه على والده.

وولي قضاء القضاة بفارس ، وهو ابن خمس عشرة سنة ، وعزل بعد مدة بالقاضي ناصر الدين البيضاوي ، ثم أعيد بعد ستة أشهر ، وعزل القاضي ناصر الدين ، واستمر مجد الدين على القضاء خمساً وسبعين سنة.

وكان مشهوراً بالدين والخير والمكارم ، وحفظ القرآن وكثرة التلاوة.

[٤٠٨] وله منزلة عند الملوك رفيعة ، أمر بعضهم بإظهار الرفض في أيامه ، فقام في نصر الدين قياماً بليغاً ، وأوذي بهذا السبب ، وقيل : إنه ربط وألقى إلى الكلاب والأسود ، فشمته ولم تتعرض له ، فعظم قدره وعلم أنه من أولياء الله ، وكان ذلك سبباً في خذلان الرفضة.

[٤٠٩] ولد له ثلاث بنين ، واشتغلوا بالعلم ثم مات كل منهم في عنفوان شبابه ،

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى : ٩/٣١٢- ٣٩٨.

فحكى أنه صلى على كل واحد منهم وكفنه، ولم يجزع، ولا بكى على واحد منهم.

[٤١٠] وحُكِي أنه وقع بين أهل شيراز وملكهم خصومة، ونزل الملك بظاهر البلد، وعزم على قتالهم ومحاصرتهم، فخرج القاضي لإطفاء النائرة، وكان في مَحَفّة، فرجموه بالحجارة، وهرب جميع من كان حواليه وأصيبوا بالحجارة، ووقف القاضي ثابتاً غير مضطرب، ولم يصبه شيء، فعدت كرامة له.

[٤١١] ولما مات أحد أولاده الثلاثة، أفضل الدين أحمد، سأله بعض الحاضرين عن سنه، فقال: رأيت أني أُعطيت أربعة وتسعين ديناراً، وأعطي ولدي أحمد اثنين وعشرين، فسألت المعطي: ما هذا؟ فقال: هذه سنو عمركما، فاستوفى أحمد اثنين وعشرين، وأما أنا فبقي لي تسع سنين، فكان الأمر كما ذكر.

توفي سنة ست وخمسين وسبعمائة، عن أربع وتسعين سنة، بشيراز.

[٤١٢] أنشدنا صاحبنا المحدث مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزابادي، لنفسه، ما كتبه إلى القاضي مجد الدين، مستفتياً، قال: وكنت عزمت في سنة سبع وأربعين وسبعمائة على الحج، وكنت متزوجاً، فمنعني أهل زوجتي عن السفر إلا أن أعلق طلاقها بمضي ستة أشهر، فأجبت مكرهاً، ثم عدت بعد سنين، فكتبت إلى القاضي رحمه الله:

ألا من مبلغ عني كتابا ... إلى قاضي قضاة المسلمينا
بحال أن قومي أكرهوني ... بأن علق طلاقك مكرهينا

في أبيات ذكرها، قال: فأجابني القاضي بديهاً:

ألا ياقدوة الفضلاء إني ... أعدك صادقاً براً أميناً

سليلاً للأسى الأمجادِ مَجْداً غَدا للدَّسْتِ صَدْراً أو يميناً[١]
سأحكم بينكم حكماً مبيناً ولكن إن حلفت لهم يميناً
وذلك نص شرع الله فيهم وأما الشيخ حاشا أن يمينا[٢]

كمال الدين القوصي

علي بن أحمد بن جعفر بن علي بن محمد بن عبدالظاهر ينتهي نسبه إلى عبدالله بن جعفر بن أبي طالب.

الشيخ كمال الدين ابن عبدالظاهر، الهاشمي الجعفري القوصي.

نزيل إخميم، ذو العلم والعبادة والمكاشفات والأحوال، والتكلم على الخواطر.

ثم أسفر له صباح السعادة، وتطلع إليه طالع المجد، فقدم إلى قوص الشيخ علي الكردي، رجل ذو ورع وتقوى، فاجتمع عليه ابن عبدالظاهر هذا، والشيخ تقي الدين ابن دقيق العيد، والشيخ جلال الدين الدشنائي وجماعة، ولازموا الذكر، وجدوا في العبادة غاية الجد.

[٤١٣] وحُكِي أن ابن عبدالظاهر رأى مرحاضاً قد أخرج ما فيه ووضع إلى جانب المسجد الذي هم فيه، فقال في نفسه: لابد أن أحمل هذا، فنازعته نفسه؛ إذ هو من بيت رياسة وأصالة، فاستدرجها إلى أن حمله في النهار، ومر

---

(١) الأسى: جمع أسوة، بمعنى القدوة. والدست: معرب دشت، بمعنى الصحراء، ومن معانيه: صدر البيت. قال الخفاجي: واستعمله المتأخرون بمعنى الديوان، ومجلس الوزارة والرئاسة.

(٢) «طبقات الشافعية الكبرى»: ٩/٤٠٠-٤٠٣.
ومعنى يمينا: أي يكذب.

به والناس تتعجب منه، وتظن أن عقله حصل فيه خلل.

ثم استوطن إخميم، وبنى بها رباطاً، وعمت بركاته على مريديه، واشتهر من كراماته ما كثر.

[٤١٤] وحكى بعض الثقات عن نفسه، قال:

لازمت الذكر مدة حتى خطر لي أني تأهلت، وسافرت فرافقت في سفري شاباً نصرانياً جميل الصورة، فلما فارقته وجدت ألماً كثيراً لفراقه، فدخلت إخميم وأنا على تلك الحال متألم، فحضرت ميعاد ابن عبدالظاهر، فتكلم على عادته، ثم نظر إلي، وقال: لا إله إلا الله ثم أناس يظنون أنهم من الخواص، وهم من عوام العوام، قال الله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾(١) و﴿مِنْ﴾ للتبعيض، ومعنى التبعيض: أن لا ترفع شيئاً من بصرك إلى شيء من المعاصي.

وكراماته كثيرة.

توفى في رجب سنة إحدى وسبعمائة بإخميم(٢).

تقي الدين السبكي

أبو الحسن، علي بن عبدالكافي بن علي بن تمّام السبكي تقي الدين - والد المصنف -.

---

(١) سورة النور: آية ٣٠.

(٢) «طبقات الشافعية الكبرى»: ١٠/١٣٠-١٣٢.

الشيخ الإمام الفقيه المحدث المفسر الحافظ، قاضي القضاة.

ولد سنة ثلاث وثمانين وستمائة[1].

[٤١٥] وتفقه في صغره على والده، وكان من الاشتغال على جانب عظيم، بحيث يستغرق غالب ليله وجميع نهاره، وحكى لي أنه لم يأكل لحم الغنم إلا بعد العشرين من عمره، لحدة ذهنه، وأنه كان إذا شم رائحته حصل له شَرَى[2]، وإنما كان يخرج من البيت صلاة الصبح، فيشتغل على المشايخ، إلى أن يعود قريب الظهر، فيجد أهل البيت قد عملوا له فروّجاً، فيأكله ويعود إلى الاشتغال إلى المغرب، فيأكل شيئاً حلواً لطيفاً، ثم يشتغل بالليل، وهكذا لا يعرف غير ذلك، حتى ذكر لي أن والده قال لأمه: هذا الشاب ما يطلب قط درهما ولا شيئاً، فلعله يرى شيئاً يريد أن يأكله، فضعي في منديله درهماً أو درهمين، فوضعت نصف درهم.

قالت الجدة: فاستمر نحو جمعتين وهو يعود والمنديل معه والنصف فيه، إلى أن رمى به إليّ وقال: أيش أعمل بهذا؟ خذوه عني.

[٤١٦] وكان الله تعالى قد أقام والده ووالدته للقيام بأمره، فلا يدري شيئاً من حال نفسه.

[٤١٧] ثم زوجه والده بابنة عمه، وعمره خمس عشرة سنة، وألزمها أن لا تحدثه في شيء من أمر نفسها، وكذلك ألزمها والدها، وهو عمه الشيخ

---

(١) وفي «النجوم الزاهرة» أنه ولد بسبك التلات وهي سبك الضحاك، وهي قرية بالمنوفية، من أعمال الديار المصرية، بالوجه البحري.

(٢) الشرى: بثور صغار حمر حكاكة مكربة، تحدث دفعة غالباً وتشتد ليلاً، لبخار حار يثور في البدن دفعة. القاموس المحيط (ش ر ي).

صدر الدين، فاستمرت معه، ووالده ووالدها يقومان بأمرهما، وهو لا يراها إلا وقت النوم، وصحبته مدة، ثم إن والدها بلغه أنها طالبته بشيء من أمر الدنيا، فطلبه وحلف عليه بالطلاق ليطلقها، فطلقها، فانظر إلى اعتناء والده وعمه بأمره، وكان ذلك خوفاً منهما أن يشتغل باله بشيء غير العلم.

وكان صادقاً متثبتاً خيّراً ديناً متواضعاً، حسن السمت، من أوعية العلم، تولى قضاء الشام وخطابة الجامع الأموي، سمع عليه خلائق منهم المزي والذهبي.

[٤١٨] ولما شغرت مشيخة دار الحديث الأشرفية بوفاة الحافظ المزي، عيّن هو الذهبي لها، فوقع السعي فيها للشيخ شمس الدين ابن النقيب، وتكلم في حق الذهبي بأنه ليس بأشعري، وأن المزي ما وليها إذ وليها إلا بعد أن كتب خطه وأشهد على نفسه بأنه أشعري العقيدة، واتسع الخرق في هذا، فجمع ملك الأمراء الأمير علاء الدين ألطنبغا — نائب الشام إذ ذاك — العلماء، فلما استشار الشيخ الإمام أشار بالذهبي، فقام الصائح بين الشافعية والحنفية والمالكية، وتوقفوا فيه أجمعون، وكان من الحاضرين الشيخ نجم الدين القحفازي، شيخ الحنفية، فقال له الشيخ الإمام: أيش تقول؟ فقال:

وإليكم دار الحديث تساق

أبدل هذا بدار(١).

فاستحسن الجماعة هذا منه، ودار إلى ملك الأمراء، وقال: أعلم الناس اليوم بهذا العلم قاضي القضاة، والذهبي، وقاضي القضاة أشعري قطعاً،

---

(١) هو يريد أن رواية الشعر السابق: وإليكم هذا الحديث يساق. فجعل «دار» مكان: هذا.

وقطع الشك باليقين أولى.

فوليها الشيخ الإمام، ولم يكن مختاراً ذلك، بل كان يكرهه، وقام من وقته إلى دار الحديث، وبين يديه الذهبي وخلق، فروى بسنده من طرق شتى منه إلى أبي مسهر، حديث «يا عبادي»[1] وتكلم على رجاله ومخرِّجه، بحيث لم يسع المجلس الكلام على أكثر من رجال الحديث ومخرجه، إلى أن بهت الحاضرون، لعلمهم أن الشيخ الإمام من سنين كثيرة لا ينظر الأجزاء ولا أسماء الرجال، ولقد قال الذهبي:

❖ وما علّمتني غير ما القلب عالمه[2] ❖

والله كنت أعلم أنه فوق ذلك، ولكن ما خطر لي أنه مع الترك والاشتغال بالقضاء يحضر من غير تهيئة، ويسند هذا الإسناد، انتهى.

وبالجملة: كان مع صحة الذهن واتقاده، عظيم الحافظة، لا يكاد يسمع شيئاً إلا حفظه، ولا يحفظ شيئاً فينساه، وإن طال بعده عن تذكره، جمعت له الحافظة البالغة، والفهم الغريب، فما كان إلا ندرة في الناس.

[٤١٩] كان بالآخرة قد أعرض عن كثرة البحث والمناظرة، وأقبل على التلاوة والتأله والمراقبة، وأما باب الغيبة، فوالله لم أسمعه اغتاب أحداً قط لا

---

(١) يريد حديث النبي ﷺ، فيما روى عن الله تبارك وتعالى، أنه «قال: ياعبادي، إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً، فلا تظالموا...» الحديث. راجع صحيح مسلم (باب تحريم الظلم. من كتاب البر والصلة والآداب) ١٩٩٤، ١٩٩٥.

(٢) هذا اعتراض بين الذهبي، وبين قوله «والله كنت أعلم». وهو المتنبي، من قصيدته التي يمدح بها سيف الدولة. والبيت بتمامه:

ومـا استغربت عـيني فراقـاً رأيتـه ... ولا علمـتني غـير مـا القلـب عالمـه

من الأعداء ولا من غيرهم.

[٤٢٠] وكان ينهانا عن نوم النصف الثاني من الليل، ويقول لي: يا بني، تعود السهر ولو أنك تلعب، والويل كل الويل لمن يراه نائماً وقد انتصف الليل.

[٤٢١] وكان يقول لي، في أيام مرضه، قبل أن يحصل لي القضاء:

إياك ثم إياك أن تطلب القضاء بقلبك، فضلاً عن قالبك، فأنا أطلبه لك، لعلمي بالمصلحة في ولايتك، لك ولقومك وللناس، وأما أنت فاحذر، لئلا يكلك الله إليه، على ما قال ﷺ: «يا عبدالرحمن لا تسأل الإمارة» الحديث[1].

[٤٢٢] وحضرته، وقد جاء إليه بعض الفقراء، فقال: أريد ثلاثاً: ولاية ابني هذا موضعي، ورؤية ولدي أحمد، وموتي بمصر، أشهد بالله لسمعت ذلك منه.

فقال له الفقير: سل الله في ذلك إن كان مصلحة.

فقال: قد تحققت أن كل واحد من الثلاثة مصلحة.

فقال له: القضاء مصلحة لهذا؟

فقال: نعم، تحققت أنه مصلحة في الدنيا والدين جميعاً.

وقال في ذلك المجلس: أنا في برِّ ولدي أحمد، يعني الأخ أبا حامد، ووصفه بالعلم الكثير.

[٤٢٣] وأما أحواله فكانت عجيبة جداً، ما عانده أحد إلا وأُخذ

(١) صحيح مسلم «كتاب الأيمان»، ١٢٧٣.

سريعاً ، وكان لا يحب أن يظهر عليه شيء من الكرامات ، ويتأذى كل الأذى من ظهورها ، وممن يظهرها ، وقد اتفقت له في القاهرة و دمشق عجائب ، منها :

أنه كان بيده تدريس المنصورية ، أخذها عن قاضي القضاة جمال الدين الزرعي ، عند ولايته قضاء الشام ، ثم عزل الزرعي ، وأرغون النائب في الحجاز ، وكان كثير الصداقة له ، فلما بلغ ذلك أرغون ، شق عليه ، وعزم على أنه إذا وصل إلى مصر ينزع المنصورية من الوالد ويعيدها للزرعي ، فلما قيل : إن أرغون وصل ويطلع غداً ، بات الوالد في قلق ؛ لأنه لم يكن له رزق غيرها إلا اليسير ، فأخبرني أخي الشيخ بهاء الدين أنه أخبره أنه صلى في الليل ركعتين ، فسمع قائلاً يقول له : أرغون مات ، فلما أصبح وحضر الدرس ، قيل له : إن أرغون طلع القلعة ، فتوجه إلى جهة القلعة للسلام عليه ، فبلغه في الطريق أن أرغون أُمسِك.

[٤٢٤] ومنها واقعته مع أَيْدُغْمُش ، نائبِ الشام ، فإنه عانده وضاجره ، فحكى لي أخي الشيخ بهاء الدين أنه لما اشتد به ذلك ، عزم على عزل نفسه من القضاء ، فحضر درس الأتابكية بالصالحية ، ثم دخل إلى مسجد في دهليزها ، وأغلق عليه الباب ، وصلى ركعتي الاستخارة في ذلك ، فلما كانت السجدة الثانية من الركعة الثانية ، سمع قائلاً يقول : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[1] فأحجم عن ذلك إلى آخر حياته.

[٤٢٥] وآخر أمره مع أيدغمش : أنه أمر شادّ الأوقاف بجمع الفقهاء للفتوى عليه ، فبينا شاد الأوقاف بعد صلاة الجمعة يجمعهم ، وإذا بالبريدي قدم من مصر يطلبه إلى باب السلطان معززاً مكرماً.

---

(١) سورة الرعد : آية ١١.

ثم سافر إلى مصر، وما اتفقت إقامته بها، وصار يصعب عليه العود إلى دمشق، وأيدغمش بها، والإقامة بمصر لا تمكنه، فبلغني أن الأمير الكبير بدر الدين جنكلي ابن البابا، وهو أكبر أمراء الدولة، قال: نحن مع هذا السبكي في صداع، لا يمكن إقامته بمصر، ولا يهون عليه عوده إلى دمشق، وأيدغمش بها، ولا يمكننا عزل أيدغمش بسبب قاض، إن كانت له كرامة عند الله، فالله يريحه من أيدغمش، فجاءهم الخبر ثاني يوم بوفاة أيدغمش فجأة، فلما أن بلغه الخبر لم يزد على أن ذرفت عيناه بالدموع، ثم نهض إلى الصلاة.

[٤٢٦] وكان ممن يحط عليه عنده القاضي شهاب الدين ابن فضل الله، فعزل وصودر، واتفق له ما اتفق.

[٤٢٧] وكان القاضي شهاب الدين أرسل إليه من قبل بشهر، يقول له مع مملوكه: عرفتني؟ فقال: قل له: نعم عرفتك ولكن أنت ما عرفتني، فبعد شهر صودر، واتفق له ما اتفق.

[٤٢٨] ومنها أمره مع طقزتمر، نائب الشام، وكان من أصحب الناس له في مصر، فلما جاء إلى الشام غيره الشاميون عليه، وأعانهم امتناعه من امتثال أوامره، فطلب إلى مصر، واستوحشنا من رواحه، فما وصلها إلا وهو في النزع، ومات.

[٤٢٩] ومنها أمره مع أرغون شاه نائب الشام أيضاً، وقد جرت له معه فصول، وأنا رأيته مرة يمسك بطرزه، ويقول له: يا أمير، أناأموت وأنت تموت.

[٤٣٠] وقال له مرة: يا قاضي، كم نائباً رأيت في هذه المدينة؟

قال: كذا كذا نائباً.

قال: ما يروحك إلا أنا.

فقال الشيخ الإمام: سوف تبصر.

قلت: أما الذي اتفق لأرغون شاه، فإنه ذبح صبراً ليلة الجمعة.

وأما الذي اتفق من الشيخ الإمام فإنا صلينا المغرب، واجتمعنا على العشاء، ثم صلى الشيخ الإمام عشاء الآخرة، وأوتر، وصعد السطح، فحكى أهل البيت أنه استمر واقفاً في السطح مكشوف الرأس، مطرقاً ساكتاً لا يتكلم، قائماً على رجليه، إلى أن طلع الفجر، ثم نزل فصلى الصبح بوضوء العشاء، وأنه قال للنساء وهو نازل: انقضى شغل أرغون شاه، لا يتكلم أحد، فحسبنا.

ففي يوم الثلاثاء خرج الجيبغا من طرابلس، ووصل إلى دمشق ليلة الخميس، وأمسكه تلك الليلة، ثم ذبحه ثاني ليلة.

[٤٣١] وهذه كانت حالة الشيخ، في توجهه، يكشف رأسه ويجعل المنديل في رقبته، ويقوم على رجله مطرقاً ساكتاً، ويصير عليه من المهابة ما يعجز الواصف عن وصفه، ويكاد من يراه في تلك الحالة يوقن أنه لو لسعه زنبور في تلك الحالة لما أحس به.

[٤٣٢] وكانت أيضاً عوائده إذا كانت له حاجة، أن يكتب قصة بخطه إلى الله تعالى، ويعلقها على خشبة في السطح، وربما أنزلها بعد أيام، وكأن ذلك علامة قضاء الشغل، ما أدري.

وهذه الحكاية التي لأرغون شاه، أنا سمعت النساء الثقات في البيت يحكينها.

وأما أنا، ففي ليلة الخميس بلغني الخبر عقيبَ مسك أرغون شاه، فعبرت إليه، وطرقت الباب، فسمعت صوته في قراءة التهجد، فأمسكت، فقضى الركعتين، وخرج وهو يتلو، فلما أخذ في فتح الباب، ترك التلاوة، وقال: لا تظهر الشماتة بأخيك، فيعافيه الله ويبتليك.

فلما فتح، قلت له: أُمسِك أرغون شاه.

قال: من قال؟ اسكت، أيش هذا الفُشار.

فما أدرى لما قال لي: لا تظهر الشماتة بأخيك، هل كان ذهنه حاضراً، أو أجراها الله على لسانه من غير قصد، الله يعلم.

[٤٣٣] سمعت الوالد رحمه الله، في درس الغزّالية، يقول، وقد سئل عن الدليل على تقبيل المصحف: دليله القياس على تقبيل الحجر الأسود، ويد العالم والوالد والصالح، ومن المعلوم أن المصحف أفضل منهم.

وسبب تقبيل الحجر الأسود ما ورد أنه يمين الله في الأرض(١)، والعادة تقبيل يمين من يقصد إكرامه، فجعل إشارة إلى ذلك، تعالى الله عن التشبيه.

قال: وهذا معنى لطيف في تقبيل الحجر الأسود، والقرآن صفة الله، فهو بذلك أحق.

سمعت الوالد يقول، في قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾(٢) إنه سمع شيخه أبا الحسن الباجي، يقول:

---

(١) قال ابن الأثير: هذا الكلام تمثيل وتخييل، وأصله أن الملك إذا صافح رجلاً قبّل الرجل يده، فكأنّ الحجر الأسود لله بمنزلة اليمين للملك، حيث يستلم ويلثم» ،انظر النهاية: ٥/ ٣٠٠.

(٢) سورة الفرقان: آية ٤٠.

[٤٣٤] لم لا قيل: اتخذ هواه إلهه؟

قال الوالد: فمازلت مفكراً في الجواب مذ أربعين سنة، حتى تلوت ما قبلها، وهو قوله: ﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ ﴾(١) إلى قولهم ﴿ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا ﴾(٢) فعلمت أن المراد الإله المعبود بالباطل، الذي عكفوا عليه وصبروا وأشفقوا من الخروج عنه، فجعلوه هواهم.

[٤٣٥] قلت: رأيت بخط الشيخ الإمام رضي الله عنه في حائط خلوته تجاه وجهه، ما نصه:

«كن حِلْس بيتك»(٣)

«انصر أخاك».

«كل المسلم على المسلم حرام».

«دع ما يريبك».

«عليك بخويصة نفسك وليسعك بيتك» انتهى، كأنه كتبه تذكرة لنفسه، كلما أراد أن يخرج من البيت، رحمه الله ما كان أكثر مجاهدته للنفس.

[٤٣٦] نقلت من خطه قدس الله روحه:

كل عمل العبد الصالح ينبغي له أن يخفيه عن كل أحد حتى يلاقي به الله تعالى يوم القيامة، فهو أعلم به ويجازيه به، وإذا تكلم مع أحد بقدر الضرورة في

---

(١) سورة الفرقان: آية ٤١.

(٢) سورة الفرقان: آية ٤٢.

(٣) أي أقم في بيتك ولا تتحرك منه وكن مثل الحِلْس وهو بعض متاع البيت.

علم أو نحوه فينوي به إما إفادته أو الاستفادة، فهذان الأمران ينبغي للعاقل أن يلزمهما، ولا يغفل عنهما، والتجربة تفيدهما، وتفيد أن الناس عدم بالكلية، لا ينفعون شيئاً، وإذا تحقق العبد ذلك انتفى عنه الرياء، وخرج من قلبه محبته، ولزم الأمرين المذكورين، والله أعلم(١).

---

(١) [٤٣٧] «نقلتُ من خطه وصية:

ينبغي للعبد أن كل حالة أقامه الله فيها يتخذها عبادة، فإن العمر قصير، ويذهب منه في الصغر وأحوال في الكبر؛ من النوم وخاصةِ البدن التي لابد منها شيء كثير، ومما يعرض من أمراض وأعذار، وضرورات واشتغال بالناس، كتدبير المعاش والمعاد شيء كثير. فما يصفو له من وقته إلا النزر اليسير.

فإما أن ينتهز فرصته في طاعة يصل بها إلى الرحمن، وسكن الجنان، وإما أن يضيع عليه وذلك غاية الخسران. وإما أن يصرفها، والعياذ بالله، في الإثم والعدوان، فيكون من أحزاب الشيطان، يصلى معه النيران.

وما من وقت يمر عليه إلا وهو فيه بين هذه الخصال الثلاث.

وما من حالة من الأحوال يقيمه الله فيها إلا ويقدر أن يجعلها عوناً على ذلك، ولا تواتيه المقادير على ما يريد في كل وقت، فمتى قعد ينتظر وقتاً كما يريد، فاته خير كثير.

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ [سورة القصص: آية ٦٨].

وغالباً يأتي للإنسان الشر مما يختاره لنفسه، فينبغي أن لا يختار، بل يفوض أمره إلى الله تعالى ليختار له.

وأي وظيفة أقامه فيها، يجتهد أن يصرفها في طاعة الله تعالى؛ ليكون دائماً عاملاً بطاعة الله، ممتثلاً أوامره، مراقباً له.

مثاله: إذا قدر له أن يكون في وظيفة من الوظائف الخطيرة، كالقضاء مثلاً، ولم يوفق لدفعه في الأول، وقد تورط فيه، فلا يختار الخروج منه؛ لئلا يخرج فيقع فيما هو شر منه؛ فإنه لا يدري عواقب الأمور، ولا ما يكون، بل يستمر فيه حريصاً على أمور: أحدها: اهتمامه في خاص نفسه بما يلزمه من أمر الله تعالى، فلا يشتغل عنه بما هو فيه.

الثاني: أن ينوي ببقائه فيه صيانته عن أن يتولاه من هو شر منه، فيكون بقاؤه فيه في كل زمان دفعاً لمن لا يصلح، فيكون دائماً في عبادة بهذا.

وإذا اتفقت قضية ينصر فيها مظلوماً، أو يقيم حقاً، أو يدفع باطلاً، كان زيادة على ذلك، ويحمي المسلمين مما يقدر عليه من خلاف ذلك، ويحمي الشريعة أن يدخلها ما ليس منها، ويرى نفسه بمثابة عبد وضعه سيده في دار له، فيها عيال لسيده، وتلك الدار لا تليق به، إما لعجزه عنها، وإما لعجز ذلك، فلا يسأله الخروج منها؛ لأن الأمر أمره، ولكن يجتهد في مصالح عياله، وابتغاء مرضاته فيهم وفي غيرهم،

وقد يكون سيده قصد امتحانه بذلك، فلا يزال في عبادة ما دام ناوياً عاملاً بما وصيته به، فعن قريب يموت، إما على ذلك وإما على غيره.
والمقصود الوصول إلى الله تعالى على أي حال كان، سيروا إلى الله عُرُجاً ومكاسير. فإن انتظار الصحة بطالة.

• [٤٣٨] نقلت من خطه، رضي الله عنه:

هذه كلمات لنفسي ولغيري مما أرجو النفع بها إن شاء الله تعالى:
مجامع السعادة في سبعة أشياء: الدين، والعلم، والعقل والأدب، وحسن السمعة، والتودد إلى الناس، ورفع الكلفة عنهم.

[٤٣٩] أما الدين: فهو أصل سعادة الدنيا والآخرة، والهداية من الله تعالى وتوفيقه، والعبد مأمور باكتساب ذلك من أسبابه. «وإن لربكم في أيام دهركم نفحات، ألا فتعرضوا لها». وبالدين يصلح القلب، بالإيمان والمعارف الإلهية، والأحوال السنية، ويصلح اللسان بالإسلام والصدق، وقول الحق، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والعقود الصحيحة، وحفظه عما سوى ذلك، وعن الغيبة والنميمة، وتصلح بقية الجوارح بالقيام بالطاعات، واجتناب المحرمات من الصغائر والكبائر، الموبقات وغير الموبقات، وكل أحد مطلوب بذلك، وإنما يحصل بهداية الله تعالى.

[٤٤٠] وأما العلم: فمن الناس من لا ذهن له، فلا يكلف بذلك، ويكفيه العلم بما يصلحه من أمر الدين، وتعاطيه أسباب الزيادة على ذلك كضرب في حديد بارد.
ومن الناس من له ذهن، فحق عليه أن يستعمله في علم ينتفع به في الدنيا والآخرة، بقدر ما يحتمله ذهنه، فمن مُقِلّ ومن مكثر، على حسب احتمال ذهنه.
ومن كان له ذهن وضيع وقته بلا اشتغال بعلم، فقد خسر خسراناً مبيناً، ويندم حيث لا ينفعه الندم:

إذا أنت لم تزرع وأبصرت حاصداً ... ندمت على التفريط في زمن البذر

فمَن له ذهن وهو شاب يغتنم ذهنه وشبابه وصحته وفراغه، في علم يحيا به في الدنيا والاخرة، فعن قريب يَكِلّ ذهنه ويشيخ ويمرض، ويشتغل بعوارض تصده، ويقول: ياليتني.

[٤٤١] وفي الأمرين: الدين والعلم يحتاج إلى شيخ يُسلّكِه ويربيه، والحاجة إلى شيخ في الدين في كثير من الناس، وقد يُستغنى عنه في بعضهم ممن يتولى الله هدايته. وأما العلم فالذي دلت التجربة عليه أن الشيخ ضروري فيه، لابد منه، وانتفاع الطالب به بحسب استعداده وقبوله، فمن لا استعداد له لا ينتفع به، ومن له استعداد وأقبل بقلبه عليه انتفع به، بقدر استعداد وقبوله، فإن قلب الطالب كالمرآة، وكلام الشيخ كالصورة، فبقدر صقال المرآة ومقابلتها للصورة ينطبع ويظهر مثالها فيها.
وإذا وجد الاستعداد والقبول من الطالب، بقي الانطباع على قدر إلقاء الشيخ، وهو متقارب أيضاً تقارباً

ظاهراً في أمرين: أحدهما بحسب زيادة علمه ونقصه، فكم بين تعليم الشافعي وتعليم الواحد منا. والثاني بحسب نصح الشيخ ومحبته للطالب، وحنوه عليه حتى يأخذه بكلتا يديه، وكلما أحب الشيخ الطالب أقبل عليه بمجامع قلبه، وألقى إليه أفلاذ علمه، ورباه بصغاره قبل كباره.

والشيخ كالأب، يربي الطالب كما يربي الأب ابنه، فإن اتفق أن يكون الشيخ أباً، فيجتمع فيه أبوة الروح وأبوة الجسم، فتكمل المحبة والنصيحة والاجتهاد.

• [٤٤٢] والنجباء من أولاد العلماء قليل في الصحابة: عبدالله بن عمر، وعبدالله بن عباس، وعبدالله بن عمرو بن العاص، وعبدالله بن الزبير، والحسن والحسين ابنا علي ابن أبي طالب والنعمان بن بشير وغيرهم، وفي التابعين: سعيد بن المسيب، وعروة بن الزبير، وعبيد الله بن عبدالله بن عتبة، وخارجة بن زيد بن ثابت، وغيرهم.

ويليهم: عبدالرحمن بن القاسم، وابن طاوس، وغيرهما.

وبعد الأئمة: ابن الشافعي، وعبدالله بن أحمد، والصعلوكي من أصحابنا، وإمام الحرمين، والروياني، وغيرهم.

وإنما لم تكثر النجباء من أبناء العلماء؛ لأن العلماء مشتغلون بعلمهم وتكميل أنفسهم، فلا يتفرغون لتكميل أولادهم، فمن كان من أولادهم فيه فطنة وذكاء، ورزق توفيقاً حتى يقبل بقلبه على والده، حصل له خير كثير، كهؤلاء الذين عددناهم، وكان ذلك أسهل عليه وأيسر، فكم بين من يأتي إلى باب شيخ يتوسده حتى يخرج فيسأل منه مسألة، وبين من هو عنده صباحاً ومساءً، وفي حجره ومعه حال يقظته ونومه، ويود له الخير أكثر من نفسه، ولكنه يحتاج إلى محرك، كما قيل:

أعنت الشيخ بالسؤال تجده ... سلساً في يديك بالراحتين
وإذا لم تصح صياح الثكالى ... رحت عنه وأنت صفر اليدين

[٤٤٣] وأما العقل: فبه تنال سعادة الدنيا والآخرة.

والعقل نوعان: مطبوع ومكتسب، فمن سلب المطبوع، والعياذ بالله، لا كلام معه، ومن رزق المطبوع وبصيرةً يميز بها، فحق عليه أن يكتسب كل يوم، بل كل لحظة، عقلاً جديداً من مثله ومن أكبر منه ومن أصغر، ففي كل رأس حكمة، وعند كل أحد رأي وفائدة، ويتولد من الرأيين رأيٌ أعلا منهما، كما تتولد النتيجة من مقدمتين.

ويتفاوت الناس في العقول تفاوتاً لا نهاية له، والعاقل دائماً في زيادة، وبالعقل تنال الدنيا والآخرة، فإن العاقل لا يسعى إلا في مَرَمَّةٍ لمعاش، أو صلاحٍ لمعاد، ولا خير فيما سوى هذين، فحفظ دنياه لمرمةِ معاشه، وحفظ دينه لصلاح معاده.

وإذا سمع كلمة يميز بعقله في معناها، وعاقبة العمل بها، فإن ميز بعقله تمييزاً صحيحاً أنها صواب،

قبلها، وإن ميز بعقله تمييزاً صحيحاً أنها خطأ، ردها، وإن تردد تأمل وتأنى على نفسه، ولا يستعجل برد أو قبول حتى يتبين له، وإن أبهم عليه الحال، وتحقق نصح الملقي إليه تلك الكلمة، وعلمه ودينه، قبلها مع التردد، ولأن حاله يقتضي تقليده فيها، لدينه وعلمه ونصيحته ومحبته، وإن شك في ذلك توقف.

[٤٤٤] وأما الأدب: فبه ينال العلم والدين والسعادة. والأدب مع الله تعالى، ومع رسله وملائكته والعلماء والأولياء والملوك وولاة الأمور، والأكابر والأقران، والصغير، والكبير، والحر والعبد، في القول والفعل، والجلوس والقيام، والإنصات والاستماع، وحسن المخاطبة، واستصغار نفسه، واستعظام غيره.

[٤٤٥] وأما حسن السمعة: فإن بها حفظ دنياه وآخرته، ومتى ساءت سمعته فسدت عليه دنياه، وقد يكون ذلك سبباً في فساد آخرته.

والطريق إلى حسن السمعة أنه مع جودته في نفسه يتجنب مظان التهم ومحال الريب، ومعاشرة الأسقاط والأدنياء وأهل الريبة، وأن يصون نفسه ما أمكنه، ولا يُرى بارزاً إلا بقدر الحاجة، فمن عاشر قوماً عد منهم وإن كان بريئاً.

وقد أنشدني الشيخ تقي الدين الشهير الصائغ، قال: أنشدنا أمين الدين المحلي لنفسه:

عليك بأرباب الصدور فمن غدا ... جليساً لأرباب الصدور تصدرا
وإياك أن ترضى صحابة ناقص ... فتنحط قدراً عن علاك وتحقرا

وقد قيل: لا ينبغي للعالم أن يكون خراجاً ولاجاً، فإن من أكثر الاجتماع بالناس، هان قدره عندهم، ومن خرج من بيته عرض نفسه لكل بلاء، والسلامة في العزلة، وليتأدب بقوله ﷺ: «وليسعك بيتك».

ومن الكتب التي رويناها «رسالة في السكوت ولزوم البيوت».

ورأينا كثيراً من الناس اعتزلوا الناس فسلموا من أذاهم، وإن كانوا على ما لا يجب، ورأينا كثيراً خالطوهم فنسبوا إلى مالا ينبغي وإن كانوا براء.

[٤٤٦] وأما موادة الناس: فهي نصف العقل، وتجلب كل خير، لكن تكون بقدر، فلا يذل نفسه بحيث يطرحها، ولا يشمخ بأنفه، بل يكون حسنة بين سيئتين.

[٤٤٧] وأما رفع الكلفة عنهم: فلئلا يثقل عليهم، فإن من كلف الناس ثقل عليهم، ولا يزال الرجل صاحبك حتى تطلب منه ما يثقل عليه فيكرهك ويبغضك، فمن استطاع أن لا يكلف أحداً شيئاً، لا ما يثقل عليه ولا ما يخف عليه، فليفعلن فإنه يكون بذلك عزيزاً عليهم، محترماً في صدورهم.

فإذا فعل العبد هذه السبعة فقد فعل ما في وسعه، وتبقى السعادة بعد ذلك من الله تعالى.

على المرء أن يسعى لما فيه نفعه ... وليس عليه أن يطاوعه الدهر

توفي رحمه الله سنة ٧٥٦هـ بالقاهرة[1].

علاء الدين الباجي

علي بن محمد بن عبدالرحمن بن خطاب، إمام الأصوليين في زمانه، وفارس ميدانه، كان من الأوابين المتقين، فقيهاً متقناً.

[٤٤٩] وكان بينه وبين الشيخ محي الدين النووي صداقة وصحبة ومحبة أكيدة. مولده سنة إحدى وثلاثين وستمائة، ولما رآه ابن تيمية عظّمه، ولم يجر بين يده بلفظةٍ، فأخذ الشيخ علاء الدين يقول: تكلم نبحث معك، وابن تيمية يقول: مثلي لايتكلم بين يديك، أنا وظيفتي الاستفادة منك.

اللهم لا تكل تدبيرنا إلى أنفسنا، ودبرنا بتدبيرك الحسن الجميل، يارب العالمين.

[٤٤٨] وجدت بخطه: العباد مظاهر أفعال الرب سبحانه وتعالى، وفيها حكم يعتبر بها العاقل، من الناس من تحسن إليه فيحسن إليك، وذلك مكافأة، ومنهم من تسئ إليه فيسئ إليك، وهو كذلك لا يتعجب منه، ورأينا منهم كثيراً من تحسن إليه فيسئ إليك، ومن لا تحسن إليه فيحسن إليك.

وكنت أتعجب من ذلك، حتى لمحت فيه أن في ذلك تنبيهاً من الله للعبد، بتجرده عن نفسه، وأن يعلق قلبه بالله، فإنك إذا أحسنت إلى شخص، ولا سيما إذا أكثرت الإحسان إليه، ففي الغالب أنك تقصد اتخاذه صديقاً ينفعك في الشدائد، وذلك لحظ لا لله، فيقطع بك ذلك الشخص أحوج ما تكون إليه، ويسئ إليك موضع الإحسان، ليعرفك الله بذلك أن الإحسان منه، أجراه على يدك، لا منك، ويسوق إليك إحساناً على من ليس بينك وبينه مودة، لتعلم أن النعمة من الله.

فتنبه أيها العبد لذلك، واشكر نعم الله في الحالتين، واشكر أيضاً من أحسن إليك، فلا يشكر الله من لا يشكر= =الناس، وقد كان على يده الخير لك، ولا تذم من أساء إليك، بل ادع له، فقد كان ما جرى منه من الإساءة سبباً لتيقظك ورجوعك إلى ربك، وتلك نعمة كان هو سببها، فاشكره عليها بعد شكر الله تعالى الذي سببها.

(١) طبقات الشافعية الكبرى: ١٠/١٣٩-٢٣٨.

• [٤٥٠] أنشدنا الشيخ ناصر الدين محمد بن محمود البساسي المنجد ، وهو من أخصاء الشيخ الباجي ، قال : أنشدنا شيخنا علاء الدين من لفظه لنفسه :

يقول أضعف العبيد الراجي ... مغفرة علي بن الباجي
الحمد لله على التوفيق ... لفهم ما ألهم من تحقيق
وكم له من نعمة وجود ... أوله إفاضة الوجود
ثم الصلاة والسلام الأبدي ... على النبي المصطفى محمد
وآله وصحبه وعترته ... والتابعين بعدهم لسنته
اعلم فدتك النفس ياحبيب ... أن السعيد العالم الأديب
وهو الذي حوى العلوم كلها ... وفَكَّ مشكلاتها وحلها
كالفقه والأصلين والتوريث ... والنحو والتصريف والحديث
والعلم بالتفسير والمعاني ... ومنطق الأمين والبيان
والبحث واللغات والإخبار ... عن قصص الماضين في الأعصار
والطب للأبدان والقلوب ... وكل علم نافع مطلوب
واسْتَثْبَتَ المنقولَ منها ضابطاً ... وحقق البرهان والمغالطا
وسار في مسالك العقول ... على الطريق الواضح المعقول
فحقق الأصول والفروعا ... مقيسها العقليَّ والمسموعا
وانقاد طائعاً لأمر الشرع ... في حكم أصل دينه والفرع
مجتهداً في طاعة الرحمن ... بالقول والفعل وبالجنان
مُكَمِّلَ الإيمان بالإحسان ... إلى جميع الإنس والحيوان

كيمـا يحـوز الفـوز بالجنـان وحورهـا العـين وبالوِلـدان
وكـل مـا لم تـره العينـان وكـل مـا لم تـسمع الأذنـان
[٤٥١] فـانهض بإقـدامٍ علـى الأقـدام إن كنـت للعليـاء ذا مـرام
وشمِّـر الـساق عـن اجتهـاد مثـل اجتهـاد الـسادة العبـاد
واسـتنهض الهمـةَ في التحـصيل مـن كـل شـيخ عـالم فـضيل
وارحـل إلى مـن يـستحق الرِّحلَـهْ خلـف الفـرات أو وراء الدجلـهْ
حيـث انتهـت أخبـاره إليكـا فقـصده محـتم عليكـا
واطـرح رداء الكـبر عـن عِطْفَيْكـا وقـل لـداعي العلـم يالبيكـا
واسـع إليـه ماشـياً أو راكبـاً كمـا اسـتطعت للتقـى مـصاحباً
تـضع لـك الأمـلاك مـن رضـاها أجنحـةً وكـم كـذا سـواها
مـن سـنة دلـت علـى التفـضيل وآيـةٍ في محكـم التنزيـل
كإنمـا يخـشى وخـذ موزونـا هـل يـستوي الـذين يعلمونـا[1]
وتـوج العلـم بتـاج العمـل مـزين بحَلْيـه والحُلَـل
فإنـه لـه علـى الفحـول مـن الرجـال خِلعـةُ النحـول
مـن سَـهِر الليـل علـى الأقـدام بـين يـدي مُـصوِّرِ الأنـام
وإنـه المقـصود بـالعلوم عنـد ذوي الفطنـة والفهـوم
[٤٥٢] وأخلـص النيـة في الأعمـال لـصانع العـالم ذي الجـلال
فإنمـا الأعمـال بالنيـات وكونهـا لله خالـصات

---

(١) أي كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾.

وليس يرضى ربنا عِبَادَةْ … أشركت فيها معه عِبَادَهْ
فوحد القصد بها لله … ولا تكن عن قصده باللاهي
[٤٥٣] واعمر بذكر الله قلباً خالياً … من غيره تنل مقاماً عالياً
يذكرك في الأملاك فوق الفوق … فانتهز الفرصة ياذا الشوق
[٤٥٤] واغتنم الصلاة في الدياجى … إن المصلّي ربه يناجي
ودقَّ بالجبهةِ وجهَ الأرض … في الصلوات النفل بعد الفرض
يحببك ربي وتنل بحبه … ما في الحديث من عطاء قربه
وما أجل ذا المقام وقتا … حتى تجله وأنت أنتا
فذا المقامُ فهمُه يهول … تعجز عن تحقيقه العقول
[٤٥٥] وقد علمتَ شطحةَ الحَلَّاجِ في … مقاله فإثره لا تقتفِ
إن الطريق همةٌ وحال … تُثَمِّرها الأعمالُ لا المقالُ
واسلك طريق العلم والأعمالِ … كلاهما محقق الآمالِ
هما طريق الفوزِ لا محاله … يسلكها مشايخ الرسالة
كالليث والجنيد والدِّينَوَرِي … والعَجَمِيّ والسَّرِي والثوْري
جواهر الرجال في الوجود … بعد النبيين لدى المعبود
تفز بأعلى الأجر والأحوالِ … وأوضح الفُتُوح للرجال
وربَّما نلتَ المقامَ العالي … بالكشف والتفريق بالمقال
كذا أتى عن سالكي الطريقه … وكن بذاك مؤمناً حقيقة
[٤٥٦] إذ مذهب السنة وهو الأحسن … أن كرامات الولي تمكن
لأنها وإن تكن كالمعجزة … فالخرق بالتقييد عنها مُحْرِزَة

فيهـــا التحـــدي دائمـــاً معـــدوم وذاك فَـــرْق واضـــح معلـــوم
وكثـــرةُ الأخبـــار عنهـــا مانعـــه كِـذْبَ الجميع فهـي حتمـاً واقعـه
وهـــــذه طريقـــــة ظريفـــــة ليـــست ســـخيفة ولا ضـــعيفه
كنـــسب إتيـــانِ الـــسَّخا لحـــاتم بكثـــرة الأخبـــار بالمكـــارم
وقـــد أتـــى بنقلـــها الكتـــاب واتَّـــضح الباطـــل والـــصواب
كقـــصة الخـــضر مـــع الكلـــيم تحـــوي كرامـــات فخـــذ تفهيمـــي
مواهـــب تـــصدر عـــن كـــريم وعـــن قـــدير عـــالم حكـــيم
أسْـــعَد مـــن أراد بالتقـــديم بفـــضلهِ في حكمـــه القـــديم
ســـبحان مـــن أنعـــم بـــالتكريم وقربـــه وفـــضله العمـــيم
ومـــا حكـــى مـــن قـــصةٍ لمريمـــاً وأنـــه يرزُقُهـــا تَكَرُّمـــاً
يـــأتي إليهـــا كـــل وقـــت رزق مـــن عـــالم الغيـــب وذاك صِـدْقُ
فهـــل بقـــى للاعتـــزال مـــستندْ مـــن بعـــد مـــا بينتـــه فيُعْتَمَـــدْ(١)
وجـــاء في الآثـــار أيـــضاً عـــن عمـــر مـــن ذاك مـــا بـــين الـــرواة قـــد ظَهـــر
صـــياحُه بمنـــبر المدينـــة الجبـــل اقـــصده تجـــد كَمِينَـــه
يريـــد إرشـــادَ الأمـــير ســـارية إلى مكايـــدِ الأســـودِ الـــضَّارية
وفي نهاونـــدَ أتـــاه الـــصوتُ وكـــاد لـــولاه يكـــونُ الفَـــوْتُ
فأسَـــرعَ الأمـــير بالـــسرِيَّة ممتثـــلَ الأوامـــر المرضِـــيَّة
فـــأدركوا الكمـــينَ خلـــف الجبـــل فاستأصـــلوه بالقنـــا والأَسَـــل
وفـــاز حـــزب الله بالغنـــائم وامتلـــت الفلاة بالجمـــاجـــم

---

(١) وذلك لأن المعتزلة ينكرون الكرامات.

وذاك فيــه الكــشف والتــصريف العلــم والأسمــاع يــا ظريــف
جــل الإلــه مظهــر العجائــب علــى يــدي عبيــده الحبائــب
مــن جــاءه يمــشي أتــاه هرولــة بــرغم أنــف ســائر المعتزلــة
ينيـــل أوليـــاءه الآمـــالا وفوقهـــا مــن يــده تعــالى
[٤٥٧] .... وهـــذه لعمـــرك الـــسعادة
لا الجــاه والبنــون والأمــوال والخيــل والحمــير والبغــال
جميعهــا علــى الفتــى وبــال ومنتهاهـــا أبـــداً زوال
لـــذاتها مـــشوبة بـــالألم نعيمهـــا مكـــدر بـــالنقم
فَحَـلَّ مـا مـن بَعْـدُ مـن حساب ومــن عقــاب فيــه أو عتــاب
بــل مــن ســؤال منكــر في القــبر ومــن مواقــف ليــوم الحــشر
وخِفَّـــةِ الميـــزان بالأعمـــال وخــوف دقــة الــصراط العــالي
وهَــوْلِ أحــوالِ لظــى نــيران نعــوذُ بــالله مــن الخُــسْران
نــسأل رب العــرش والعبــاد بالمــصطفى الهــادي إلى الرشــاد
إلهامنـــا طرائـــق الـــسداد مــن قــول أو فعــل أو اعتقــاد
وعفـــوه لنـــا وللأجـــداد وســـائر الأهلـــين والأولاد
والمـــسلمين حـــيهم والغـــادي تحــت الثــرى في بــاطن الألحــاد
مــن كــل ذنــب ســالف وآت برحمـــة منـــه إلى الممـــات
فإنَّـــهُ لمرجـــو والمـــأمول والملتجـــي إليـــه والمـــسؤول
لا راحــم ســواه قَــطُّ يُقْــصَد ولا إلــه غــيره فيعبــد
[٤٥٨] كــلٌّ إلى رحمتــه فقــير وفي يـــدي عقابـــه أســـير

في كـل ممكـن لـه تقـدير وهـو بـه وغـيره خـبير
وهـو علـى مـا شـاءه قـدير والنفـع والـضر بـه يـصير
لا مـشبه لـه ولا نظـير ولا شـريك لا ولا وزيـر
فـرد قـديم واجـب بالـذات منـزه بالـذات والـصفات
أرسـل خـير الخلـق في الآفـاق مكمـلاً مكـارم الأخـلاق
محمـداً خـاتم رسـل ربنـا مبـشراً ومنـذراً ومحـسناً
صـلى عليـه ربنـا وسـلماً مـالاح فجـر طـالع وكرمـاً
وآلـه وصـحبه الأخيـار الطيـبين الـسادة الأطهـار

توفي بالقاهرة في سادس ذي القعدة سنة أربع عشرة سبعمائة.[1]

جملة من الفوائد المتناثرة[2]

[٤٥٩] حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب الأصم، قال: سمعت الحسن بن إسحاق بن يزيد العطار يقول: كنا خارجين من مصر إلى إفريقية في البحر، فركدت علينا الريح فأرسينا إلى موضع، يقال له: اسطرون، وكان معنا صبي سَقْلَبيّ، يقال له: أيمن، وكان معه شِصٌ يصطاد به السمك، قال: فاصطاد سمكة نحواً من شبر أو أقل، قال: وكان على ضفة أُذُنها اليمنى مكتوب: لا إله إلا الله، وعلى قذالها وضفة أُذُنها اليسرى: محمد رسول الله. قال: وكان أبين من نقش على حجر. قال: وكانت السمكة

(١) «طبقات الشافعية الكبرى»: ١٠/٣٣٩-٣٦٦.

(٢)هذه جملة من الفوائد المتناثرة وضعها المصنف في المقدمة وفي ثنايا الكتاب ، لايجمعها جامع رأيت أن أضعها في آخر الكتاب.

بيضاء، والكتاب أسود، كأنه كتاب بحبر، قال: فقذفناها في البحر، ومنع الناس أن يتصيدوا من ذلك الموضع، حتى أوغلنا.(١)

[٤٦٠] وعن سعد الزنجاني، قال: كان بمصر رجل زاهد، يقال له أبو سعيد الخياط، وكان لا يختلط بالناس، ثم داوم على حضور مجلس ابن رشيق، فسئل عن ذلك فقال: رأيت النبي ﷺ في المنام، فقال: احضر مجلسه، فإنه يكثر فيه الصلاة علي.

[٤٦١] رُئِيَ بعض أصحاب الحديث في المنام، يقول: غفر لي ربي بصلاتي في كتبي علي النبي ﷺ.(٢)

[٤٦٢] قال ابن بيان الأصبهاني: رأيت رسول الله ﷺ في المنام، فقلت: يا رسول الله؛ محمد بن إدريس الشافعي ابن عمك، هل خصصته بشيء، أو هل نفعته بشيء؟ قال: «نعم، سألت الله أن لا يحاسبه»، فقلت: يا رسول الله، بم؟ قال: «لأنه كان يُصلّي عليَّ صلاةً لم يصل عليَّ أحد مثلها» قلت: فما تلك الصلاة؟ قال: «كان يقول: اللهم صل على محمد كلما ذكره الذاكرون، وصل على محمد كلما غفل عن ذكره الغافلون»(٣).

[٤٦٣] روى الزبير بن بكار: أن الخنساء بنت عمرو بن الشريد السلمية في بنين لها أربعة، شهدت معهم حرب القادسية، فقالت لهم: إنكم أسلمتم طائعين، وهاجرتم مختارين وذكرت من صونها لبنيها، وعدم خيانتها لأبيهم ما ذكرت،

(١) طبقات الشافعية الكبرى: ١/١٥٠

(٢) طبقات الشافعية الكبرى: ١/١٨٠.

(٣) الطبقات الشافعية الكبرى: ١/١٨٨.

ثـم قالـت لهـم : وقـد تعلمـون مـا أعـد الله لكـم مـن الثـواب الجزيـل في حـرب الكافرين ، واعلموا أن الدار الباقية خير من الدار الفانية ؛ فإذا أصبحتم غداً إن شاء الله سالمين ، فاغدوا إلى قتال عدوكم مستبصرين ، وبالله على أعدائه مستنصرين ، فإذا رأيتم الحرب قد شمرت عن ساقها ، واضطرب لظاها على سياقها ، وجلت ناراً على أرواقها[1] ، فتيمموا وطيسها ، وجالدوا رئيسها عند احتدام خميسها تظفروا بالمغنم والكرامة ، في دار الخلد والمقامة.

فخرج بنوها قابلين لنصحها ، فلما أضاء لهم الصبح باكروا مراكزهم ، وأنشأ أولهم يقول :

يا إخوتي إن العجوز الناصحَةْ ... قد نصحتنا إذ دعتنا البارحةْ
مقالة ذات بيان واضحةْ ... فباكروا الحرب الضروس الكالحةْ
وإنما تلقون عند الصائحةْ ... من آل ساسان كلاباً نابحةْ
قد أيقنوا منكم بوقع الجائحةْ ... وأنتم بين حياة صالحةْ
أو ميتةٍ تورث غُنماً صالحةْ

وتقدم فقاتل حتى قتل رحمه الله تعالى ، ثم تقدم الثاني وهو يقول :

إن العجوز ذات حزم وجلد ... والنظر الأوفق والرأي الأسَد
قد أمرتنا بالسداد والرَّشَدْ ... نصيحة منها وبراً بالولد
فباكروا الحرب حماة في العدد ... إما لفوز بارد على الكبد
أو ميتةٍ تورثكم غُنم الأبد ... في جنة الفردوس والعيشِ الرَّغَد

فقاتل حتى استشهد رحمه الله تعالى ، ثم تقدم الثالث وهو يقول :

---

(١) أي جوانبها ، تريد اشتداد الحرب واحتدامها.

والله لا نعصي العجوز حرفاً قد أمرتْنا حَدَباً وعطفاً
نصحاً وبراً صادقاً ولطفاً فبادروا الحرب الضروس زحفاً
حتى تلفُّوا آل كسرى لفّاً وتكشفوهم عن حماكم كشفاً

فقاتل حتى استشهد رحمه الله تعالى، وحمل الرابع وهو يقول:

لستُ لخنسا ولا للأخْرَمِ ولا لعمرو ذى السناءِ الأقدم
إن لم أَرُدْ في الجيش جيش العجمِ ماض على الهول خِضمِ خِضْرمِ
إما لفوز عاجل ومغنم أو لوفاة في السبيل الأكرم

فقاتل حتى قتل رحمه الله تعالى. فبلغ خبرهم الخنساء أمهم، فقالت: الحمد لله الذي شرفني بقتلهم، وأرجو من ربي أن يجمعني بهم في مستقر رحمته. فكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يعطي الخنساء بعد ذلك أرزاق أولادها الأربعة، لكل واحد منهم مائتي درهم(١).

[٤٦٤] قال أبو حسان العباسي: وقفت علينا جارية ونحن بالرَّبَذة(٢) وعلى وجهها برقع، فقالت: يا معشر الحجيج، نفر من عُكْل ذهب بنعيمهم السيل، وشَرَستْ عليهم الأيام جَدباً جَدبْاً، حتى ما بهم قُعْدة(٣) ولا نعجة فمن يراقب فيهم الدار الآخرة، ويعرف لهم حق الآصرة جُزِي خيراً.

قال: فرضخنا لها(٤)، وقلنا لها: هل قلت في سوء حالكم شعراً.

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى: ١/٢٦٠، ٢٦١

(٢)من قرى المدينة.

(٣)القعدة - كالقعود من الإبل- : ما يقتعده الراعي في كل حاجة.

(٤) أي فأعطيناها.

قالت: نعم، ثم أنشأت تقول:

كفُّ الزمان عليها الصبرُ والصابُ شـلـتْ أناملـهـا عـن الأعـراب
قـوم إذا لجـأ العفـاةُ إلـيـهمُ أعطـوا نوافلـهم بغـير حـساب

قلت: فأمتعينا بالنظر إلى وجهك. فكشفت البرقع عن وجه لا تهتدي القلوب لحسن وصفها، ثم أنشأت تقول:

الـدهرُ أبـدى صفحة قـد صانها أبـواي قبـل تغيّـر الأيـام
فتمتعـوا بعيـونكم في حـسنِها وانهـوا جَوارحَكم عـن الآثـام

فكان شعرها مما زادني فيها رغبة، فقلت: ويحك! هل لك فيمن يغنيك، ويغني حيك.

فقالت: والله ما نحن أكثر من خمسة نفر. أنا وأم وأختان وأخ لم ييفع بعد، وفي رزق الله لجميع خلقه غني عن اتّباعه ببيع الأنفس.

قلت: ويحك! هذا التزويج الذي أحله الله، وأنا ابن عم نبي الله ﷺ، ومالي لا يضبطه الحساب كثرة.

قالت: إن في جمالك غنىً عن مالك، وإن فيها بُعداً لنهاية الأمل، ولكن لست ممن يضمهن إلى الرجال الجمال وكثرة المال.

قلت: فنصيبُك يخلِّصك من الفقر الذي أنتم فيه.

قالت: والله لأكل القديد أهون من الانخفاض لمن يمن بماله على من ليس له مثل حاله، ومالي لا أكون كالزباء بنتُ عمير بن المورق! قيل لها: لو تزوجت في عنفوان شبابك، وصفو جمالك لعلمتِ لذةَ الحياة. قالت: والله لأعيش في غير بدني، لم تملكني يد ذي مال، ولا صرعتني الرغبة في الرجال، أحب إلي

من ملك الأرض، وخزائن الخلق، ثم أنشأت تقول:

أمن بعد أن أمسي وأصبحُ حرةً ... وليس عليٌّ للرجال يدانِ

أُصيِّر لزوجٍ مثل مملوكةٍ له ... لبئسَ إذاً ما يكتبُ الملكانِ

لَعيشٌ بضرٍ أو بضنكٍ وحاجةٍ ... مع العزِّ خير من صُرُوفِ لسانِ

فثكلتني أمي إن لم أكن مثلها في عز النفس، وكرم الخيم[1]

قال: فقلت ما ظننت أن امرأة من الأرض ترغب عن الرجال!

قالت: بأبي وأمي، فاجعل ظنك يقيناً، فوالذي خلقني لقد خطبني عشرة نفر، ما منهم دونك في الحسن والجمال وحسن الخلق، فما مالت نفسي إلى واحد منهم، رغبة مني عن ذلك النتّاج وتسلط الأزواج، ثم ولت كأن لم يكن بيني وبينها كلام[2].

[٤٦٥] وعن أبي بكرة: وقف أعرابي على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقال:

يا عمرَ الخيرِ جُزيتَ الجنّة ... أُكْسُ بُنَيَّاتِي وأُمَّهنه

أُقْسِمُ بالله لتفعلنَّه

فقال عمر: وإن لم أفعل يكون ماذا؟ فقال:

إذاً أبا حفص لأمضينهْ.

قال: فإن مضيت يكون ماذا؟ قال:

---

(١) الخِيم: الشمائل والصفات.

(٢) طبقات الشافعية الكبرى: ١/٢٦١- ٢٦٣.

والله عـــنهن لتـــسألنّهْ　　يـوم يكـونُ الأعطيـات ثَنّـةْ

أي: ثمة، أبدل الميم نوناً، وهي لغة.

والواقـف المـسئول يُنهَيَّنَّـهْ　　إمـا إلى نـارٍ وإمـا جنَّـةْ

فبكى عمر حتى اخضلت لحيته، وقال لغلامه: يا غلام، أعط قميصي هذا لذلك اليوم لا لشعره. ثم قال: والله لا أملك غيره[1].

[٤٦٦] كانت لعبدالله بن رواحة الأنصاري جارية، فاتهمته امرأته أن يكون أصابها، فقالت: إنك الآن جُنُب منها. فأنكر ذلك. فقالت: فإن كنت صادقاً فاقرأ القرآن، وقد عهدته لا يقرأ القرآن وهو جنب، فقال:

شـهدت بـأن وعـد الله حـقٌ　　وأن النـارَ مثـوى الكافرينـا

وأن العـرشَ فـوق المـاء طـافٍ　　وفـوق العـرش ربُّ العالمينـا

ويحملـه ثمانيـةٌ شِـدادٌ　　ملائكـةُ الإلـه مُـسوِّمينا

ما أحسن قول الإمام الرافعي في كتاب «الأمالي» وقد أورد هذه الأبيات: هذه الفوقية فوقية العظمة والاستغناء، في مقابلة صفة الموسومين بصفة العجز والفناء[2].

قلت: ولم يخرج هذا الأثر في شيء من الكتب الستة.

[٤٦٧] وقد اتفق نظير هذه الحكاية، فإن المدائني ذكر أن طائفاً من أهل خراسان لقي سكران بالكوفة، فأخذه وقال: أنت سكران. فأنكر، فقال: اقرأ حتى أسمع، فقال:

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى: ١/٢٦٤.

(٢) وهي فوقية حقيقية تليق بذات الله عز وجل.

ذكــرَ القلــبُ الرَّبابــا   بعــد مــا شــابتْ وشــابا
إنَّ ديــنَ الحــبِّ فــرض   لا تــرى فيــه ارتيابــا

فخلاه، وقال: قاتلكم الله، ما أقرأكم للقرآن صحاة وسكارى.

[٤٦٨] واعلم أن الأثر عن عبدالله بن رواحة رُوي على وجه آخر، وبشعر آخر، فرواه الدارقطني من حديث زَمْعة بن صالح، عن سلمة بن وَهْرام، عن عِكرمة، قال: كان عبدالله بن رواحة مضطجعاً إلى جنب امرأته، فقام إلى جارية له في ناحية الحجرة، فوقع عليها وفزِعت امرأته فلم تجده في مضجعه، فقامت فخرجت فرأته على جاريته، فرجعت إلى البيت فأخذت الشَّفرة، ثم خرجتْ، وفرغ فقام فلقيها تحمل الشفرة، فقال: مَهْيَم؟ قالت: لو أدركتُك حيث رأيتك لَوَجأتُ بين كتفيك بهذه الشَّفرة. قال: وأين رأيتيني، قالت: رأيتك على الجارية، قال: ما رأيتيني، وقد نهانا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقرأ أحدنا القرآن وهو جنب. قالت: فاقرأ. فقال:

أتانــا رســول الله يتلــو كتابَــهُ   كما لاح مشهودٌ من الفجرِ ساطعُ
أتى بالهدى بعد العمى فقلوبُنا   بـه موقنـاتٌ أنَّ مـا قـالَ واقـعُ
يبيـتُ يجـافي جنبـه عـن فراشِـهِ   إذا استثقلتْ بالمشركين المضاجعُ

فقالت: آمنت بالله، وكذبت البصر.

ثم غدا على رسول الله ﷺ فأخبره، فضحك حتى بدت نواجذه. كذا رواه الدراقطني مرسلاً[١].

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى: ١/٢٦٤-٢٦٦.

[٤٦٩] عن الأصمعي: حججتُ فبينما أنا أطوف ليلة حول البيت إذ أقبلت جاريتان، لم أرأحسن منهما، فطافتا سبعاً، ثم وقفتا تتحدثان، فنصتُّ إليهما، وإذا إحداهما تقول:

لا يقبل الله من معشوقة عملاً ... يوماً وعاشقها غضبان مهجورُ

فأجابتها الأخرى:

وليس يأجُرُها في قتل عاشقها ... لكنَّ عاشقها في ذاك مأجورُ

فقلت لهما: يا حزب الشيطان، في مثل هذا الموضع تقولان هذا القول! فنظرت إليّ إحداهما، فقالت: لا رهَقَك الحب، فقلت لها: وما الحب؟ فقالت: جل عن أن يخفى، وخَفِي عن أن يُرَى، فهو كامن في الأحشاء مثل كُمون النار في الحجر، إن قدحته أورى، وإن تركته توارى. فقلت لها: قاتلك الله ما أوصفَك للحب، فقالت: اسمع يا شيخ، نحن كما قال جرير:

حورٌ حرائر ما هممن بريبةٍ ... كظباء مكة صيدهُنَّ حرام
يُحْسَبْنَ من لين الحديث زوانيا ... ويصدُّهُنَّ عن الخنا الإسلام[1]

[٤٧٠] وروينا أن سعيد بن المسيب رضي الله عنه مر ببعض أزقة البصرة، فسمع قائلاً يقول:

تضوَّعَ مسكاً بطن نعمان إذ مشتْ ... به زينبٌ في نسوة خفراتِ
لها أَرَجٌ من مَجمَرِ الهند ساطعٌ ... تطلعُ رَيَّاه من الكَفِراتِ[2]

فضرب سعيد برجله الأرض، وقال: هذا والله يلذ سماعه، ثم قال:

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى: ١/٢٦٦

(٢) الكفرات: جمع كفر، وهو العظيم من الجبال.

يُخَبِّئْنَ أطراف البنان من التُقَى ويخرجن جنحَ الليلِ معتجراتِ

وليستْ كأخرى وسعت جيَب دِرْعها وأبدت بنان الكفِّ بالجمراتِ

وقامت ترائي يوم جَمْع فَأَفْتَنَتْ برؤيتها من راح مِن عرفاتِ

والأبيات لمحمد بن عبدالله النميري الشاعر. وزينب هي أخت الحجاج بن يوسف وفي الأبيات يقول:

ولما رأت ركب النّمَيري أعرضتْ وكُنَّ من أنَ يَلْقينَه حذراتِ

وكان النميري يشبب بها. وقيل: إنه هرب من الحجاج فطلبه، فلما أُتِي به ارتاع منه وقال: والله، أيها الأمير إن قلتُ إلا خيراً، وإنما قلت:

يخبئن أطراف البنان من التقى ويخرجن جنح الليل معتجراتِ

فعفى عنه وقال: أخبرني عن قولك: «ولما رأت ركب النميري» في كم كنت؟ قال: والله ما كنت إلا على حمار هزيل، ومعي صاحب لي على أتان مثله.

والكلمة المذكورة نحو عشرين بيتاً، وروي فيها أخبار كثيرة في أمر النميري والحجاج بن يوسف.

وقوله: «يخبئن» بالخاء المعجمة من الخبء، وفي القرآن: ﴿يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ﴾[(١)] وفي الحديث: «خبأت لك خبأ» ولفظ: «يخبئن» مضبوط كذلك في كامل المبرد، وغيره.[(٢)]

---

(١) سورة النمل: آية ٢٥

(٢) طبقات الشافعية الكبرى: ١/٢٦٧، ٢٦٨

[٤٧١] وروينا عن الزيادي، والهيثم بن عدي، قالا: نزل بامرأة رجل من العرب، والمرأة من بني عامر، فأكرمته وأحسنت قِراه؛ فلما أراد الرحيل تمثل ببيت يهجوها فيه:

لعمرك ما تبلى سرابيلُ عامرٍ　　من اللوم ما دامت عليها جلودُها

فلما أنشده، قالت لجاريتها: قولي له ألم تحسن إليك، وتفعل، وتفعل؟! هل رأيت تقصيراً؟ قال: لا. قالت: فما حملك على البيت. قال: جرى على لساني، فخرجت إليه جارية من بعض الأخبية، فحدثته حتى أنس واطمأن.

ثم قالت له: ممن أنت يا ابن عم؟

قال: رجل من بني تميم.

قالت: أتعرف الذي يقول:

تميم بطُرْقِ اللُؤْم أهدى من القَطَا　　ولو سلكتْ سبل المكارم ضلتِ

أرى الليل يجلوه النهار ولا أرى　　خلال المخازي عن تميم تجلتِ

ولو أن برغوثاً على ظهر قملة　　يكر على صَفَّيْ تميم لولتِ

ولو جمعتْ يوماً تميم جموعها　　على ذرة مربوطة لاستقلتِ

تميمٌ كجحش السوء يرضعُ أمه　　ويتبعُها بالرغم إن هي ولتِ

ذبحنا فسمَّينا على ما ذُبيحنا　　وما ذبحت يوماً تميم فسمَّتِ

قال: لا، والله ما أنا من تميم.

قالت: ما أقبح الكذب بأهله، فممن أنت؟

قال: رجل من بني ضَبَّة.

قالت: أفتعرف الذي يقول:

لقـد زرقـت عينـاكَ يـابن معكـبرٍ كمـا كـل ضـبي مـن اللـؤم أزرق

قال: لا ، والله ما أنا من بني ضبة.

قالت: فممن؟

قال: من بني عجل.

قالت: أفتعرف القائل:

أرى الناس يعطون الجزيـل وإنمـا عطـاء بـني عجـل ثـلاث وأربـع

إذا مـات عجلـيٌّ بـأرضٍ فإنمـا يخــط لــه فيهــا ذراع وإصــبع

قال: لا والله ما أنا من بني عجل.

قالت: فممن؟

قال: من الأزد.

قالت: أفتعرف القائل:

فمـا جزعـت أزديـةٌ مـن خِتانهـا ولا أكلت لحم القنيص المعقَّب(١)

ولا جاءهـا القنـاص بالـصيد في الخِبـا ولا شـربتْ في جلـد حـوت مُعَلَّـب

قال: لا ، والله ما أنا من الأزد.

قالت: فممن؟

قال: من بني عبس.

قالت: أفتعرف القائل:

---

(١) القنيص يطلق على الصائد والمصيد، انظر تاج العروس: ٤/ ٤٣٩ مادة (قنص).

إذا عبسّيةٌ ولدت غلاماً فبشرها بلؤم مستفاد

قال: لا، والله ما أنا من بني عبس.

قالت: فممن؟

قال: من بني فزارة.

قالت: أفتعرف القائل:

لا تأمننَّ فزارياً خلوتَ به على قَلُوصك واكتبها بأسيارِ[1]

قال: لا، والله ما أنا من بني فزارة.

قالت: فممن؟

قال: من بَجيلة.

قالت: أفتعرف القائل:

سألنا عن بجيلة حين جاءت لتخبر أين قرَّ بها القرارُ
فما تدري بجيلة إذ سألنا أقحطانٌ أبوها أم نِزارُ
فقد وقعت بجيلة بينَ بينٍ وقد خلعت كما خلع العِذارُ

قال: لا، والله ما أنا من بجيلة.

قالت: فممن؟

قال: من بني نمير.

قالت: أفتعرف القائل:

---

(١) أي واربط مؤخرتها بحبل، وذلك لأن بني فزارة رُموا بإتيان البهائم.

فغضَّ الطرف إنك من نُميرٍ فلا كعباً بلغت ولا كلابا
ولو وضِعتْ فِقاحُ بني نمير على خبث الحديد إذا لذابا

قال: لا، والله ما أنا من بني نمير.

قالت: فممن؟

قال: من بني باهلة.

قالت: أفتعرف القائل:

إذا نص الكرام إلى المعالي تنحى الباهلي عن الزحام
إذا ولدت حليلة باهليٍ غلاماً زيد في عدد اللئام
ولو كان الخليفة باهلياً لقصر عن مساماة الكرام
وعِرْض الباهلي وإن توقّى عليه مثل منديل الطعام

قال: لا، والله ما أنا من باهلة.

قالت: فمِمَّن؟

قال: من ثقيف.

قالت: أفتعرف القائل:

أضلُّ الناسبين لنا ثقيف فما لهم أب إلا الضلالُ
فإن نُسِبتْ أو انتسبتْ ثقيف إلى أحد فذاك هو المحالُ
خنازير الحشوش[1] فقاتلوهم فإن دماءَهم لكمُ حلالُ

---

(١) الحشوش: الكُنُف ومواضع قضاء الحاجة.

قال : لا ، والله ما أنا من ثقيف.

قالت : فمِمَّن؟

قال : من سليح.

قالت : أفتعرف القائل :

فإن سليحاً شتت الله شملها

قال : لا ، والله ما أنا من سليح.

قالت : فممن؟

قال : من خزاعة.

قالت : أفتعرف القائل :

إذا فخــرت خزاعــة في نَــدِيٍّ وجـدنا فخرهـا شـربَ الخمـور
وباعــتْ كعبـة الـرحمن جهـلاً بـزِقٍ بـئس مفتخـر الفجـورِ

قال : لا ، والله ما أنا من خزاعة.

قالت : فمِمَّن؟

قال : من بني يشكر.

قالت : أفتعرف القائل :

ويــشكر لا تــستطيع الوفــا ولــو رامـت الغـدر لم تغـدرِ
قبيلـــةُ عيـــشتُها في الكـــرى لئـــام المنـــاخرِ والعنـــصرِ

قال : لا ، والله ما أنا من يشكر.

قالت : فممن؟

قال : من بني أمية.

قالت : أفتعرف القائل :

وهي من أمية بنيانها فهان على الناس فُقْدانها
وكانت أمية فيما مضى جَرِيًّا على الله سلطانها
فلا آل حربٍ أطاعوا الإله ولم يتق الله مَرْوانها

قال : لا ، والله ما أنا من بني أمية.

قالت : فممن؟

قال : من عنزة.

قالت : أفتعرف القائل :

ما كنت أخشى وإن كان الزمان لنا زمان سوء بأن تغتابني عنزةْ
فلست من وائلٍ إن كنت ذا حذر ممن يضل كما قد ضلت الحَرْزَةْ[1]

قال : لا ، والله ما أنا من عنزة.

قالت : فممن؟

قال : من كندة.

قالت : أفتعرف القائل :

إذا ما افتخر الكندي ذو البهجة بالطُّرة[2]

---

(١) الحرزة : خيار المال. انظر المعجم الوسيط : ١/١٦٦.

(٢) الطرة : اسم الشيء المقطوع ، والطرة كُفّة الثوب ونحوه انظر المعجم الوسيط : ٢/٥٥٤ .

فـــدع كنـــدة للنـــسج فـــأعلا فخرهـــا غُـــرَّة

قال: لا، والله ما أنا من كندة.

قالت: فممن؟

قال: من بني أسد.

قالت: أفتعرف القائل:

إذا أســديةٌ بلغــت ذراعــاً فزوِّجهــا ولا تــأمن زِناهــا
وإن أســدية خــضبتْ يــديها ولمــا تــزن أشــرك والــداها

قال: لا، والله ما أنا من بني أسد.

قالت: فممن؟

قال: من هَمْدان.

قالت: أفتعرف القائل:

إذا هَمْــدان دارت يــوم حــربٍ رَحاهــا فــوق هامــات الرجــال
رأيــتُهم يحثــون المطايــا ســراعاً هــاربين مــن القتــالِ

قال: لا، والله ما أنا من همْدان.

قالت: فممن؟

قال: من نَهْد؟

قالت: أفتعرف القائل:

نهــد لئــام إذا مــا حــل ضــيفهمُ سودٌ وجوهُهم كالزفت والقارِ

والمستغيثُ بنهدٍ عند كربتهِ كالمستجير من الرمضاء بالنارِ

قال: لا، والله ما أنا من نهد.

قالت: فممن؟

قال: من قضاعة.

قالت: أفتعرف القائل:

لا يفخرن قضاعي بأسرتهِ فليس من يَمن محضاً ولا مضر
مذبذبين فلا قحطان والدهُم ولا نزار فسِّيبهم إلى سقر

قال: لا، والله ما أنا من قضاعة.

قالت: فممن؟

قال: من بني شيبان.

قالت: أفتعرف القائل:

شيبانُ رهطٌ لهم عديد وكلهم مُعْرِقٌ لئيم
شربهم من فضول ماء يفضل عن أسوةِ العميم

قال: لا والله ما أنا من شيبان.

قالت: فممن؟

قال: من تنوخ.

قالت: أفتعرف القائل:

إذا تنوخ قطعت مَنْهلا في طلب الغارات والثار

أتتْ من بحري مرار العلى   وشهرة في الأهل والجار[1]

قال: لا، والله ما أنا من تنوخ.

قالت: فممن؟

قال: من دُهْل.

قالت: أفتعرف القائل:

إن ذهْلاً لا يسعد الله ذُهْلاً   شرُّ جيل يظل تحت السماء

قال: لا، والله ما أنا من ذهل.

قالت: فممن؟

قال: من مزينة.

قالت: أفتعرف القائل:

وهل مزينة إلا من قبيلة   لا يرتجى كرم فيها ولا دين

قال: لا، والله ما أنا من مزينة.

قالت: فممن؟

قال: من النَّخَع.

قالت: أفتعرف القائل:

إذا النخَعُ اللئام عَدَوا جميعاً   تدكدكتِ الجبال من الزحام

وما يغنِي إذا صدقت فتيلاً   ولا هي في الصميم من الكرام

---

(١) كذا وردت في الأصل.

قال : لا ، والله ما أنا من النخع.

قالت : فممن؟

قال : منَ طيّ.

قالت : أفتعرف القائل :

وما طئ إلا نبيط تجمعتْ فقالواَ طيَايا كلمةً فاستمرتِ

ولو أن عصفوراً يمد جناحَه على دور طيٍ كلها لاستظلتِ

قال : لا ، والله ما أنا من طي.

قالت : فممن؟

قال : من عكّ.

قالت : أفتعرف القائل :

عكٌ لئامٌ كلهم أَبكُ ليس لهم من الملا فَكٌ(١)

قال : لا ، والله ما أنا من عك.

قالت : فممن؟

قال : من لخم.

قالت : أفتعرف القائل :

إذا ما احتبى قوم لفضل قديمهم تباعد فخر الجود عن لخم أجمعا

قال : لا ، والله ما أنا من لخم.

---

(١) أبك الرجل : أي كثر لحمه ، وبكه بكا : رد نخوته ووضعه ، أو دق عنقه.

قالت : فممن؟

قال : من جُذَام.

قالت : أفتعرف القائل :

إذا كـأس المـدام أُديـرَ يومـاً لمكرمـة تنحـى عـن جُـذامِ

قال : لا ، والله ما أنا من جذام.

قالت : فممن؟

قال : من كلب.

قالت : أفتعرف القائل :

فلا تقربن كلباً ولا باب دارها ولا يطمعن سارٍ يرى ضوء نارِها

قال : لا ، والله ما أنا من كلب.

قالت : فممن؟

قال : من بَلَقِينْ.

قالت : أفتعرف القائل :

إذا ما سألت اللؤم أين محلُّه تُصِبْ عندَ بلَقِين له طرفانِ

قال : لا ، والله ما أنا من بلقين.

قالت : فممن؟

قال : من بني الحارث بن كعب.

قالت : أفتعرف القائل :



حار بن كعب ألا أحلامَ تحجِزُكم عنا وأنت من الجوفِ الجماخيرِ (١)
لا عيب في القومِ من طولٍ ومن عظمٍ جسمُ البغال وأحلامُ العصافيرِ

قال : لا ، والله ما أنا من بني الحارث بن كعب.

قالت : فممن؟

قال : من بني سُلَيم.

قالت : أفتعرف القائل :

إذا ما سليمٌ جئتها في مُلِمةٍ رجعتَ كما قد جئت خزيان نادما

قال : لا ، والله ما أنا من سليم.

قالت : فممن؟

قال : من فارس.

قالت : أفتعرف القائل :

ألا قل لمُعْتَر وطالب حاجة يريدُ بنُجحٍ نفعها وقضاها
فلا تقرب الفرس اللئامَ فإنهم يردون مولاهم بخبثٍ دارها

قال : لا ، والله ما أنا من فارس.

قالت : فممن؟

قال : من الموالي.

---

(١) الجمخور : الأجوف الواسع الجوف. وفي هامش ج : جوف : جمع أجواف ، والجماخير – بالجيم ثم الخاء المعجمة : الغلاظ.

قالت: أفتعرف القائل:

ألا من أراد اللؤم والفحش والخنا فعنـد المـوالي الجيـدُ والكتفـانِ

قال: لا، والله ما أنا من الموالي.

قالت: فممن؟

قال: رجل من ولد حام.

قالت: أفتعرف القائل:

ولا تُنْكِحُـوا أولاد حـام فـإنهم مشاويه خلق الله حاشا ابنَ أكوع

قال: لا، والله ما أنا من حام.

قالت: فممن؟

قال: رجل من الشيطان الرجيم.

قالت: فعليك لعنة الله، وعلى الشيطان الرجيم، أفتعرف الذي يقول:

ألا يـا عبـادَ الله هـذا عـدوكم وذا ابـنُ عـدو الله إبلـيس خاسئاً

قال: الله! الله! أقيليني العثرة، فو الله ما ابتليت بمثلك قط.

فانظر نساء الأعراب وأدبهن، ولو أكثرنا في هذا لطال الخطاب، وفي شعر الخنساء وأنظارها ما يشهد لهن. وبالله التوفيق(١).

[٤٧٢] قال المبارك بن محمد بن الخوة: خرج رجل على سبيل الفرجة -يعني من بغداد- فقعد على الجسر، فأقبلت امرأة من جهة الرصافة، موجهة إلى الجانب

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى: ١/٢٦٨- ٢٧٩.

الغربي، فاستقبلها شاب، فقال لها: رحم الله علي بن الجهم. فقالت المرأة: رحم الله أبا العلاء المعري. وما وقفا ومرًّا مشرقة ومغرباً فتبعتُ المرأة، وقلت: إن لم تقولي ما قال لك فضحتك؛ وتعلقت بها فقالت: أراد الشاب قول علي بن الجهم:

عيون المها بين الرصافة والجسر جلبن الهوى من حيث أدري ولا أدري

وأردت أنا قول المعري:

فيا دارها بالحزن إن مزارها قريب ولكن دون ذلك أهوالُ

ذكرها ابن الجوزي في الأذكياء[1].

[٤٧٣] وذكر أن أبا بكر بن العربي رحمه الله قال: سمعت فتاة من بغداد تقول لجارتها: لو كان مذهب ابن عباس في الاستثناء صحيحاً لما قال الله تعالى لأيوب عليه السلام: ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ ﴾[2] بل كان يقول: «استثن» حكاه أبو العباس القرافي.

[٤٧٤] وحكى أن تاجراً سافر من مصر بعبدين، فأرادا قتله في الطريق، فقال لهما: قولا لبنتي إذا دخلتما مصر: قال لكما أبوكما:

مَنْ مبلغ بنتيَّ عني أنني لله دُرُّكما ودر أبيكُمَا

فحفظاه، ثم قتلاه ورجعا إلى مصر! فلما كان بعد مدة تذكرا وصيته، فجاءا إلى بيت بنتيه، فقالا لإحداهما البيت، فطلعت من باب الغرفة إلى عند أختها، فحكت لها الحكاية، فقالت: أواه، إن أبانا لمقتول. قالت: ومن أين لك؟ قالت: إنه يشير إلى قول الشاعر:

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى: ١/٢٧٩ .

(٢) سورة ص: آية ٤٤ .

مـن مبلـغٌ بـنتيَّ عـني أنـني ... أصبحت مقتول الفلاة مجندلاً
لله دركمـا ودر أبيكمـا ... لا يفلـت العبـدان حتـى يُقْـتلا

فأخذ العبدان، واستُقرا فأقرا بقتله. حكاه صاحب «بدائع البدايه»[1].

[٤٧٥] حج هشام بن عبدالملك في زمن عبدالملك، أو الوليد، فطاف بالبيت، فجهد أن يصل إلى الحجر فيستلمه، فلم يقدر عليه، فنصب له منبر، وجلس عليه ينظر إلى الناس، ومعه أهل الشام، إذ أقبل علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم، وكان من أحسن الناس وجهاً، وأطيبهم أرَجاً، فطاف بالبيت فلما بلغ الحجر تنحى له الناس؛ حتى يستلمه، فقال رجل من أهل الشام: من هذا الذي قد هابه الناس هذه الهيبة، فقال هشام: لا أعرفه. مخافة أن يرغب فيه أهل الشام، وكان الفرزدق حاضراً، فقال الفرزدق: لكني أعرفه. قال الشامي: من هو يا أبا فراس؟ فقال الفرزدق:

هذا الذي تعرف البطحاء وَطْأَته ... والبيتُ يعرف والحِلُّ والحرم
هـذا ابـن خـير عبـادِ الله كلـهم ... هـذا التقـي النقـي الطـاهر العَلَـم
إذا رأتـه قـريش قـال قائلـها ... إلى مكـارم هـذا ينتهـي الكـرم
ينمـي إلى ذروة العـز الـتي قـصُرتْ ... عـن نيلها عـربُ الإسـلام والعجـم
يكـاد يمسكه عرفـانَ راحتـه ... ركـن الحطيـمِ إذا مـا جـاء يستلمُ
يغضي حياء ويُغضي من مهابته ... فمـا يُكلَّـمُ إلا حـين يبتـسم
مَن جدُّهُ دان فضل الأنبياءِ له ... وفـضلُ أمتـهِ دانـت لـه الأمـم
ينشق نور الهدى عن نور غرته ... كالشمس ينجاب عن إشراقها القَتَمُ

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى: ١/٢٦٧-٢٨٠.

مشتقةٌ من رسول الله نبعته ... طابت عناره والخِيمُ والشيم[1]
هذا ابن فاطمةٍ إن كنت جاهله ... بجده أنبياء الله قد خُتِموُا
الله شَرَّفه قِدْماً وفضله ... جرى بذلك له في لوحِهِ القلمُ
فليس قولُك من هذا بضائره ... العُرْب تعرف من أنكرت والعجم
كِلتا يديه غياثٌ عم نفعهما ... يستو كفان ولا يعروهما العدم[2]
سهل الخليقة لا تُخْشى بوادره ... يزينه اثنان: حسنُ الخلق والكرم
حَمَّال أثقالِ أقوام إذا قُدِحُوا ... حلو الشمائل تَحْلو عنده نَعَم
لا يخلف الوعد ميمونٌ نقيبتُه ... رحب الفِناءِ أريبٌ حين يعتزم
ما قال لا قط إلاّ في تشهده ... لولا التشهدُ كانت لاؤُهُ نعمُ
عم البريةَ بالإحسان فانقلعت ... عنه الغياهب والإملاق والعدم[3]
من معشر حبهم دينٌ وبغضهم ... كفر وقربُهُمُ مَنْجَىً ومعتصمُ
إن عُدّ أهل التقى كانوا أئمتهم ... أو قيل من خير أهل الأرض قيلَ هُمُ
لا يستطيع جوادٌ بَعْدَ جُودِهِمُ ... ولا يدانيهمُ قوم وإن كَرُمُوُا
هم الغيوثُ إذا ما أزمة أَزَمتْ ... والأُسْدُ أُسْد الشَرا والبأس محتدم
لا ينقص العسر بسطاً من أكفهم ... شتان ذلك إن أثروا وإن عدموا
يُستدفع السوء والبلوى بحبهم ... ويستزاد به الإحسانُ والنِّعمُ
مقدم بعد ذكر الله ذكرهم ... في كل بدء ومختوم به الكَلِمُ

---

(١) الخيم: الخصال والشمائل.

(٢) يستوكفان أي يطلب ما فيهما من خير.

(٣) الغياهب جمع غيهب وهو الظلمة.

يأبى لهم أن يحل الذمُّ ساحتهم ... خِيم كريم وأَيْدٍ بالندى هُضُمُ
أيُّ الخلائقِ ليست في رقابهم ... لأوليَّة هذا، أوْ لَهُ نِعَمُ
من يعرف الله يعرف أوّلية ذا ... والدين من بيت هذا ناله الأُمَم [(١)]

[٤٧٦] قال الربيع بن سليمان: كنت عند الشافعي إذ جاءه رجل برقعة فقرأها ووقع فيها، فمضى الرجل، وتبعته إلى باب المسجد، فقلت: والله لا تفوتني فتيا الشافعي، فأخذت الرقعة من يده فوجدت فيها:

سل المفتي المكيَّ هل في تزاورٍ ... وضمة مشتاقِ الفؤاد جُناحُ

فإذا قد وقع الشافعي:

فقلتُ معاذَ الله أن يُذهِبَ التقى ... تلاصق أكباد بهنَّ جراحُ

قال الربيع: فأنكرت على الشافعي أن يُفتي لحدث بمثل هذا، فقلت: يا أبا عبدالله تفتي بمثل هذا لمثل هذا الشاب! فقال لي: يا أبا محمد، هذا رجل هاشمي قد عرس في هذا الشهر – يعني شهر رمضان – وهو حدث السن، فسأل هل عليه جناح أن يقبل أو يضم من غير وطء، فأفتيته بهذا.

قال الربيع: فتبعتُ الشاب، فسألته عن حاله، فذكر لي أنه مثل ما قال الشافعي.

قال: فما رأيتُ فراسةً أحسن منها.[(٢)]

[٤٧٧] قال أبو حيان النيسابوري: بلغني أن عياشاً الأزرق دخل على الشافعي يوماً، فقال: يا أبا عبدالله، قد قلتُ أبياتاً، إن أنت أجزت لي بمثلها لأتوبن أن

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى: ١/٢٩١-٢٩٣.

(٢) طبقات الشافعية الكبرى: ١/٣٠٣، ٣٠٤.

لا أقول شعراً أبداً ، فقال له الشافعي : إيهٍ.

فأنشأ يقول :

وما همتي إلا مقارعةُ العِدا خلق الزمان وهمتي لم تخلقِ[(١)]

والناسُ أعينهم إلى سَلَب الفتى لا يسألون عن الحجا والأولق[(٢)]

لو كان بالحِيل الغنى لوجدتني بنجوم أقطار السماءِ تَعَلُّقي

فقال له الشافعي : هلا قلت كما أقول استرسالاً :

إن الذي رُزق اليسار فلم يُصِبْ حمداً ولا أجراً لغير موفَّقِ

فالجَدُّ يدني كل أمر شاسع والجَدُّ يفتح كل باب مغلق[(٣)]

وإذا سمعتَ بأن مجدوداً حوى عوداً فأثمر في يديه فَحقِّقِ[(٤)]

وإذا سمعت بأن محروماً أتى ماءً ليشربه فغاض فصَدِّق[(٥)]

وأحقُّ خلق الله بالهمِّ امرؤ ذو همة يُبلى بعيش ضيِّق

ومن الدليلِ على القضاءِ وكونه بؤسُ اللبيب وطيب عيش الأحمق[(٦)]

- تم هنا الاختيار من كتاب " طبقات الشافعية الكبرى " ، والله الموفق للصواب ، وله الحمد دائماً أبداً سرمداً بلاعدٍ ولا حساب.

---

(١) خلق أي بلى وقَدُم .

(٢) الأولق : الجنون أو شبهه.

(٣) الجَد : الحظ .

(٤) المجدود : المحظوظ .

(٥) غاض : أي ذهب في الأرض.

(٦) طبقات الشافعية الكبرى : ١/٣٠٤، ٣٠٥

فهرست الفوائد

قد قسمت فوائد الكتاب إلى فقرات متتاليات، ورقمت تلك الفقرات من رقم [١] إلى رقم [٤٧٧]، من ثم جمعت النظائر من تلك الفقرات ووضعتها تحت عنوان لائق بها، واجتهدت أن أرتب موضوعات الفوائد ترتيباً منطقياً يسهل معه الكشف عنه بسرعة لمن يريد، ثم صنعت مفتاحاً لفهرست الفوائد، والله الموفق.

الله جل جلاله

القرآن العظيم

- القراءات: [٩١]، [٩٥].

- مسائل قرآنية:

- القراءة بالألحان: [٢٠١]، [٢٠٢].
- ما ثبت عن ابن عباس في التفسير رضي الله عنه: [٣٤٩]، [٣٧٠].
- البسملة: [٣٠٨].
- الجمع بين الرحمن والرحيم في البسملة وسببه: [٣٧٩].
- الفرق بين "بلداً آمناً" و "البلد آمناً": [٣٨٠].
- الفرق بين "وما أهل به لغير الله" و "ما أهل لغير الله به": [٣٨١].
- الفرق بين "تلك حدود الله فلا تقربوها" و "فلا تعتدوها": [٣٨٢].
- الفرق بين "متاعاً بالمعروف حقاً على المحسنين" و "حقاً على المتقين": [٣٨٣].
- الفرق بين "لايقدرون على شيء مما كسبوا" و " مما كسبوا على شيء": [٣٨٥].
- الفرق بين "إن الله ربي وربكم"، و "هو ربي وربكم": [٣٨٧].
- الفرق بين " لا يضرهم ولا ينفعهم" و " لا ينفعهم ولا يضرهم": [٣٨٨].
- إفراد النور وجمع الظلمات: [٣٨٤].
- تقديم "فيغفر لمن يشاء" تارة، وتقديم "ويعذب من يشاء" تارة: [٣٨٦].
- تقديم الأرض في "الأرض ولافي السماء"، وتأخيرها في "في السموات ولا في الأرض": [٣٨٩].
- تقديم الىه على هواه في قوله تعالى: "أرأيت من اتخذ إلىه هواه": [٤٣٤].

رسول الله ﷺ وسنته الشريفة

العقيدة

الرافضة:

العلم

- علوم متفرقة :

- مسائل فقهية :

- مسائل علمية في علوم شتى :

- مسائل علمية متفرقة: [٣٤١]، [٣٤٧]، [٣٤٨]، [٣٥٤]، [٣٥٥]، [٤٠٥]، [٤٠٦]، [٤٣٣]، [٤٧٣].

- **علم التاريخ:**

- إزالة ملك العبيديين: [٢٢١]، [٢٢٨].
- انكسار صلاح الدين في معركة بسبب دعاء شيخ عليه: [٢٢٤].
- نبذة عن دولة الأيوبيين: [٢٦٠] إلى [٢٧٩].
- واقعة التتار: [٢٨٩] وما بعدها.

- **الشعر والأدب**

- أصدق بيت في الشعر: [٦٢].
- من جميل التوقيعات (وهي ما يكتبه الكبراء على العرائض المرفوعة إليهم): [١٢٨].
- المدح الجليل: [٤٧٥].
- حكم جليلة: [١٦١]، [١٦٢]، [٢٨٨]، [٣٥٧] وما بعدها، [٤٧٧].
- نماذج من النثر جميلة: [٤٠٢].
- الهجاء العجيب: [٤٧١].
- القدرة الفائقة على الاستحضار: [٤٧١]، [٤٧٢].
- أشعار متفرقة: [١٣٤]، [١٦٢]، [١٧٨]، [٢١٥]، [٢٣٩]، [٢٤٨]، [٢٥٦]، [٢٨٨]، [٢٩٣]، [٢٩٤]، [٣٠٦]، [٣٠٧]، [٣٠٩]، [٣١٠]

الكتب

العلماء

القضاء والقضاة

الحكام

- عجيبة في شأن مذهب الحكام الفقهي (أو انتصار الحكام لمذهب معين): [٣١٥]، [٣١٦].

الوزراء

- **الوزراء المتميزون:**
- نظام الملك: [١٦٣] وما بعدها.
- سعة صدره مع الناس: [١٦٨]، [١٦٩]، [١٧٢].

العبادات

- عبادات القلب أشرف من عبادات الجوارح: [٧٠].
- العبودية: [١١٤].
- العُبّاد الكبار: [٢٤٩]، [٣٩٨].
- الأذان والترديد خلفه: [١٦٦].
- الحج: [٧٦].
- من امتنع عن الحج لرؤية جليلة: [١٧٣].
- عجيبة في الحج: [٣٦٣]، [٤١٢].
- الدعاء: [٤٥]، [١٧٩].
- الدعاء المستجاب: [٣٧٨].
- الذكر: [٥]، [٤٠]، [٣٦٠]، [٤٥٣].

الاخلاق والصفات الحسنة

صفات تطلب بقدر

الصفات السيئة

المعاصي

الجهاد

أحوال الصالحين

التصوف

المجاهدات والكرامات

الدنيا

الزواج والزوجية

تربية الأولاد

المرض والموت

الرؤى

متفرقات

ويه تم فهرست الفوائد، ولله الحمد والمنة

ويتلوه مفتاح فهرست الفوائد

الصفحة

الصفحة

الصفحة

فهرست الموضوعات